جامعة الجزائر
معهد اللغة والأدب العربي

تطوّر المعاني الخمرية

من العصر الجاهلي حتى أبي نواس

رسالة لنيل شهادة الماجستير

من تقديم : زهية سعدو
تحت إشراف الدكتور :
محمد حسين الأعرجي

١٩٨٥ - ١٩٨٦

مقـدمـة :

رغم أنّ أغلب الدّارسين يشهدون بالرّيادة لأبي نواس في غرض الخمريات ، غير أنّ منهم من يرى بأنّه كان يسرق معاني سابقيه ، وأنّه كان عيالا على غيره من الشّعراء . ولحسم هذه القضيّة ، والحكم لأبي نواس أو عليه ، لا بدّ من تقصّي المعاني الخمرية منذ الجاهلية ومقارنتها بمعاني أبي نواس .

ومن هذا المنطلق كان اختياري لهذا الموضوع الذي كان من اقتراح أستاذي المشرف ، فرحّبت بالفكرة ، وذلك لأنّ الشّعر العربي القديم يزخر - كما يبدو لي - بالمعاني الجيّدة التي تحفّز على البحث والتّنقيب ، كما أنّ تتبّع المعاني عبر العصور عمل لا يخلو من متعة - على ما فيه من تعب الموازنة والمفاضلة - كما أنّه لا يخلو من طرافة .

ولعلّ في هذه الأسباب ما كان حافزا لي على الكتابة في هذا الموضوع .

ولم أقصر بحثي على الشّعراء المشهورين أو الذّين اشتهروا بخمرياتهم ، وانّما كنت أتتبّع المعاني الخمرية عند كلّ الشّعراء ، حتّى المقلّين والمغمورين منهم .

ويشمل هذا البحث شعراء الخمر منذ الجاهلية الى عصر أبي نواس ، أعني الذين عاصروه وتوفوا بعده بقليل مثل مسلم بن الوليد . أوديك الجنّ .

ولقد فكرت - بادىء ذي بدء - أن تكون خطة البحث في ثلاثة فصول هي :

الخمر في الشّعر الجاهلي ، مع التّعرّض لأهمّ شعراء الخمر في هذا العصر كالأعشى

وعدي بن زيد العبادي . والفصل الثاني عن الخمر في العصرين الاسلامي والأموي مع وقفة عند أبي محجن الثقفي والأخطل والوليد بن يزيد وأبي الهندي . أمّا الفصل الأخير فيكون تحت عنوان الخمر في الشّعر العبّاسي ، ويكون فيه التّعرض لخمريات والبة بن الحباب ومطيع بن اياس ، وحمّاد عجرد مع التّركيز على خمريات أبي نواس باعتباره موضوع البحث المختلف فيه ، ثمّ عدلت عنها حين بدأت في جمع المادّة واطّلعت على كتاب الدكتور جميل سعيد " تطوّر الخمريات في الشّعر العربي من الجاهلية الى أبي نواس " . وعندها خشيت أن يكون الدكتور جميل سعيد قد قال ما أستعدّ للبحث فيه ، أو أنّني سأكتب تحت تأثيره . ولكن بدا لي أنّه أعطى للخمريات صورة مجملة وغير مفصّلة . كما أنّه لم يعتمد مصادر صدرت بعد كتابه ، مثل " قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور " لابراهيم بن القاسم الرّقيق القيرواني و " سرور النّفس بمدارك الحواس الخمس " لأبي العبّاس أحمد بن يوسف التّيفاشي .

فعمدت الى تقسيم الفصول حسب المعاني ، وتتبّع هذه المعاني حسب العصور - باقتراح من أستاذي المشرف - وعندها بدا لي العمل أكثر طرافة وصعوبة أيضا .

وبعد جمع المادّة وتصنيفها حسب المعاني ، تحصلت على فصول كثيرة تفوق العشرة ، فرأيت أن أقسمها الى بابين بعد تمهيد يكون مدخلا ، ويليه الباب الأوّل تحت عنوان صفة الخمر ويحتوي على خمسة فصول هي : الخمر ولونها ، الخمر وطيبها ،

تمهيد :

لقد شاعت العادة شرب الخمر عند الأمم السالفة منذ قرون خالية ، (1) وتعاطاها العرب منذ الجاهلية ، وذلك بحكم ظروف حياتهم ، فقد كان العربيّ في البادية يتتبّع أماكن العشب ، فيترك ماشيته ترعى ، ويعمد الى ملء فراغه بالخمر والميسر . (2)

وما كان يعكّر صفاء حياته الساذجة الساكنة ، هو نشوب الحروب بين القبائل ، وللحروب صلة وثيقة بالخمر ، فهي تهب المحارب الشجاعة والجرأة والاقدام على المخاطر قبل الخروج الى القتال . (3) حتّى بلغ الأمر - كما يقول ابن قتيبة - أنّ بعض المسلمين اصطبحوا الخمر قبل خروجهم لغزوة بدر . (4) وذلك قبل تحريمها .

واذا ما حطّت الحرب أوزارها ، أقبل كلّ من الغالب والمغلوب على كؤوس الخمر ، فهي تضاعف من النّشوة بالانتصار والمجد ، كما أنّها تعزّي عن الفشل ، وتسلي عن فقدان النّدماء والأصحاب . (5)

كما اعتبر الجاهليون شرب الخمر من مظاهر الكرم ، فقد كانوا يسقون ضيوفهم النّبيذ ، وكانوا يصنعونه من العسل والتّمر والبرّ والشّعير والزّبيب (6)

---

1) ينظر المختار من قلب السرور 88

2) ينظر تطور الخمريات 28

3) ينظر نفسه 29

4) - ينظر الأشربة 38

5) ينظر تطوّر الخمريات 31

6) - ينظر المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 666 .

والذّرة . كما كانوا يخلطون التّمر والبسر (1) ، والتّمر والزّهو (2) والتمر والزبيب (3) .

وكان اقتناء الخمر من عوامل المباهاة واظهار الترف وعدم المبالاة في الاسراف ، فقد كانوا يبذلون الأموال الكثيرة مقابل الحصول على الخمور الجيّدة ، وخاصة المشهورة منها كخمور"بيت راس" و " أندرين " و" بصرى " . (4)

هذا عن الحياة بالبادية ، أمّا سكّان الحضر ، فكانت ظروف حياتهم مواتيّة لعقد مجالس للخمر واللهو ، وخاصّة أبناء اليسار الذين كانوا يعكفون على الشّرب واللّهو ، ويتباهون باقتناء أغلى الخمور . (5)

ولا بدّ من الاشارة هنا الى أنّ الحيرة - بحكم كونها نصرانية - كانت من أهمّ مراكز اللهو ، حتّى انّها كانت تستقطب عشّاق الخمر واللّهو من جميع أطراف الجزيرة ، لينعموا بالشّرب والسّماع . (6)

وهكذا فقد كان في المدن والقرى والحواضر خمارات تجمع الى جانب أنواع الخمور ، وسائل الترفيه واللهو ، كما كانت الحانات منتشرة في كلّ مكان في أنحاء الجزيرة ، وخاصّة على الطرق ، فقد كان المسافرون ينزلون بها للرّاحة واستعادة النّشاط .

---

1) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 669

2) الزهو = البسر الملوّن (لسان العرب مادّة : زها)

3) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 666

4) ينظر تاريخ الأدب العربي لبلاشير 42 .

5) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 662

6) ينظر الحيوان والغناء في العصر الجاهلي : 46

وكان أصحاب هذه الخمارات نصارى ويهودا في الغالب ، وكانوا ينصبون على باب الحانة راية تدل عليها .(2)(1)

ويتمثل طيب العيش عند الجاهلي في التمتع بالنساء والخمر والطيب ، وكان يعرض عن هذه اللذات حتى يدرك بثأره .(3)

وعلى أن الجاهلي كان يفاخر بشربه الخمر - باعتبارها من مظاهر الكرم ، كما أنها تهب شاربها الشجاعة والجرأة - الا أن شربها حتى الثمالة ، والادمان عليها كان أمرا مشينا ، يستقبحه العرب ، وقد تطرد القبيلة من يدمن شرب الخمر ويعربد على السكر كما وقع لبراد بن قيس ،(4) وطرفة بن العبد .(5)

وقد كان في الجاهلية من ترك شربها لقيامه - عند السكر - بأعمال لم يرتضها في حالة صحوه ، ويذكر أن أول من حرمها على نفسه . الوليد بن المغيرة ، وضرب فيها ابنه هشاما .(6) وتشدد الجاهليون على النساء في شرب الخمر ،(7) أما الرجل فكان يقسم حياته بين غزو ، وسعي وراء الكلأ وعبادة للأوثان ،

---

1) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 667

2) ينظر القيان والغناء في العصر الجاهلي 63 .

3) قال امرؤ القيس عند ظفره ببني سعد :

حلت لي الخمر وكنت امرأ عن شربها في شغل شاغل

فاليوم أسقى غير مستحقب اثما من الله ولا واغل

4) ينظر الحضارة الاسلامية 20 .

5) ينظر ديوانه : 31

6) ينظر المفصل في تاريخ العرب 4 : 672 .

7) ينظر نفسه .

وتشبيب بالنّساء ، وقول للشّعر ، وشرب للخمر .[1] وكانت المثل العليا تتمثّل لديه في الفخر بالنّجدة ، والكرم ، ومجالسة علية القوم في حانات الخمر ، والتّمتّع بالشراب بين النّدامى والقيان .[2]

وبما أنّ قول الشّعر كان من المهامّ التي أفرد لها الجاهليّ وقتا ، وكان شرب الخمر لديه من المثل التي يفخر بها ، فانّ الشّاعر الجاهلي لم يغفل التّغنّي بخمره في أشعاره .

الاّ أنّ تغنّي الشّعراء الجاهليّين بالخمر كان " بروح أهل الفروسية المولعين بالحرب والخمر والنساء " ،[3] لهذا قال أحد الدّارسين[4] بأنّ الشّعر الخمري الجاهلي شعر غنائي قصد به الفخر .[5]

كما اتخذ الجاهلي الخمر كمظهر للتّرف ، وذلك لندرتها ، فقد كانت تجلب من الشام والعراق وفارس ، وكانت الخمور المستوردة من النوع الجيّد باهضة الثمن ، لا يقتنيها الاّ الكريم الشري .[6] كما جاء في قول الأعشى :

---

1) ينظر الحضارة العربية الأموية 62 - 63 .
2) ينظر فجر الاسلام . 94 .
3) الحان الحان . 406 .
4) الدكتور عزيز فهمي .
5) ينظر المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي . 265 .
6) ينظر فنّ الشّعر الخمري . 74 .

وكيف لنا بالشرب ان لم يكن لنا دراهم عند الحانوي ولا نقد ،[1]

فراحوا يفتخرون في أشعارهم باقتناء الخمر ، وبما يبذلونه مقابل الحصول عليها.[2]

فالتغني بالخمر - اذن - لدى الجاهلي يدخل في نطاق الفخر بالكرم والضيافة .

كما شرب الجاهليون الخمر للهو واللذة ، وقد أشار طرفة بن العبد الى أن الفتى الجاهلي يجد متعته في شرب الخمر ، ونجدة المستغيث ، والتمتع بالنساء ،[3]

7 ولهذا [illegible] ما يتعرضون لوصف المجالس التي تعقد للخمر في الحانات ، فيقرنون وصفها بوصف القيان والحديث عن النساء .[4]

فالخمر - اذن - كانت عندهم - أيضا - مادة لهو وعبث ، ولهذا فهي لا تعبر بصدق عن النفسية الجاهلية .

ولعله لهذا السبب ذاته قال أحد الدارسين[5] بأن الاوصاف الخمرية الجاهلية أوصاف عامة لا تعدو التغني بلون الخمر ، وطعمها ، وريحها ، وآنيتها . وأحيانا قد يتعدى الشاعر ذلك الى وصف الساقي والمغنية والمجلس ، وتأثير الخمر في شاربيها . ومع ذلك فانه يشهد بأن أكثر الصفات العامة في وصف الخمر قد وردت في الشعر الخمري الجاهلي ، هذه الصفات التي سيرتكز عليها الشعراء في العصور اللاحقة كما سنرى .[6]

---

1) الديوان 240 .
2) ينظر ديوان لبيد بن ربيعة : 25 . وديوان الأعشى : 99 .
3) ينظر ديوان طرفة بن العبد : 32 - 33 .
4) ينظر ديوان الأعشى 147 .
5) الدكتور عمر فروخ .
6) أبونواس لعمر فروخ 16 .

وما لوحظ أيضا عن هذه الأوصاف ،أنها جاءت متناسخة ،متكررة ،حتى أصبحت "كالأرقام والمعارف العلمية ".(1)

والحقيقة أنه كانت هناك صفات عامة متداولة بين الشعراء حتى أنها فقدت قيمتها الفنية ،فقد أصبح الشاعر ـ أحيانا ـ لا يكاد يصف حمرة خمره حتى يقرنها بالدم، أو بنبات العندم ،كما أنه يتبادر الى ذهننا المسك لمجرد ادراكنا أن الشاعر سيتغنى بطيب خمره . كما تواتر وصف الابريق بالبياض ،وأنه مفدم . غير أنه لا يمكن ـ مع كل ذلك ـ تعميم الحكم على كل الأوصاف الخمرية الجاهلية ،اذ لا يجوز أن ننفي القيمة الفنية لبعض الصفات ،ونذكر على سبيل المثال ، تشبيه الأعشى زق الخمر لسواده وانبطاحه بزنجي استلقى فنام على الأرض .(2)

وكان وصف الخمر كالطلل تقليدا من تقاليد الشعر،(3) الا أنه كان غرضا عارضا يتخلص منه الشاعر الى الغرض المقصود ،(4) فاننا نقع في احدى القصائد على وصف شعاعها ،وفي أخرى على وصف تأثيرها ،أو مجلسها ،أو آنيتها ،دون أن تجتمع هذه المعاني في قصيدة واحدة .(5)

---

1) فن الشعر الخمري 39 .

2) ينظر ديوانه 163 .

3) ينظر فن الشعر الخمري 11 .

4) ينظر أبونواس، عمر فروخ 20 .

5) ينظر فن الشعر الخمري 15 .

فالشّعراء الجاهليون لم يدقّقوا في وصف الخمر ،شأنهم مع الخيل والإبل ،ولم يفرغوا لها قصيدة بأكملها شأنهم مع المدح والرّثاء [1]، ويرجع أحد الدّارسين [2]،سبب ذلك لكون الجاهليّين كانوا يصلون الى الخمر واللهو المرّات القليلة فيفتخرون بذلك في أشعارهم ،وربّما ذكروها في الشّعر دون أن يعيشوا التّجربة في الواقع [3].

وربّما ورد ذكر الخمر في الشّعر لكونها كانت تدخل عندهم في نطاق الفخر بالكرم والضّيافة ،كما أنّها كانت وسيلة الجاهلي الى اللهو في حياته القاسية . وربّما لهذا جاءت المعاني الخمرية مبعثرة بين القصائد ،كما كان وصفها مشوّشا ، غير واضح المعالم .

ومن أكبر شعراء هذا العصر ،الأعشى الذي يحكي الكثير عن لهوه وانغماسه في الملذّات ،،المتمثّلة في الخمر ،والنساء ،والغناء [4]. فقد كانت داره بمنفوحة اليمامة منتدى لذّات المتعة يقصدونها للشرب واللّهو ،كما كانت له معصرة في أشافت لعصر الأعناب ، [5] ولقد هام الأعشى بالخمر وكلف بها ،ويروى أنّ عدم اسلامه انّما كان بسببها ،وقال فيها شعرا كثيرا حتّى قيل أنّه لو قوبل بكل الخمريات

1) ينظر حديث الأربعاء 75 - 76 .
2) الدكتور طه حسين .
3) ينظر حديث الأربعاء ، 76 .
4) ينظر القيان والغناء 221 .
5) ينظر نفسه .

الجاهلية ،لفاقها جميعا .(1) ولقد عمد الى التّفصيل في وصفها ،حتّى كادت القصيدة الخمرية تتكامل لديه .(2) الاّ أنّ أبياته جاءت مفكّكة فهو يسجّل المعنى الذي يعرض له ،دونما تفكير في هندسة أو تصميم ،فالقصيدة تقوم لديه على وصف جزئيات كأنّها مستقلّة ،بحيث يتسنّى لنا أن نغيّر نظام الأبيات دون أن نخلّ بالمعنى .(3)

وعلى أنّ الأعشى اشتهر بشرب الخمر ،والقول فيها ،الاّ أنّه لم يفرد لهـا قصيدة مستقلّة ،بل كان يتناولها ضمن أغراض شتّى في نفس القصيدة ،وتلك كانت طبيعة القصيدة الجاهلية .(4)

والحقيقة أنّ الأعشى قد توسّط بين معاصريه من الشعراء الجاهليّين الذين تعرّضوا لوصف الخمر بلمح خاطفة ،وبين العبّاسيّين الذين سيفردون لها القصائد الطّوال .(5)

ونحن لا نطالب الأعشى بأكثر ممّا جاء به ،ونعترف له بأنّه وضع الخطوط العامّة الكبرى للشّعر الخمري اذ ألمّ بكلّ ما يتّصل بها من شماع وطيب ولون وقدم وصفاء ،ووصف للندامى والساقي والمجلس والباهح ،انّ هذه المعاني قد كانت

---

1) ينظر تطور الخمريات 56 .

2) ينظر فنّ الشّعر الخمري 37 .

3) ينظر نفسه 40 .

4) ينظر نفسه 27 .

5) ينظر تطور الخمريات 31 .

كلّها واضحة في شعره الخمري ، وهذه المعاني ذاتها هي الدّعائم التي ارتكز عليها الشّعراء اللّاحقون ، فأضفوا عليها من عمق تجاربهم وثقافتهم ، وهذه الاضافات ما هي في حقيقة الأمر الآ ظلال لتلك الخطوط الكبرى التي رسمها الأعشى [1]، وبهذا استحق الشّاعر لقب الامام الذي شقّ الطّريق لمن جاء بعده من شعراء الخمر [2].

وجاء الاسلام بتحريم الخمر لمضارّها ، وما تورّثه لشاربها ، فقد هلك قسم كبير من الجاهليين بسببها [3]، وما ملك بعض المسلمين القدرة على ترك شربها ، فقالوا عند تحريمها : " ما حرّم الله شيئا أشدّ من الخمر " [4] وذلك لتعلّقهم بها ، ولقد جاء في قول بنتام الانجليزي " لقد حرّمت ديانة محمّد جميع المشروبات المسكرة وهذا من محاسنها " [5].

وقيل انّ الخمر قد حرّمت عندما شقّ أحد الأنصار أنف سعد بن أبي وقاص الذي كان قد دعاه بعض الأنصار الى طعام وشراب ، ففضّل المهاجرين على الأنصار [6]. وقيل نزلت آية التّحريم عندما استفسر عمر بن الخطّاب من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن أمر الخمر ، وأشار الى عيوبها [7].

---

1) ينظر فنّ الشعر الخمري : 50 .
2) ينظر القيان والغناء 222 .
3) ينظر المفصل في تاريخ العرب 4 : 665 .
4) الجامع لأحكام القرآن 186 .
5) الاسلام والحضارة العربية 99 .
6) ينظر الجامع لأحكام القرآن 286 - 287 .
7) ينظر نفسه 286 .

ولقد جاء تحريم الخمر بالتدريج اعدادا لنفوس المدمنين عليها لأمر التحريم[1].

وكان نزول آية التحريم بالمدينة في شهر ربيع الأول سنة أربع من الهجرة، وقيل بعد غزوة الأحزاب بأيام ذي القعدة سنة خمس من الهجرة[2].

---

1) ينظر الجامع لأحكام القرآن 286.

وأول ما نزل في شأنها : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا " سورة البقرة الآية 213 فتركها بعض الناس لاثمها الكبير وشربها بعضهم الآخر لمنافعها، الى أن شربها رجل فدخل في الصلاة فهجر فنزل قوله تعالى ": يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ " سورة النساء الآية 42 فامتنع عنها قوم وشربها آخرون في غير أوقات الصلاة، حتى نزلت الآية : " يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ".

سورة المائدة الآيتين 89 - 90.

2) ينظر ألحان الحسان 154.

حـق

وأعلن الحدّ في شاربها ". والحدّ أن يجلد أربعين بالأيدي وأطراف الثياب ، ويبكت بالقول الممّض والكلام الرّادع للخير . . . وقيل بل يحدّ بالسّوط اعتبارا بسائر الحدود[1] ويجوز أنّ يتجاوز الأربعين جلدة اذا لم يرتدع الشارب الى ثمانين[2] ، ولا يحّد السكران حتّى يقرّ بشربه الخمر المسكر ، أو يشهد عليه شاهدان أنّه شرب مختارا[3] .

واختلف النّاس في الأشربة الحلال والحرام ، وما اختلفوا في شيء كا ختلافهم في أمر الأشربة . وذلك منذ زمن قديم ، غير بعيد عن الرسول صلى اللّه عليه وسلّم رغم توافر الصحابة والعلماء[4] ، واشتدّ الخلاف في زمن الأئمة ، فأثيرت تساؤلات حول المراد بكلمة " الخمر " ، والقدر المحرّم منها . وكذلك الحال بالنّسبة للنّبيذ .

وعلى أنّ أغلب النّاس أجمعوا على تحريم الخمر بكتاب اللّه ، الا أنّ هناك من قال بأنّ اللّه نهى عن شربها تأديبا ، ولو أراد تحريمها لأنزل في شأنها نصّا صريحا[5] .

---

1) الأحكام السلطانية . 228 .

2) يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه جلد أربعين فلمّا رأى تهافت النّاس عليها ، استشار الصّحابة ، فقال علي عليه السّلام ، تحدّه ثمانين لأنّه اذا شرب سكر ، واذا سكر هذى ، واذا هذى افترى ، وجزاء المفتري ثمانين جلدة ، وبهذا عمل عمر بقية أيّامه (عن الأحكام السلطانية . 228) .

3) ينظر نفسه . 229 .

4) ينظر الأشربة . 3 .

5) ينظر نفسه . 3 .

وننبّه هنا الى أنّ الاختلاف بين الفقهاء لا يرجع الى التّعلّق بالخمر أو عدمه ، وانّما هو اختلاف فقهي يرجع الى منهج البحث ، فأهل الحديث وعلى رأسهم مالك يعتمدون الأحاديث ، بينما أهل الرأي وعلى رأسهم أبوحنيفة يعتمدون القياس المنطقي والدّليل العقلي . (عن الحان الحان 196) .

وهناك من قال بأنّ الخمر لا تكون الآ من العنب (1) ، وخالفهم آخرون مستشهدين بقول الرسول (ص) " الزبيب والتّمر هو الخمر " ، وقول عمر بن الخطاب : الخمر من خمسة أشياء : العنب والتمر والعسل والحنطة والشّعير (2) .

كما اختلفوا في النّبيذ ، فقال بعضهم : هو ماء الزّبيب وماء التمر قبل أن يغليا فاذا أشتدّ ذلك وصلب فهو خمر ، وأشاروا الى أنّ الصّحابة كانوا يتّخذونه في صدر النّهار ليشربونه في آخره ، أو من أوّل اللّيل ليشربونه على غذائهم أو عشائهم ، وقالوا ، انّما سمّي نبيذا لأنهم كانوا يأخذون القبضة من التّمر أو الزّبيب ، فينبذونها في السقاء ، أي يلقونها فيه (3) .

بينما عرّف آخرون النبيذ بأنّه ماء اتخذ من الزبيب والتّمر وغيرهما من المستخرج من الماء ، أو ترك حتّى يغلي ويسكن ولا يسمّى نبيذا حتّى ينتقل عن حاله الأولى (4) .

وذهب فريق الى تحريم كلّ ما أسكر كثيره ، ولو كان مثقال حبة من خردل دونما اهتمام بمدّته ، أو طبيعته ، أو طريقة تحضيره ، معتمدين في ذلك ، قوله صلّى الله عليه وسلّم ، كلّ مسكر خمر وكلّ مسكر حرام وقوله أيضا : كلّ شراب أسكر فهو حرام (5)

---

1) أبو حنيفة وغيره من الكوفيّين ، (ينظر الجامع لأحكام القرآن 2 9 4) .

2) ينظر الجامع لأحكام القرآن 294 . وورد في الأشربة : الخمر من خمسة أشياء البرّ والشّعير والتّمر والزبيب والعسل ، والخمر ما خامر العقل .

3) ينظر الأشربة 5 .

4) ينظر نفسه .

5) ينظر نفسه 6 - 7 .

بينما ذهب فريق آخر الى تحريم الخمر التي أجمع النّاس على تحريمها أمّا ما سواها ، فهو نبيذ ما دون السكر منه حلال وراحوا يدعّمون رأيهم بأنّ الرسول (ص) كان يطوف بالكعبة فعطش فأتي بنبيذ فشمّه ، ثمّ قطب . وزاد فيه ماء وشربه ، كما رووا عنه أنّه قال : " انظروا هذه الأشربة ، اذا اغتلمت عليكم فاقطعوا متونها بالماء " (2) .(1)

ونشير هنا الى أنّ النبيذ الذي يروى أنّ الرسول (ص) تناول منه ، ليس هو النبيذ المحرّم - بالطّبع - وكما هو معروف أنّ النبيذ لغة يطلق على مايعمل من الأشربة ، سواء كان مسكرا أو غير مسكر (3) .

كما اختلف العلماء في أمر الحدّ ، فمنهم من قال بحدّ شارب الخمر أو النبيذ ، سواء سكر أم لم يسكر ، وقال أبو حنيفة بحدّ شارب الخمر وان لم يسكر ، ولا يحدّ شارب النبيذ حتى عند سكره (4) .

واختلفوا أيضا في المقدار الموجب للحدّ ، قال مالك بن أنس : السكران هو الذي يغيب ويخلط ، وقال الشّافعي : هو الذي فارق ماكان عليه من الحلم والسّكون الى السّفه والجهل ، وقال الثوري ، هو الذي اختلس عقله ولا يقيم آية وان استقرّ بها ،

---

1) ينظر الأشربة 22 .

2) ينظر نفسه 23 .

3) ينظر العقيدة والشريعة في الاسلام . 289 .

4) ينظر الأحكام السلطانية . 228 .

واذا سئل عن شئ أجاب عن غيره . أمّا أبو حنيفة فقال السّكران هو الذي يذهب عقله فلا يعرف قليلا ولا كثيرا .(1)

ولم يستطع الاسلام - بما جاء به من وعد ووعيد - أن يقضي على ظاهرة شرب الخمر ،فقد ظلّ قوم من المتلقفين يحتسونها ويتغنّون بها في أشعارهم .(2)

الاّ أنّ الخمريات الاسلامية لا تعدو الأبيات والمقاطع التي تتجلّى فيها نفسية الشاعر المضطربة بين أوامر الدّين ورغبات النّفس . فالشّاعر أصبح يقرب الخمر مع الشعور بالذنب ،لأنّه يعصي الخالق في شربها ،ويتلقّى لوم النّاس الذين يزجرونه من باب النهي عن المنكر . فكان شعراء الخمر يردّون على عاذليهم مؤكدين تعلّقهم بشرابهم ،وكانت أوصافهم - عموما - تقليدية ،كما كانوا يتحدّون الدين الذي جاء بأمر التّحريم ،فجاهروا بعصيانهم الخالق في شرب الخمر .(3)

وبهذا لم ينصرف حارثة بن بدر الى وصف الخمر انصرافا فنّيا ،وانّما حوّل الخمر الى مادّة فكرية وقضية دينيّة فعمل على الدّفاع عنها .(4)

كما أنّنا لا نجد في شعر أبي محجن نزعة وصفية ،أو اهتماما بالمعاني الخمرية كما ورد عند غيره من الشّعراء ،بل انّه بقي يتأرجح بين الطّاعة والمعصية والدّين والالحاد .(5)

---

1) ينظر الأشربة . 59 .

2) الحضارة الاسلامية . 22 .

3) ينظر ديوان أبي محجن الثقفي . 68 .

4) ينظر فنّ الشّعر الخمري . 87 .

5) ينظر نفسه .

وبعد العصر الاسلامي عمّ الترف بسبب الفتوحات ، وبدأ التخلّي عن سياسة التقشف التي سنّها الخلفاء الرّاشدون منذ تولّي عثمان الخلافة ، حيث أسرف في منح الاقطاعات والجوائز .[1] كما عمد خلفاء بني أميّة الى تقليد ملوك الدّول المجاورة في أبهتهم وجلالهم ، وتأنقوا في العمران ،[2] فقد عمل معاوية على تزيين مسجد الرسول (ص) كما بنى لنفسه قصرا وأحاط نفسه بالحجاب وجعل الحراس تمشي بالحراب بين يديه .[3] [4]

وشاع اللهو بسبب التأثير الأجنبي ، والترف ، والفراغ . وقد عمل الأمويون على اغداق الأموال على شباب مكة والمدينة لشغلهم عن طلب الخلافة ، فعمّت مجالس الغناء ،[5] وتناول بعض خلفاء بني أميّة النّبيذ بحجّة أنّه غير محرّم من طرف فقهاء العراق .[6] وكان منهم من يعبث ويعربد مع النّدماء .[7] واشتهر بالفسق والخلاعة وشرب الخمر الخليفة الوليد بن يزيد .[8] [9]

وبمجيء العصر العبّاسي عمّ التّرف والبذخ والرّخاء ، وذلك بفضل اهتمام الخلفاء بشؤون البلاد الاقتصادية ، حيث عملوا على تطوّر الزّراعة والتّجارة ، وغيرها

---

1) ينظر التّاريخ السياسي للدّولة العربية 1 : 254 .

2) ينظر تاريخ الدّولة العربية 332 - 333 .

3) ينظر الاسلام والحضارة العربية - 161 .

4) ينظر التّاريخ السياسي للدّولة العربية 2 : 22 .

5) ينظر الشّعر والغناء 51 .

6) ينظر التّاريخ السياسي للدّولة العربية 1 : 254 - 255 .

7) ينظر الحضارة الأموية . 326 .

8) ينظر التّاج 76 - 77 .

9) ينظر تاريخ الخلفاء . 250 .

من شؤون الاقتصاد .(1)

وبلغت عاصمة الدولة بغداد أوج الحضارة المادية (2) ، وخاصة في عهد هارون الرشيد الذي يمثل أبهة الملك في الاسلام ، وكان قصره مركزا لمختلف الثقافات وضروب اللهو .(3)

وكان العراق - في هذا العصر - أكثر بلاد الله خليطا ، فقد جمع بين حضارة الفرس والهند والروم وغيرهم .(4)

وانتشر اللهو في المجتمع العربي بسبب الترف والتأثيرات الأجنبية ، وكذا تسامح الخلفاء مع المجان ، وميلهم الى اللهو ،(5) كما انتشرت ظاهرة شرب الخمر ، وأقاموا لها المجالس اقتداء بالفرس .(6) ولقد لعبت الأديرة دورا كبيرا في انتشار هذه الظاهرة .(7)

ولهذه العوامل جميعا تطور الفن الخمري في هذا العصر ، فقيل شعر الخمر فن عباسي بلغ ذروته مع أبي نواس .(8) الذي يجمع النقاد على أنه رائد الشعر الخمري في الأدب العربي .

ولقد تضافرت عوامل كثيرة متنوعة جعلته شديد التعلق بالخمر ، يؤثرها على كل لذة في الحياة ، ويتفرغ لها بالشرب والوصف وكأنه خلق من أجل ذلك . ولعل أول

---

1) ينظر تاريخ العصر العباسي 359 - 360 .
2) ينظر محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية . 238 .
3) ينظر تاريخ العرب المطول 2 : 376 .
4) ينظر ضحى الاسلام 1 : 126 .
5) ينظر تاريخ الخلفاء . 267 - 268 .
6) ينظر فجر الاسلام . 146 .
7) ينظر ألحان الحان ، 56 - 57 .
8) ينظر أبو نواس لعمر فروخ ، 38 .

هذه العوامل يعود الى البيئة التي عاش فيها الشاعر ،ولقد مرّ بنا ماعرفه هذا العصر من استهتار بالقيم الدّينية والأخلاقية والاجتماعية ،وما ساد فيه من لهو ومجون ، فانجرف الشاعر مع هذا التيار .

كما كانت نشأته وظروف حياته من الأسباب التي وجّهته هذه الوجهة ،فقد توفّي والده وهو في حداثة سنّه فكفلته أمّه التي نسب اليها من الاستهتار مانسب لابنها . فعانى الشّاعر من الحرمان من حنان الوالدين ،كما أصيب بخيبة الأمل في حبّه لجنان جارية آل عبد الوهاب الثقفي (1) ،وبعدها عنان (2) كما أصيب بخيبة الأمل في رغبته في أن يغدو قاضيا مقربا الى الخلفاء أو شاعرا يتنافس عليه الأمراء ،فحوّلته نقمته على معاصريه الى رجل عادي لا يهمّه من حياته الاّ يومه . (3)

ولقد كان لدى الشّاعر استعداد فطري لما امتاز به من ظرف ، فقد كان لطيفا ، حلو المعاشرة . (4)

ثمّ هناك عامل نفساني لا يقلّ أهميّة عن هذه العوامل ،وهو أنّ الشّاعر أوهم نفسه بأنّ مهمّة الانسان في الحياة تتمثّل في اغتنام ملذّاتها ،فراح يقنع نفسه بذلك . (5)

كما كان الشّاعر يحبّ شرب الخمر لكونها شراب الملوك فهو يفاخر باحتساء الشّراب المتيق الذي خلفه الأكاسرة والقياصرة . (6)

---

1)ينظر ألحان الحان 126 .

2) ينظر نفسه 192 .

3)ينظر" توبة امام الخلاعة : أبي نواس" ،مجلة الأديب سنة 1348 ، 9 : 39 .

4)ينظر أبونواس لأحلام الزّعيم . 30 .

5) ينظر أبونواس لعمر فروخ . 146 .

6)ينظر أبونواس للعقّاد . 144 .

ويرى العقّاد أنّ ادمان النّواسي الخمر لم يكن مجرّد عادة أولذّة ذوقية ، وانّما هو ناتج عن عقدة نفسية غلبت طبيعته النرجسية ، وهي عقدة خسّة النّسب في عصر الأنساب والأحساب .(1)

وماكان أبونواس يستطيب الشّراب كغيره من المدمنين وانّما كان به اليه سعار لا يشبع ولعلّ مردّ ذلك ضعف بنيته ونحافته ، فكان يلجأ الى الخمر يقوّي بها جسمه فتكسبه قوة ونشاطا (2) . كما أنّها تبعث فيه الرّضا عن النّفس والثّقة الذّاتية .(3)

وممّا كان يشجّع الشّاعر على المضيّ في هذا الطريق الذي اختاره لنفسه ، ثقته في سعة رحمة اللّه واعتماده على عفوه ، فقد كان الشاعر يذكر عقاب الآخرة حتّى في أشدّ حالات فسقه وأحسن أيّام نشاطه ، مع الشّعور بالذّنب والأمل في الثّواب والغفران .(4)

وتزخر خمريات أبي نواس بالغزل بالمذكر ، ولقد كانت عوامل ادمانه الخمر من العوامل التي أدّت به الى الانحراف .

ولعلّ أهمّ هذه الأسباب تتمثّل في الوسط الاجتماعي ، فقد انتقلت هذه الظاهرة الى المجتمع العربي عن طريق الفرس (5) . كما تتمثّل أهم عوامل شذوذه في نشأته

---

1) ينظر أبو نواس للعقاد 137
2) ينظر ألحان الحان 129 .
3) ينظر نفسه 130 .
4) ينظر أبو نواس لعمر فروخ 147 .
5) ينظر نفسه 141 - 142 .

الأولى ،فقد نشأ في حجر أم فارسية أسرفت في تدليله لكونه وحيدها اليتيم ،ثم تزوجت فانشغلت عنه ،فانصرف الطفل الى مصاحبة الغلمان بالمسجد الجامع ،(1) ويقال ويقال أنه أخذ هذا الفن عن أستاذه الماجن والبة بن الحباب .(2)

وتعلق الشاعر الشديد بالخمر جعله يشير الى جودتها وقدمها ،فهي من أحسن ما اقتنى كسرى من الخمور الجيدة ،فأشاد الشاعر بحياة الفرس الناعمة ، وصرح بكرهه للحياة القاسية التي كان يعيشها العرب في جاهليتهم ،فرمي الشاعر بالشعوبية .(3) وهناك من نفاها عنه ،وفسر ما جاء في شعره بنزوات شاعر تستهويه الحياة المتحضرة .(4) وأن شعوبيته كانت ثورة حضارية ولم تكن ثورة جنسية .(5) فشاعرنا اذن يكره عيش الأعراب ولا يكره العرب . ويتهكم من الشعراء الذين لا يراعون الواقعية في أشعارهم .(6)

ويكاد يجمع الدارسون على أن ما جاء في خمريات الشاعر من تفضيل لحياة الفرس على حياة العرب انما كان بسبب ايثاره لحياة الترف عند الأمم المتحضرة على بداوة العرب وتقشفهم .(7)

---

1) ينظر ألحان الحان 288 - 289 .

2) ينظر أبو نواس لعمر فروخ 139 .

3) والشعوبية قوم متعصبون على العرب مفضلون عليهم العجم ،نشأت دعوتهم بعيد عصر الخلفاء بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط في خدمة الدولة الاسلامية ، فنشأت العداوات بين العرب أصحاب الدولة ،وبين العجم الذين انتحلوا الاسلام . (عن الاسلام والحضارة العربية 34) .
ولقد ظهرت شعوبية أدبية تدعو الى احياء الثقافة الفارسية ،وشعوبية دينية تدعو الى الزندقة وتعادي الاسلام والعروبة (ينظر الجذور التاريخية للشعوبية للدكتور عبد العزيز الدوري ،وأبو نواس لزكي المحاسني : 44) .

4) ينظر تاريخ الأدب العباسي لنكلسن 8 .

5) ينظر الفن ومذاهبه في الشعر . 99 .

6) ينظر أبو نواس لعمر فروخ . 109 .

7) ينظر أبو نواس لعمر أبي النصر . 44 .

وترجع الدّكتورة أحلام الزّعيم سبب اتّهامه بالشّعوبية الى دعوته الى التّجديد في الشّعر (1).

وتعتبر الخمريات من أحسن شعر أبي نواس (2)، هذه الخمريات التي اجتمعت فيها أخيلة ومعان كثيرة ومتنوّعة منها ما أخذه من متقدّميه - وخاصّة الوليد بن يزيد - ومنها ما أفاده من معاصريه، ثمّ منها ما أنفرد به (3).

وهكذا تضافرت جهود شعراء الخمر المتقدّمين أمثال الأعشى والأخطل الذين اقتلعوا المعادن (4)، وجهود أبي نواس الذي خلّص التّبر من التّراب، فاكتملت بفضل هذه الجهود صورة الخمريات في الأدب العربي.

ولقد جمع مهلهل بن يموت بن المزرّع سرقات أبي نواس (5)، الاّ أنّه كان متعصّبا عليه، حيث ادّعى السّرقة في الألفاظ، وفي تشابه موضوع الأبيات، وفي أسماء الأماكن والبقاع، وحتّى في مجرّد تشابه أسلوب الكلام (6).

وعلى أنّ النّواسي أفاد من معاني غيره من الشّعراء، الاّ أنّه استطاع أن يضع طابع شخصيته على شعره (7).

---

1) ينظر أبو نواس لأحلام الزعيم . 33 .

2) ينظر أبو نواس لعمر فروخ . 115 .

3) ينظر نفسه . 150 .

4) ينظر ألحان الحان . 159 .

5) في كتابه سرقات أبي نواس .

6) ينظر مشكلة السّرقات . 156 .

7) ينظر تاريخ الشّعر العربي . 434 .

ولصراحة هذا الشاعر الذي لا يتحرّج من وصف مجونه ، فقد وصف لنا حياته وحياة مجتمعه كما هي [1]. ومع هذا فانّه من الظلم أن نقول بأنّ أبا نواس يمثّل الحياة في البيئة العبّاسية ، وذلك لأنّه مثّل جانب اللّهو الذي كان الى جانبه نواحي أخرى من الورع والتّقوى والعلم والصّناعة ... ، كانت موجودة وفقدناها في ديوان أبي نواس [2].

ومع ذلك فانّ شاعرنا يمثّل بشعره الخمري - خاصّة - ناحية واسعة من الحياة العبّاسية ، فقد وصف لنا بصدق حياة التّرف التي عرفتها بغداد خاصّة ، وكيف طبعت هذه الحياة بالطّابع الفارسي ، كما يتجلّى من خلال شعره الخمري تيّار اللّهو والمجون الذي جرف مجموعة كبيرة من معاصريه ، وماشاع في عصره من افتخار بالنّسب .

وهكذا أعطى أبو نواس لفنّ الخمريات في الشّعر العربي صورته الأخيرة ، اذ لم يضاهه سابقوه ولا لاحقوه في وصف الخمر ، ولهذا اكتسب على الدّهر في تاريخ الأدب العربي لقب شاعر الخمر [3].

---

1) ينظر المقارنة بين الشّعر الأموي والعبّاسي 397 .

2) ينظر أبو نواس لعمر فروخ . 67 .

3) ينظر نفسه . 7 .

(الباب الأول)

صفة الخمر

الخمـــر ولـــونهـــا :

قد يتمتّع شارب الخمر بشرابه قبل احتسائه ، وذلك بفضل طيبه المتضوّع ، أو لونه الذي يخطف الأبصار لشدّة صفائه وتألّقه .

ويختلف لون الخمور باختلاف أنواعها ، لأنّها تصنع من موادّ مختلفة ، فهناك المتّخذة من أكثر أنواع الفواكه ، كالتّمر ، والبسر ، والعنب ، والزبيب ، والتّفاح ، والمشمش.(1) والمصنوعة من الحبوب كالشّعير ، والبرّ ، والذّرة.(2) كما كانوا يتّخذون من التمر والبسر شرابا لهم ، وهو مايعرف بالفضيخ(3) ، أمّا البتع فيصنع من العسل ، وقد اشتهر بشربه أهل اليمن(4) ، وصنعوا من العسل أيضا شرابا عرف بالمقدى .(5)

وتختلف الخمور من بلد الى آخر . كما أنّها قد تختلف في البلد الواحد حسب طريقة استحضارها .(6)

والى جانب الخمور المصنوعة محليا ،كانت هناك أيضا خمور مستوردة تعود بها القوافل التّجارية الى البلاد العربية .(7)

كما تختلف الخمور باختلاف أنواع الأعناب التي صنعت منها ، فهناك العنب الأبيض ، والأحمر والأسود .

---

1) ينظر الحضارة الأموية العربية 329 .

2) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 669 .

3) ينظر نفسه 4 : 666 .

4) ينظر نفسه 4 : 669 .

5) ينظر نفسه : .

6) ينظر الحضارة الأموية العربية 329 .

7) ينظر الشعر والغناء 208 .

وكان الخمارون يدركون موضع المادّة الملوّنة من العنب ، وهي في باطن القشرة.[1]

" فاذا كان الشراب الأحمر هو المرغوب فيه عمدوا الى الأعناب السود والحمر الدّاكنة، وهي في العادة أغنى الأعناب في المادّة السّكرية ، فاذا أريد الأصفر اتخذوا له الأعناب الضاربة الى الحمرة أو البيض مضافا اليها بعض عنبات سود أو احمر داكنة .

وأمّا الشراب الأبيض فيختارون له العنب الأبيض ، والاّ عمدوا الى الأعناب الملونة فعصروها عقب قطافها وأحسنوا تصفيتها من بقايا القشرة وسائر الثّفل في التّوّ قبل أن تختمر . ولهذه العجلة سرّها . . . والشراب الأبيض الحاصل من الأعناب الحمر على هذه الصفة يكون مشربا بصفرة خفيفة ، وهو مايسمّونه الصّهباء"[2].

وذهب عامّة الأطباء قديما الى أنّ أجود الخمور الخمر الحمراء الصّافية ، وكلّما اشتدت حمرتها ، وغلظها كانت أكثر توليدا للدّم .[3]

وقد شاع بين الشّعراء تشبيه الشراب الأحمر بالدّم ، ثمّ عمدوا الى التّجميل فشبهوه بدم الظباء ، وكأنّما هي ليست كغيرها من الدّماء.[4]

قال الأعشى في خمره يصف شدّة حمرتها .

وسبيئة ممّا تعتّق بابل كدم الذّبيح سلبتها جريالها .[5]

فحمرة الخمر لدى الشاعر لا تعتبر مجرّد لون يصبغ شرابه ، بل انّ هذه الحمرة تفيد جسده حين تسري الخمر في عروقه .

---

1) ينظر ألحان الحسان 230 .

2) نفسه 230- 231 .

3) ينظر نفسه 230 .

4) ينظر نفسه 171 .

5) الديوان 23 وقال أيضا في هذا المعنى :

كمثل دم الجوف اذ أعتقت فزاد على العتق أحوالها .

وتلطف أمرؤ القيس فشبّه لون خمره بدم الغزال في قوله :

(1)

أنف كلون دم الغزال معتّق من خمر عانة أو كروم شبام

والخمر الجاهلية إن لم تقرن بالدّم لحمرتها ، فهي تحاكي النّبات الشديد الحمرة ، وطالما وصفها الشعراء بالعندم ، أو البقّم (2) ، وهو شجر أحمر . قال الأعشى :

(3)

فبتّ كأنّي شارب بعد هجعة سخامية حمراء تحسب عندما

فخمر الأعشى توهم بأنّها ذلك النّبات الأحمر ، وعمد أيضا الى الأزهار الذّبحية يشبّه بها شرابه ، وذلك لشدّة حمرتها .

(4)

وشمول تحسب العين اذا صفّقت وردتها نور الذّبح

وجاء في معلقة عمرو بن كلثوم :

(5)

مشعشعة كأنّ الحصّ فيها اذا ما الماء خالطها سخينا

وتكون حمرة الخمر أحيانا ضاربة الى الدّكنة ، والخمر التي يخالط حمرتها سواد تعرف بالكميت ، قال الأعشى :

(6)

كميت عليها حمرة فوق كمتة يكاد يفرّي المسك منها حماتها

وهناك الخمر التي يميل لونها الى البياض ، وتشوبها صفرة خفيفة ، وهي التي تعرف بالصهباء . قال الأعشى :

وما صهباء من عانة في التّراع محمولة

---

1) الديوان 163 .
2) لسان العرب مادة : عندم .
3) الديوان 200 .
4) نفسه 162
5) شرح المعلقات السّبع 126 .
6) الديوان 60 .

بأشهى مِنك للظمآن لو أتيـك مبـــــــــــــــذولـيـــة (1)

وأكد الشعراء صفاء خمرهم ،فلجأوا الى تشبيهها بعين الديك كما جاء في قول الأعشى :

وكأس كعين الدّيك باكرت حدّها بفرتها اذ غاب عنها بغائها (2)

لقد لجأ الشّعراء الجاهليون الى البيئة المحيطة بهم لايجاد شبيه لخمرهم في الصّفاء ،فكانوا يدركون أنّ الغراب نافذ البصر صافي العين ،فقالوا :

أصفى من عين الغراب - على تشاؤمهم منه -

كما ضربوا المثل في الصّفاء بعين الدّيك .(3) فكانت الخمر الصافية تشبّه بعين الدّيك - كما تقدم - .

وقد تبلغ الخمر من الصفاء مايجعل النّاظر اليها يبصر القذى من خلالها ،قال الأعشى معبّرا عن ذلك :

تريك القذى من دونها وهي دونه اذا ذاقها من ذاقها يتمطّق (4)

ولعدي بن زيد في خمر حمراء صافية :

باكرتهنّ قرقف كدم الجو ف تريك القذى كميت رحيق (5)

وشدّة صفاء الخمر جعلت الشعراء يذهبون الى الحديث عن شعاعها ،ولمعانها ،كمثل قول عدي بن زيد الذي وصف خمره بأنها تضيء .

---

1) الديوان 256 .

ولحسان بن ثابت في هذا المعنى قوله :

ولقد شربت الخمر في حانوتها صهباء صافية كطعم الفلفل

2) الدّيوان 235 .

وورد في هذا المعنى أيضا قول حسان بن ثابت :

وقد غدوت على الحانوت يصبحني من عاتق مثل عين الدّيك شمشاع

3) ينظر تاريخ الدولة العربية 32

4) الديوان 147 .

5) الديوان 77

ثلاثة أحوال وشهرا محرّما   تضيء كعين المتوفان المحارب (1)

فالشاعر يشبّه لون خمره المتوهّج بعين الدّيك الثّائر الذي تألّقت عيناه من الغضب، فهو وإن اعتمد البيئة في تشبيهه، فإنّه لم يستغن عن الخيال، إذ لم يقف عند الجمع بين الخمر وعين الدّيك، لأنّه لا يريد التّنويه بصفاء خمره فحسب، بل انّه يذهب الى تأكيد لمعانها أيضا، فالدّيك لا يحاكي لون عينه خمر عدي الّا في حالة غضبه وثورته، حين يحقد على خصمه، فيشتدّ غضبه، ويلمع بريق الحقد في عينيه.

ولعدي أيضا في لمعان خمره قوله:

تأكل ماشئت وتمتلّها   حمراء من خصّ كلون الفصوص (2)

فخمرة تحاكي في لمعانها الأحجار الكريمة التي توضّع بها الخواتم والحليّ الثّمينة.

ويتأمّل الأعشى صفاء الخمر عند سيلانها، فيوحي له لمعانها بلمعان شعلة من النّار:

وأوقدتها صفراء في رأسي تنضب   وللكمت أروى للنّزول وأشبع (3)

بل انّ لمعان خمر الأعشى يفوق وهج شعلة النّار أحيانا، حيث يتألّق نورها تألّق شعاع الشّمس ابّان طلوعها أو غروبها، حيث تكون على شكل قرن في الأفق، فترسل خيوطا من الأشعة على الأرض، وشعاع الشّمس عند الشّروق أو الغروب يكون أشد حمرة وتألّقا من شعاعها وهي على شكل قرص وسط النّهار، قال الأعشى:

---

1) الديوان 118، وله أيضا في هذا المعنى ينظر ديوانه 214.
2) نفسه 69.
3) الديوان 248.

(1)
كأنّ شعاع قرن الشّمس فيها   اذا ما فتّ عن فيها الختاما

وإذا انتقلنا الى العصر الاسلامي فاننا نجد أنّ شعراء هذا العصر ظلّوا يقتفون أثر أسلافهم من الجاهليّين في وصف لون الخمر ولمعانها ، وعلى أنهم كانوا يحاولون التّجديد ، الاّ أنّهم كانوا لا يتجاوزون المعاني القديمة الاّ نادرا .

لقد شاع عند شعراء الجاهلية تشبيه الخمر بالدّم بغية تأكيد حمرتها ، - كما تقدّم - الاّ أنّنا نجد الشاعر الاسلامي ، القطامي يتحفظ من هذا التّشبيه عند الافادة منه ، فلا يعمد الى التّعميم في تشبيه خمره بأيّ دم كان ، بل هو لا يجعل الدّم شبيها بخمره الاّ اذا كان دم الغزال .

(2)
ورقيقة الحجرات بادية القذى   كدم الغزال صبحتها ندمانا

وتشبيه الخمر بدم الغزال تشبيه عرفه الجاهليون وقد ورد عند امرئ القيس .

كما أفاد حارثة بن بدر من تشبيه الجاهليّين الخمر الصّافية بعين الدّيك فقال :

(3)
وخذها كعين الدّيك تشفي من الجوى   وتترك ذا التّهمام جمّ المذاهب

ويتحدّى حارثة بن بدر عاذله على الشراب الأصهب الصّافي ، ويؤكد له تعلّقه به حين يقول :

(4)
وقلت أبا صخر دع النّاس يجهلوا   ودونكها صهباء ذات تألّق

---

1) الديوان 135

2) الديوان 60 .

3) الأغاني 23 : 477 .

4) نفسه 23 : 495 .

هكذا نلاحظ أنّ شعراء الخمر الاسلاميين ظلوا - في الغالب - يقتفون أثر أسلافهم في وصف لون الخمر .

ونجد الشعراء الامويين يحاولون التجديد ، وتخطّي المعاني القديمة المتداولة في وصف لون الخمر ، فهذا الأخطل يشبّه كمتة شرابه بالجلد المدبوغ حيث يقول :

(1)
وكأنّما أنا شارب بجيادِ تليه ... بصرى بصافية الأديم عقيبار

وقال الأقيشر يصف حمرة شرابه :

(2)
كميت اذا فضّت وفي الكأس وردة ... لها في عظام الشاربين دبيب

فالشاعر لا يشبّه خمره بنور الذبح مثل الأعشى ، ذلك لأنّ الأقيشر أصبح يعيش في بيئة متحضّرة ، جعلته يعرف من الورود أشكالاً وألوانا . ولا شكّ أنّ الورود الحمراء تفوق الأزهار الذّبحية حمرة وجمالا ، فالأقيشر أعرض عن معنى الأعشى ، وأفاد من واقعه .

ولا تخلو الخمريات الأموية من التغنّي بالشراب الأصهب الذي امتدحه الشعراء منذ الجاهلية ، فقد تغنّى به الأقيشر ، كما ذكر الأخطل أنّه كان في شبابه يحتسي الأصهب من الشراب . (4)

وغالبا ما وصف الشّعراء الخمر الصّهباء بالصّفاء ، كما فعل الأعشى من قبل ، فقد

---

1) الديوان 1 : 76 .
2) الأغاني 11 : 252 .
3) ينظر تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ 1 : 432 لم يرد هذا البيت في الأغاني .
4) الديوان 1 : 28 .

يغنّي الأخطل ،بهذا الصّفاء ،والوليد بن يزيد ،على أنّ الأخطل أضاف الى[1][2] معنى الصّفاء معنى طريفا آخر بين شبهها بوجه أبيض البشرة علاه الكلف .

صهباء قد كلفت من طول ماحبست في مخدع بين جنّات وأنهار[3]

وطلب مرّة عبد الملك بن مروان من الأقيشر أن يقول في الخمر ،فقال يصفها بالصّفاء :

تريك القذى من دونها وهي دونه لوجه أخيها في الاناء قطوب[4]

والشطر الأوّل من البيت نقله الأقيشر نقلا بلفظه ومعناه من قول الأعشى[5] وكلّ مابينهما من خلاف أنّ الأعشى جعلها لذيذة المذاق ،على حين جعلها الأقيشر حارقة .

ويؤكد أبو الهندي صفاء شرابه بقوله :

وكأس كعين الدّيك قبل صياحه شربت بزهر لم يضرني ضريرها[6]

وهو هنا يعتمد معنى تداوله الشعراء منذ الجاهلية ،ولكنه يضيف اليه جملة " قبل صياحه " كناية عن شدة صفاء عينيه .

---

1) ينظر ديوانه 1 : 84 ، 1 : 77 .
2) ينظر ديوانه . 27
3) الديوان 2 : 117 .
4) الأغاني 11 : 252 .
5) ينظر صفحة 27 من هذا البحث .
6) طبقات الشعراء 81 .

وقال الوليد بن يزيد يصف خمره بالصفاء : (1)

تريك القذاة وعرض الاناء ستر لها دون لمس البنان

فخمره لصفائها وشفافية الزجاجة التي تحتويها تغري اليد بلمسها ، الا أن جوانب الإناء تحول دون ذلك .

وكثيرا ما ذهب الشعراء الأمويون الى تأكيد صفاء خمرهم ، فقد أبعد عنها الأخطل كل ما من شأنه أن يكدر صفوها (2) . وقال ابن أرطأة في خمره البيروتية :

أغر راووقه ملآن صافية تنفي القذى عن جبين غير خزيان

سبيئة من قرى بيروت صافية عذراء أو سبئت من أرض بيسان (3)

فالشاعر يذكر أن خمره صفيت في اناء ويصفها بالصفاء ، ثم يؤكد ذلك في البيت التالي فكأنه يخشى أن لا يفي خمره الصافية حقها من الوصف .

وصفرة الخمر أو حمرتها مع صفائها ، يكسبانها تألقا ، وتعرض الشعراء الى وصف لمعانها ، وقد مر بنا تشبيه الأعشى لخمره الصافية بالشعلة ، ولعل الوليد بن يزيد اعتمد معناه هذا حين شبهها بالقبس في قوله :

كأنها في زجاجها قبس تزهو ضياء في عين مرتقب (4)

فقد أوحى للشاعر تألق الخمر بقبس من النار متوهج اللهيب ، فجعل ذلك التألق يصدر عن الخمر لطربها وفرحها .

---

1) الديوان 72 .

2) ينظر ديوانه 3 : 251 .

3) الأغاني 2 : 222 .

4) الديوان 22 .

أمّا الأخطال فشبّه خمره بجمرة متّقدة .

(1)
فصبّوا عقاراً في اناء كأنّها اذا لمحوها جذوة تتأكل

وهكذا جمع الشاعر بين الخمر والنار في اللون والحركة .

ولعلّ يزيد بن معاوية أفاد من تشبيه الأعشى للخمر بقرن الشمس حين

قال :

(2)
وشمسة كرم برجها قعر دنّها فمطلعها الساقي ومغربها فمي

اذ لم يعد للشاعر شك هنا في أنّ خمره شمس ، حين قام بتحديد برجها

ومطلعها ومغربها .

أمّا ابن أرطأة فيرى في خمره نجماً ساطعاً ، كما يصفها بالوهم في قوله :

حسوها صلاة العصر والشمس حية تدار عليهم بالصّغير وبالضّخم

(3)
فماتوا وعاشوا والمدامة بينهم مشعشعة كالنّجم توصف بالوهم .

واذا كان الشعراء يشبهون خمرهم بالشّمس ، فانّ الأخطل لا يجد ميزة للكوكب

على زجاجة خمره ، الآ الحرارة ، فخمره كوكب غير متقد .

(4)
على مقبّل أروى أو مشعشعة يعلو الزّجاجة منها كوكب خصر

وشبّهها بكوكب المرّيخ في قوله :

(5)
فجاء بها كأنّما في [إنائه] بها الكوكب المرّيخ تصفو وتزبد

---

1) فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب : 103 ، البيت غير وارد بالدّيوان .
2) حلبة الكميت 139 .
3) الأغاني 2 : 222 .
4) الديوان 3 : 252 .
5) نفسه 4 : 321 [انائه] جاء في الدّيوان أنايه والأصوب ما ذكرنا .

وانّما لجأ الشّاعر الى تشبيه خمره بالمرّيخ لأنّ لونه ضارب الى الحمرة ،
ويؤكد أحد الدّارسين [(1)] تأثّر الأخطل في هذا البيت بمعنى الأعشى في
تشبيهه شعاع الخمر بقرن الشّمس ،ولا يستبعد أن يكون الأخطل قد أفاد من
معنى الأعشى ،الاّ أنّه تجاوز قوله ،وطوّر معناه . فالأعشى يوهم بأنّ شعاع
قرن الشّمس يخالط خمره ،بينما يوهم الاخطل سامعه بأنّ آنيته تحتوي
الكوكب لا الخمر .

ولجأ الشعراء الى تشبيه تألّق الخمر بلمع البرق الخاطف ،كما ورد عند
الوليد بن يزيد [(2)] ،وكذا عيينة بن حصن في قوله :

(3)

وقلت حلال أن ندير مدامة ... كلون انعقاق البرق والليل مسدف

فهو لا يرى لمعان البرق شبيها بخمره الاّ اذا لاح في ليل قاتم السّواد ،
تأكيدا منه تألّق شرابه .

أمّا يزيد بن معاوية فيشبّه خمره في تألّقها بالذّهب قبل صياغته .

(4)

مدام كتبر في اناء كفضّة ... وساق كبدر مع ندامى كأنجم

---

1) ايليا حاوي ينار فن الشعر الخمري وتطوّره عند العرب 108 .
2) ينار ديوانه : 72 .
3) الأغاني 5 : 171 .
4) حلبة الكميت 139 .

وهكذا استطاع الشعراء في العصر الأموي تطوير المعاني القديمة ،وابتكار معان أخرى طريقة في وصف لون الخمر ولمعانها .

واذا تتبعنا وصف الخمر ولمعانها في العصر العباسي نتبين أن شعراء هذا العصر ظلوا يعتمدون معاني سابقيهم محاولين تطويرها ،لجعل خمرهم أكثر تألقا ولمعانا ،فجددوا في المعاني القديمة ،كما أبدعوا بعض المعاني في وصف لون خمرهم وتألقها .

وهذا الشاعر ابراهيم بن هرمة يشبه خمره بنبات السورس .

وكأنما خضبت بحمض مورس آباطها من ذي قرون أيايل (1)

وهو هنا الا يتجاوز الشاعر الجاهلي الذي كان يعمد الى ما أحمر من نبات بيئته فيتخذه شبيها لخمره الحمراء .

أما أبو الشيص فشبه خمره بالذهب الأحمر المذاب .

كأن الذهب الأحمر في حافاتها يجري (2)

ويبدع مسلم بن الوليد صورة طريفة في تغنيه بحمرة شرابه ،وذلك حين يصف كف الساقي المحمرة من خلال الزجاجة ،فيقول كأنه خضبها بالتوت أو بصبغ أحمر .

وهذا المعنى لم يطرقه سابقوه ، ولعله أول من تفطن اليه ،يقول

محمرة كف ساقيها بحمرتها كأنما هو بالفرصاد مختضب (3)

وتفنن مسلم في صياغة هذا المعنى حين وصف تأثير الشراب الأصهب في أنامل الساقي فقال :

---

1) الديوان . 194

2) تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ 2 : 149 لم يشر الى مصدر البيت .

3) الديوان . 178 .

(1)
أغارت على كفّ المدير بلونها   فصاغت له منها أنامل كالذّبل

وهكذا وصف الشاعر أنامل الساقي التي تمتد وصفراء من خلال زجاجة شراب أصهب ،فجعل هذه الخمر تنتزع أنامل هذا الساقي ، وتعوّضها بأخرى صفراء .

وصرفت صفرة الخمر أذهان الشّعراء الى الزّعفران ،فراحوا يشبهون به شرابهم الأصهب . كما ورد عند بشار بن برد (2) ،وقد ورد هذا المعنى عند الوليد بن يزيد (3) .

وسواء أكان الشراب أحمر أو أصفر ،فهو دائم التّألق ولعلّ شعراء الخمر في عهد بني العبّاس أفادوا من أسلافهم تشبيه تألّق الخمر باللّهب . قال أبو الشّيص في هذا المعنى :

(4)
اذا فرجات الكاس منها تخيّلت   تأمّلت في حافاتها شعل اللّهب

أمّا مطيع بن اياس فيتخيّل أنّ بكأسه شرارا اذ يقول :

(5)
ونشربها معتّقة   تخال بكأسها شررا

ويذهب ديك الجنّ الى أنّ هذه الخمر المتّقدة التي تكاد تحرق كفّ الساقي ،انّما هي مستعارة من وقدة الشمس ،أو من وجنتي مديرها .

فقام تكاد الكأس تحرق كفّه   من الشّمس أو من وجنتيه استعارها

---

1) الديوان 32 ، ومثله قوله : اذا مسّها السّاقي أعارت بنانه
جلا بيب كالجاديّ من لونها صفرا .
2) ينظر ديوانه 1 : 161 ، 2 : 117 .
3) ينظر ديوانه . 72 .
4) طبقات الشعراء . 81 .
5) الأغاني 13 : 322 .

(1)
مورّدة من كفّ ظبي كأنّما تناولها من خدّه فأدارها

لقد ارتكز الشاعر على معاني سابقيه منذ الأعشى في تشبيه الخمر بالشّمس، فطوّر هذا المعنى حين أوهم السّامع بأنّ خمره كالشّمس لمعانا وحرارة، كما أبدع في وصف شدة حمرتها، فقال كأنّما هي عصارة وجنتي مديرها.

ويشبّه أبو الشيص خمره الصّافية بوجه متألّق، ليست على بشرته الناعمة آثار للجروح.

(2)
صهباء أحقاب جلا الدهر وجهها فليس بها - الا تلألؤها - ندب

ولعلّ الشاعر أفاد من معنى الأخطل الذي شبه خمره الصّهباء بوجه أبيض البشرة علاه الكلف.

ويبدع مسلم في وصف صفاء خمره حين يقول:

(3)
فضّت خواتمها في مثل واصفها عن مثل رقرقة في جفن مرهاء

فهذه الخمرة تشبه قطراتها الدّمعة الصّافية المترقرقة من عين خالية من الكحل.

كما يبدع والبة بن الحباب في جعل تألّق خمره يحاكي لمعان السّراب في

---

1) الديوان 39 .
2) طبقات الشعراء 81 .
3) الديوان 33 ومثله قوله:
شققنا لها في الدّنّ عينا فأسبلت كما أسبلت عين الخريد بلا كحل

الأفق وذلك في قولـــه :

(1)

خرجت لـه مشعشـة شمـولا معتقـة كـر قراق الســراب

وهذا المعنى من المعاني الطريفة التي أبدعها الشعراء العباسيون .

ويشغل وصف لون الخمر قسما كبيرا من خمريات أبي نواس ، فكثيرا ما يتغنى بحمرتها أو صفرتها ، أو نورها الذي يضيء الكون ، اذ " لم يكن كمنظر الخمر منظر في عينه . فكان أول همه اذا تناول الكأس أن يتأملها ويديم النظر اليها ، فلا يرفعها الى فمه يحتسيها ويفرغ في جوفه ما فيها حتى يكون قد ملأ منها عينيه جميعا . "(2)

وكان أبو نواس في وصفه لون الخمر ولمعانها يفيد من معاني سابقيه ، كما كان يرتكز عليها ويتجاوزها ، فيخرجها في صور جديدة ، وله معان طريفة لم يسبق اليها .

ومن المعاني المطروقة التي أخذها أبو نواس من أسلافه ، تشبيهه الخمر بالدم :

(3)

مثل دم الشادن الذبيح اذا ما انساب منه على الأرض أو قطرا

وهذا المعنى قديم تداوله الشعراء كثيرا كما رأينا . ويرتكز أبو نواس على هذا المعنى ويتجاوزه حين يشبه انسياب الخمر عند البزل بدم الرعاف .

---

1) المختار من قطب السرور 422 .

2) ألحان الحان 170 - 171 .

3) الديوان 190 وله أيضا في هذا المعنى ، ينظر ديوانه : 134 .

(1)
فسـال منها مثل الرّعاف دم   يشفى بـه من سقامه الضمـق

كما شبه خمره الحمراء بالعندم في قولـه :

(2)
حتّى اذا عقرت سالت سلالتها   في قعر مصرة كالعندم القاني

فأبو نواس حين يشبّه حمرة شرابه بالعندم ، فانّه لا يتعدّى ما جاء به أسلافه من الشّعراء ، الاّ أنّه يذهب الى تأكيد حمرة شرابه ، فكأنّه يشك في لون العندم فيعمد الى الدّقة مشيرا الى أنّ خمره تشبه نبات العندم عندما يكون شديد الحمرة ، وذلك ما أراده حين قال أنّ خمره "كالعندم القاني" .

كما كان أبو نواس مقلّدا عند تفنّنه بصفرة شرابه وذلك لأنّه لجأ الى تشبيه خمره الصّفراء بالزعفران (3) ، أو بنبات الورس (4) . وقد قيل الكثير في هذين المعنيين . وتشبيه الخمر عموما بالنبات الأحمر أو الأصفر معنى تداوله الشعراء كثيرا ، والشاعر الجاهلي كان يعتمد بيئته وما تفيده به من أشياء محسوسة يدعّم بها معناه ، الاّ أنّ أبا نواس ظل يعتمد هذه التّشابيه وان كانت بيئته تغنيه عن هذه النباتات التي توسل بها الجاهلي الى تدعيم معانيه .

---

1) الدّيوان ، 53 .
2) نفسه ، 113 .
3) ينظر ديوانه : 53 ، 101 .
4) ينظر ديوانه ، 215 .

ولم يستغن أبو نواس عن بيئته حين وصف خمره بقوله :

(1)
زفّت الى أكرم خطّابها وشاحها ورد ونسرين

وعلى أنّ النواسي أفاد هذا المعنى من الأقيشر الا أنّه تجاوزه حين جعل خمره تتأنق فتتخذ من الورد والنّسرين وشاحاتها .

وما أغفل أبو نواس صفاء خمره عند تعرّضه لوصفها ، الا أنّه يطالعنا بمعنى أفاده من سابقيه الذين تداولوه منذ الجاهلية ، وذلك حين يقرن خمره الصافيّة بعين الدّيك . كما جاء في قوله :

(2)
وكأس كعين الدّيك باتت تعلّني على وجه معبود الجمال رخيم .

واتّهم بسرقة هذا المعنى من بيت الأقيشر الذي يقول فيه :

(3)
وكأس كعين الدّيك باكرت شربها على وجه ندمان يروق المنادما

والتّشابه واضح بين المعنيين ، كما أنّ تشبيه الخمر بعين الدّيك معنى تداوله الشعراء كثيرا منذ الجاهلية .

ولجأ أبو نواس الى النار يشبّه بها خمره في قوله :

(4)
لم يبق لي في غيرها لذّة كرخيّة في الكأس كالنّار

كما شبهها بالشعلة حين قال :

(5)
اذا استدارت بكفّه ، وبدت رأيت فيها كهيئة الشّعل

---

1) الديوان 213 .

2) نفسه 70 .

3) سرقات أبي نواس 75 .

4) الديوان 179 .

5) نفسه 147 .

ولم يبلغ جمال بيت أبي الشيص الذي قال بأن الناظر الى كأسه يتأمل فيهما شعل اللهب ، أو معنى الأخطل الذي شبه خمره بجمرة متقدة .

وشبه أبو نواس خمره بالقبس في قولـــه :

(1)
كأنها في زجاجها قبس يذكو بلا سورة ولا لهب

(2)
ونلاحظ أنه يضمن بيته الشطر الأول من بيت الوليد بن يزيد ، اذ لم يغير في اللفظ ولا في المعنى ، بينما يرتفع بالمعنى في الشطر الثاني ، فخمره تتضرم في زجاجها كالقبس ، الا أنها شعلة لا لهب ولا حرارة لها .

وقال أبو نواس يصف تأثير لون الخمر في يد مديرهـا :

(3)
كأن بنان ممسكها أشيمت خضابا حين تلمع في الزجاج

يذكر أبو نواس في الشطر الأول تأثير لون الخمر في يد الساقي ، ثم يوضح في الشطر الثاني ان كف هذا الساقي تبدو وكأنها مخضبة . وهو هنا يذهب الى التفصيل في المعنى الذي أفاده من مسلم بن الوليد الذي قال بأن يد الساقي محمرة بحمرة الخمر ، فكأنه خضبها بالفرصاد ، وبيته أجود من بيت ابي نواس ، كما كان له الفضل في اثارة المعنى .

كما أفاد أبو نواس من معنى ديك الجن الذي يقول فيه بأن الخمر تكاد تحرق كف الساقي الذي يمسك كأسها لشدة حمرتها ـ فقـال :

---

1) الديوان 162 .
2) ينظر ديوانه : 22 .
3) الديوان . 93 .

ومقرور مزجت له شمولا   بماء والدّجى صعب الجناب

تزاحف ثمّ مدّ يديه يرجو   وقاء حين جبارت بالتهاب

فأبصر في أنامله احمرارا   وليس لها لظى حرّ الشهاب

فقلت له : رويدك انّ هذا   سنا الصّهباء من تحت النّقاب (1)

وعلى أنّ أبا نواس أفاد هذا المعنى من أسلافه ، الاّ أنّه فاقهم حين جعل خمرة تلتهب كشعلة متوقدة فيلتجىء اليها المقرور ظنا منه أنّها ستحميه من البرد ، فيمدّ يديه ، الاّ أنّه يحتار لكون هذه الشعلة المتوهّجة لا تمدّه بحرارة . وهكذا صاغ أبو نواس هذا المعنى في أسلوب قصصي ، فارتفع به معتمدا خياله الخصب لتأكيد حمرة شرابه وتألقه .

كما تحدّث الشعراء عن تأثير الخمر في عين النّاظر اليها ، فقد وصفها بشار بأنّها تعشي العيون - كما مرّ بنا - ولعلّ أبا نواس أفاد من هذا المعنى فقال : (2)

ترى العين تستعفيك من لمعانها   وتحسر حتّى ما تقلّ جفونها

ولقد طوّر أبو نواس هذا المعنى حين جعل العين تتوسّل عدم النظر الى الخمر لأنّ حمرتها وتألقها يؤذيانها ويضعفان بصرها .

الاّ أنّ مهلهلا بن يموت بن المزرّع يرى أنّه أفاد هذا المعنى من قول الأسود بن المنذر :

---

1) الديوان ، 118 .
2) نفسه ، 20 .

(1)
وقد كنت أستعفي الاله اذ اشتكى   من الأمر لي فيه وان عظم الأجر

ويرد صاحب الوساطة على هذه التهمة بالسرقة بقوله : " ولا أراهما اتفقا الا في الاستعفاء ، وهي لفظة مشهورة مبتذلة ، فان كانت مسترقة فجميع البيت مسروق بل جميع الشعر كذلك لأن الألفاظ منقولة متداولة " (2) .

وانه لمن المستبعد أن يكون أبو نواس قد أفاد من معنى الأبيرد . وأرجع بعض الدارسين هذه التهمة بالسرقة الى التعصب على أبي نواس (3) .

ويرى أبو نواس أن كل من يحاول القاء نظرة خاطفة على الخمر الصافية المتألقة ، فان شعاعها يؤدي بصره ويتعبه يقول في ذلك :

كلما حاولها النـ   ـظر من طرف الجفون
رجع الطرف حسيرا   عن خيال الزرجون (4)

فالناظر الى الخمر لا يتمكن من اطالة النظر اليها ، لأن نورها يحول دون ذلك لتألقه وتوهجه ، فيأخذ العين من شعاعها ما يشبه الاغفاء ، قال أبو نواس في ذلك :

(5)
فأرسلت من فم الابريق صافية   كأنما أخذها بالعين اغفاء

وبهذا تجاوز أبو نواس معنى بشار وان كان قد أفاد منه .

---

1) سرقات أبي نواس 80 .
2) الوساطة 211 .
3) محمد هدارة وبدوي طبانة ، ينظر مشكلة السرقات 153 - 155 والسرقات الأدبية - 195 .
4) الديوان . 47 .
5) نفسه . 6 .

وقرن الشعراء الخمر الصفراء الصافية بالذّهب ،كما تقدم وقال أبو نواس أيضا في هذا المعنى من خلال وصفه للابريق .

من مائل قدّمت مضاحكه (1) يقلس في الكأس بيننا الذّهبا

ويقول مهلهل بن المزرّع أنّ هذا المعنى مسروق من قول أبي الهندي :

ففاضت عيون أبا ريقهم وأكرؤ سنهم بدموع الذّهب (2)

ولا نستبعد أن يكون أبو نواس قد أفاد من معنى أبي الهندي ،الاّ أنّه نقل الابريق من حالة حزن الى فرح ،فجاء بيته لا يقلّ جمالا عن بيت أبي الهندي ، فكلاهما وفّق في الصّورة التي رسمها للابريق ،فبينما جعله أبو الهندي يسكب دموعا من ذهب ،يرى أبو نواس أنّه يقلس ذهبا من فيه المفدّم ،ولأبي الهندي فضل استجلاء المعنى .

وكما شبّهت الخمر بالذّهب ،فانّها قرنت أيضا بالجواهر لتألّقها ولمعانها . ولأبي نواس في هذا المعنى قوله :

صفراء سلك جمان لؤلؤها (3) ألفات كاتب سيّد الفرس

فالشاعر يتجاوز مجرّد الجمع بين الخمر والذّهب ،أو الخمر والجواهر المتألّقة . فيبدع صورة طريفة في غاية الجمال حيث يشبّه خيوط أشعة الخمر المتلامعة على سطح الاناء بحروف الألف الفارسية التي خطّها كاتب ماهر . وهكذا يبدع في المعنى ،

---

1) الديوان 51 وله أيضا في هذا المعنى بنظر ديوانه : 23 .

2) سرقات أبي نواس 79 .

3) الديوان . 215 .

ويجيد في الصياغة .

كما شبّه أبو نواس شرابه المتلاصع بالسّراب ، فخمره المتألّقة في الاناء توهم بأنّها سراب ، لولا صفرتها التي تميّزها عنه .

كأنّ في كأسها سرابا تخيله المهمه القفار

كأنّها ذاك حين تزهق لولم يشب لونها اصفرار (1)

وعلى أنّ الشاعر أفاد هذا المعنى من أستاذه والبة - كما تقدّم - الّا أنّه كان أدقّ ، فهو يشير الى صفرة الخمر ، التي تميّزها عن السّراب ، فكأنّنا - لولا هذه الصّفرة - لا نستطيع التمييز بين هذا وتلك .

وما كان أبو نواس ليترك معنى تشبيه الخمر بالبرق دون أن يخوض فيه ، قال يصف وميضها بأنّه ينير البواطي التي تحتويها :

من كميت كسنى البرق أضاءت في البواطي (2)

فهو لا يذكر أنّ خمره تشبه البرق ، بل انّه يؤكّد نورها ، فيوهمنا بأنّها فعلا تضيء البواطي ، والّا لما قرنت بسنى البرق .

ولم يغفل أبو نواس المعنى الذي تطرّق اليه سابقوه من تشبيه لمعان الخمر بضوء الكواكب المنيرة . ومن ذلك قوله :

ترى الكأس في كفّ المدير كأنّها على راحتيه كوكب الدّبران (3)

---

1) الديوان 73 - 74 .

2) نفسه 131 ، وله أيضا في هذا المعنى ينظر ديوانه : 144 .

3) الديوان 85 . وله أيضا في هذا المعنى :

كؤوس كالكواكب دائرات مطالعها على الفلك الأديم .

فزجاجة أبي نواس تتألق للمعان الخمر التي تحتويها حتى كأنها كوكب منير، أو البدر ليلة تمه .

(1)
كأنها كوكب منيـــــــــر والبدر في ليلـــة التمـــــــام .

ونلاحظ تأكيد أبي نواس هذا المعنى في قوله، مشيدا بتوهج نور شرابـــه :

(2)
اذا عبّ فيها شارب القوم خلتــه يقبّل في داج من الليـــل كوكبــــا

كما وصف الشاعر خمره بأنها تبلغ من التألق ما يوهم الناظر اليها بأنهـــــا شمس وضعت في الآنية .

(3)
من عقار، من رآها قال لـــي صيدت الشمس لنا فـــي بانيـــه

وأكد أبو نواس تألق خمره حين شبهها بشمس مشرقة من خلال غيـــوم قاتمة السواد .

(4)
عن فتاة كأنها حـــين تبـدو طلعة الشمس في ســـواد الغيــــوم .

بل ان خمره تفوق الشمس، وتباهيها في الصفاء والضياء، الا أنها شمـــس غير متوقـــدة .

(5)
هي الشمس الا أن للشمس وقدة وقهوتنا في كل حسن تفوقهـــا .

---

1) الديـــوان . 152 .
2) نفسه 22 ، يرى مهلهل به المزرع أنه سرق هذا المعنى من قول الحسين الضحاك كأنما نصب كأسه قمر يكرع في بعض أنجم الفلك ، ينظر سرقات أبي نواس 88 وهذا البحث لا يشمل خمريات الحسين الضحاك باعتباره جاء بعد أبي نواس بكثير .
3) الديـــوان . 119 .
4) نفســـــه . 175 .
5) نفســـــه . 9 .

ويشبّه أبو نواس خمره بصباح منير حيث يقول :

(1)

فكأنّها - والكأس ساطعة بها - صبح تقرّب أمره فانصاحا

ويبالغ أبو نواس في تغنّيه بخمره، فهي لا تحاكي لمعان الشمس لتلألؤها

في الاناء فحسب، وانّما هي شمس يملأ نورها الكون فتحول الليل الى نهار.

(2)

نتيجة مزنة من عود كرم تضوّء الليل مضروب الرّواق .

وقال أيضا بأنّ النور يحلّ حيثما حلّت :

(3)

ترى حيثما كانت من البيت مشرقا وما لم تكن فيه من البيت مغربا

ويرى مهلهل بن النمر زبع أنّه أفاد هذا المعنى من قيس بن الخطيم

في قوله :

(4)

قضى لها الله حين صوّرها الخالق ألّا يكنّها سدف

بينما يرى أبو هلال العسكري أنّه نقل هذا المعنى في بيته

الذي يقول فيه :

(5)

لا ينزل اللّيل حيث حلّت فدهر شرابها نهار

أو أنّه نقله من بيت النّابغة الذي يقول فيه :

(6)

فانّك كاللّيل الذي هو مدركي وان خلت أنّ المنتأى عنك واسع .

---

1) الديوان : 2
2) نفسه : 56
3) نفسه : 22
4) سرقات أبي نواس : 87
5) الصّناعتين : 193.
6) نفسه : 236 .

نرى أنّه من الجائز أن يكون النّواسيّ قد أفاد من قول قيس بن الخطيم ، واعتمد معناه . ونقله من الغزل الى الخمرة مجدّدا في الصّياغة .

الاّ أنّ هناك فرقا بين معنى بيت النّابغة الذي يرى أنّ اللّيل سيد ركنه لا محالة ، ومعنى أبي نواس الذي يذهب الى أنّ اللّيل يحلّ بالمكان الذي فيه الخمر . ذلك لأنّها تنيره لا شعاعها ، وبالتالي ، فمن المستبعد أن يكون أبو نواس قد أفاد من معنى النّابغة وذلك لاختلاف المعنيين .

وكثيرا ما يبالغ أبو نواس فيجعل خمره تضيء الكون ، وتحوّل اللّيل الى نهار . كما (1) نلاحظ من خلال هذا الحوار الذي ساقه بينه وبين نديم له فقال :

قال : " ابغني المصباح " قلت له : " اتّئد ... حسبي وحسبك ضوءها مصباحا "

فسكبت منها في الزّجاجة شربة ... كانت له حتّى الصّباح صباحا (2)

كما أجرى حوارا طريفا مع خمّار في نفس المعنى ، فقال :

وخمّار حططت اليه ليلا ... قلائص قد ونين من السّفار

فجمجم ، والكرى في مقلتيه ... كمخمور شكا ألم الخمار :

" أبن لي كيف صرت الى حريمي ، ... ونجم اللّيل مكتحل بقار ؟ "

فقلت له ترفّق بي ، فانّي ... رأيت الصّبح من خلل الدّيار

فكان جوابه أن قال : صبح ا ... ولا صبح سوى ضوء العقار "

وقام الى العقار فسدّ فاها ... فعاد اللّيل مسودّ الازار (3)

---

1) ينظر ديوانه : 49 ، 78 ، 79 ، 145 ، 150 ، 151 ، 171 ، 185 .
2) الديوان : 2 .
3) نفسه : 77 .

وأفاد الشاعر أيضا من أسلافه تشبيه الخمر بالشعاع فقال :

اسقيني شبما شبما وأدرهنّ سراعا

قهوة يحسبها النّظّار إن صبّت شعاعا (1)

وجعل أبو نواس الشّك ينال من النّاظر الى هذه الخمر المتألّقة متوهّما ايّاها شعاعا ، ولا يتأكد من أنّها خمر ، الاّ بعد أن يرتشف منها ، فتخلّصه من ظنونه ، وبهذا ارتفع أبو نواس بهذا المعنى حيث قال :

تقول خمر ، فحين تحدرها من ثمّ ابريقها اذا انحدرا

قلت شعاع : فكيف أشربها لوكان خمرا لأبرزت كدرا

حتّى اذا ذقتها خررت لها بعد مجال الظّنون منعفرا (2)

بل يجعل أبو نواس لون هذا الشراب يبلغ من الرّقة مايجعله يخفى عن العيون ، فلا يدرك الشّارب من الخمر الاّ طعمها .

بلون رقّ حتّى كاد يخفى على عيني ، وطاب على المذاق (3)

فطيب المذاق وحده هو ما يميّز خمر أبي نواس عن الشّعاع .

وهكذا " ذهب أبو نواس في نعت هذا الصفاء الى آخر الشوط ، فزعم أنّها مجرّد لون ونور ، ليس وجودها بالوجود العيني المحسوس الملموس ، وانّما وجودها كلّه

---

1) الديوان . 125 .

2) نفسه . 110 .

3) نفسه . 56 .

(1)
في رأي العين متوهّم محدوس .

وعلى أنّ أبا نواس أفاد من معاني سابقيه ،في وصف صفاء الخمر الاّ أنّه استطاع الاتيان بمعان لم ترد عند سابقيه ،ومن ذلك قوله في قدح خمر بأنّه يفوق المصباح في نوره وضيائه .

(2)
حتى اذا سلسلت في قعر باطية أغناك لألاؤها عن ضوء مصباح

ويذهب أبو نواس الى تشبيه خمره بسراج منير ،ويؤكد عجزه عن التميز بين خمره والنار .

وفتية نازعوا ،والليل معتكر برقا تلوح به أيد وأقداح

أذكي سراجا ،وساقي القوم يمزجها فلاح في البيت كالمصباح مصباح

(3)
كدنا على علمنا - للشك - نسأله أراحنا نارنا ،أم نارنا الرّاح!

وعند تشبيه أبي نواس للخمر بالسّراج ،نلاحظ أنّه غالبا مايقرنها بسراج في محراب قسّ أو شمّاس ،وذلك حتّى يضفي عليها هالة من التّقديس . قال متحدّثا عن الساقي :

(4)
فشبّهت كأسيه بكفّيه اذ بدا سراجين في محراب قسّ اذا صلّى .

---

1) ألحان الحان . 225
2) الديوان : 108 وقال أيضا في هذا المعنى :
وقهوة مرّة باكرت صبحتها وضوءها نائب عن ضوء مصباح
3) الديوان . 102 .
4) الديوان 119 . ومثله قوله :
كأنّ كاساتنا والليل معتكر سرج توقد في محراب شمّاس

فقد أوحت للشاعر صورة الساقي بيديه زجاجتان من الخمر بأنه يمسك سراجين في محراب أحد القساوسة .

ونلاحظ من تكرار هذا المعنى عند أبي نواس مدى اهتمامه واغتباطه بهذا التشريف للخمر[1] .

ويبدع أبو نواس في تشبيهه الخمر لحمرتها بالعقيقة في قولته :

من قهوة كالعقيق صافية عادية العمر ، ذات أسلاف[2]

وربما تلامعت أشعة الخمر ، وجعلها تلألؤها تأخذ أكثر من لون فقال أبو نواس يصف ألوانها المتداخلة :

أخذت من كل شيء لونها فهي في ناجودها قوس قزح .[3]

ونشير الى أن أبا نواس كان كثير الاهتمام بلمعان الخمر ، وأنه غالبا ما يتغنى بتألقها[4] ، ويقرن هذا التألق بالنور ، وقد علق أحد الدارسين ، على ذلك بقوله :

" . . . ان وصف الخمرة بالنور من أعم أوصاف النواسي ، فقد لا تخلو خمرية من تشبيه بالكوكب أو المشرق أو النهار أو الصباح أو الفجر أو الشمس ، أو المصباح أو البرق ، أو القبس أو الشعاع أو الشهاب أو الضياء ، أو الشمـ

---

1) ينظر ديوانه 119 ، 159 ، 163 .
2) الديوان . 148 .
3) نفسه . 187 .
4) جورج غريب .

وأبياته في هذا المجال تفوق الحصر ..." (1)

لقد أبدع أبو نواس في وصف لون الخمر وتألقها ، كما أنه قال في أغلب المعاني التي وردت عند متقدميه ، وجدّد صياغتها ، وغالبا ما تجاوزها ، فقد كان يضفي عليها من خياله ما يجعلها تبدو طريفة .

والشاعر يصف خمره بأنّ الله قضى لها بأن لا يدرك مكانها الظلام ، فأينما حلّت الخمر ، عمّ النور والضياء ، كما أنّه يوهمنا بأنّه أغنى صاحبه عن المصباح حينما سكب له منها في الزجاجة ، فكان نورها يقاوم ظلام الليل فيحيله الى صباح . فهو لم يقف عند تشبيهها بالكوكب ، أو الشمس كما فعل أسلافه ، بل انّه يزعم أنّه تسلّل الى الخمار ليلا مهتديا بنور الخمر ليستدل على مكانها ، فوصف حيرة الخمار الذي استغرب قدومه في ليل حالك السّواد ، فأخبره بأنّ الصباح هو الذي قاده الى الحانة ، فأدرك الخمار مصدر النور ، فقام الى خمره ففضّاها ، فهدم الظلام ، واستحال الصبح ليلا . فالشاعر يوهمنا من خلال هذا الحوار اللّطيف الذي يجريه مع الخمّار بأنّ خمره - فعلا - تضاهي الشمس في الضّياء ، وتنير الكون .

فعلى أنّ شعراء الخمر قبل أبي نواس عمدوا الى التّغني بتألّق الخمر فوصفوها بالقمر والشمس ، الاّ أنّهم لم يبلغوا جودة معنى أبي نواس الذي أكد فيه تألق خمره ، في أسلوب قصصي مشوّق ، ممّا جعل المعنى أعمق وأشدّ طرافة ، من معاني سابقيه من الشعراء في وصف تألّق الخمر ولمعانها .

---

1) شعر اللّهو والخمر 153 - 154 .

الفصل الثاني

الخمر وآثارها

=+=+=+=+=+=+=+=+=+=+=+=+=

الخمـــر وأطيبهـــا :

لم يغفل شعراء الخمر ما يتعلق بشرابهم من طيب ،فراحوا يتغنـــون بعبيرة الذي يتضوع عند صبه أو بمزله ،بل انّ وصف طيب الخمر شغل الشعراء عن وصف مذاقها الذي ينحصر في بعض المقطوعات .

وأولى العرب إهتماما بالغا لمختلف أنواع الطيوب ،منذ القديم ، فقد اشتهروا بين غيرهم من الأمم بتحضير أصناف من الطيوب والبخور ،وكان العربي يتحمل المشاق في جني المواد التي يعتمدها في صناعة الطيب ،كالقرفـــة ، والدارصيني ،واللادن ... وغيرها (1) . وقد اشتهرت اليمن قديما بانتاج العطور والطيوب التي كانت قوافل قريش تتوجه الى اليمن لجلبها (2) ،وفي شرق حضرموت، (3) اشتهرت منطقة ظفار بانتاج التوابل والطيوب وبخور المعابد ،الذي ما زال حتى اليوم يرسل الى الهند (4) . كما تنتج أرض سبأ . التي هي من أخصب بلاد العرب ـ أنواعا كثيرة من العطريات (5) .

وبلاد العرب بصفة عامة مشهورة منذ القدم بطيوبها حتى قيل انك حيثما سرت فيها ،فانّك ستجد رائحة زكية (6) .

---

1) ينظر العرب قبل الاسلام . 159
2) ينظر تاريخ الدولة العربية 7
3) ينظر الشعر والغناء 208
4) ينظر فجر الاسلام 4
5) ينظر العرب قبل الاسلام 160
6) ينظر نفسه 159.

ولهذا لم يكن الشاعر الجاهلي ، وهو الذي يعيش في بيئة تولي اهتماما كبيرا للطيب ليغفل عن عبير خمره عند وصفه لها ، فتوسل بالمسك لتأكيد طيب رائحة شرابه على نحو ما ورد عند الأعشى في قوله :

(1)
مثل ذكي المسك ذاك ريحها ... صبها الساقي اذا قيل توح .

ويبدو من بيت للأعشى أن أريج الخمر يتضوع عند بزل لها خاصة .

اذا بزلت من دنها فاح ريحها ... وقد أخرجت من أسود الجوف أدهما

(2)
ببابل لم تعصر وجاءت سلافة ... تخالط قنديدا ومسكا مختما .

كما يفوح طيب الخمر عند مزجها ، قال عدي بن زيد العبادي :

(3)
كأن ريح المسك في كأسها ... اذا مزجناها بماء السما

ولم يقف الأعشى عند مرحلة الجمع بين طيب الخمر ، وطيب المسك ، بل جعل طيب خمره يبلغ من الشدة ما يجعله يستل زكام المريض ويشفي من تعطل حاسة الشم لديه ، وذلك في قوله :

(4)
من اللائي حملن على الروايا ... كريح المسك تستل الزكاما

(5)
وعلى أن من الباحثين من يرى أن الجمع بين طيب الخمر والمسك تشبيه أخذه الأعشى من سابقيه وتداوله كرقم ميت ، وأن الشاعر يقرن دائما طيب خمره

---

1) الديوان 162
2) نفسه 200
3) الديوان 166
4) الديوان 135
5) ايليا حاوي

بالمسك (1)، وإن كانت تشابيهه تتفاوت في المبالغة . إلا أننا نرى أن السبب في ذلك ربما يعود الى كون الجاهلي - رغم معرفته بأنواع الطيوب والعطور - قد ظل يفضّل المسك عليها جميعا . وإذن فجمع الأعشى بين طيب خمره والمسك يرمي به الى جودة عبير هذه الخمر، إذ أن المسك هو أجود طيب ~~عجيب~~ به البيئة الجاهلية . لهذا لجأ اليه الأعشى ، وغيره من الشعراء يشبّهون به خمرهم .

ونحن لا نطالب الأعشى - وهو جاهلي - بأكثر من هذا التشبيه لأن اهتمامه بطيب الخمر - من خلال وصفه لها - يدل على شيء من التفنن في الذوق ، ذلك لأن اعجابه بالخمر لم يقتصر على مجرّد الاعجاب باللون الخارجي ، أو بما يطرأ على جسمه من مفعول الخمر ، وسورتها ، وإنما هو يلتذ بطيبها ، ويتذوقها بحاسة الشم التي تجعله يزداد تعلقا بها .

على أن الأعشى لم يقف في تشبيهه اياها عند المسك . وإنما تجاوزه الى أن قرن طيبها بالزعفران في نحو قوله :

سلا فكأن الزعفران وعندما ... يصفّق في ناجودها ثم تقطب

لها أرج في البيت عال كأنما ... ألم به من تجر دارين أركب . (2)

وهكذا ارتفع الأعشى بخمره ، بحيث جعل عبيرها يتضوّع في البيت حتى كأن تجار العطور قد حطوا به رحالهم .

---

1) ينظر فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب 55 .
2) الديوان 137 .

وتغنّى شعراء العصر الاسلامي بطيب خمرهم ،فهذا حارثة بن بدر يؤكد للأحنف بن قيس ـ الذي لامه على الشرب ـ تعلّقه بخمرته الذكية الرائحة :

(1)
وأشربها حتى أخرّ مجدّلا معتقة صهباء طيّبة النّشر .

وربما نجد الشاعر الاسلامي اقتداء بالأعشى يقرن طيب شرابه برائحة المسك كما ورد عند حارثة بن بدر اذ قال متحدّيا عاذله على الشرب :

(2)
سأشربها صهباء كالمسك ريحها وأشربها في كلّ ناد ومشهد

كما تبلغ خمر حارثة بن بدر من القوة مايجعل ريحها يذهب بالظمأ .

(3)
معتقة صهباء كالمسك ريحها اذا هي فاحت أذهبت غلّة الصّدي .

كما أنّ خمره تخرج صاحبها من الضلال والخيبة برفق ،وذلك بفضل عبيرها الشبيه بالمسك .

(4)
لها أرج كالمسك يذهب ريحها عماية حاسيها بحسن ترفّق .

والى جانب المسك ،نجد حارثة بن بدر يلجأ الى العنبر يتّخذ منه شبيها لخمره الذكية حيث يقول :

(5)
فقلت له اشرب هذه بابليّة تخال بها مسكا ذكيّا وعنبرا .

ونلاحظ ممّا تقدّم أنّ الشاعر الاسلامي لم يتجاوز أسلافه من الجاهليّين في وصف طيب الخمر . وعلى أنّه كان يعمد أحيانا الى المبالغة في جعل

---

1) الأغاني 23 : 487
2) نفسه 23 : 458
3) نفسه
4) نفسه 23 : 496
5) نفسه وقد شبهها بالعنبر مرّة أخرى في قوله :
قريت فأحسنت القرى وسقيتنا معتّقة صهباء كالعنبر الرّطب .

طيبها يذهب بالظمأ ،كما شبّهه أحيانا أخرى بالعنبر ،إلاّ أنّ طيب الخمر غالبا ماظلّ يقرن بالمسك على غرار ما ورد عند الأعشى .

ولنتتبّع وصف طيب الخمر عند شعراء بني أميّة الذين ماأهملوا طيب الخمر عندهم وصفهم لها ،فهذا أبو جلدة اليشكري في رثائه لصديقه سليمان بن عمرو البكري ، يصفه بالكرم ،ويذكر أنّه كان يتناول خمرا طيّبة الشّذا .

(1)
كريما على علاّته يبذل النّدى ويشربها صهباء طيّبة النّشو .

وغالبا ما قرن الشعراء الأمويون طيب الخمر بالمسك على غرار ماجاء به أسلافهم كقول ابن أرطأة :

(2)
أمسي أعاطيه كأسا لذّ مشربها كالمسك حفّت بنسرين وريحان .

ويذكر الأخطل أنّ عبير خمره يتضوع . حتّى كأنّه المسك .

(3)
من قهوة نفحت كأنّ سطيعها مسك تضوّع في غداة شمال .

ويفوح طيب خمر الأخطل فيعبق به الكون ، ممّا يوحي للشاعر بأنّ راحلته مزوّدة بغنائم من المسك ،حيث يقول :

(4)
كأنّما المسك نهبى بين أرحلنا ممّا تضوّع من ناجودها الجاري .

---

1) الأغاني 11 : 302

2) نفسه 2 : 225

3) الديوان 4 : 324

4) [illegible] 2 : 119

وعندما يتخذ الأخطل المسك شبيها لخمره ،فهو لا يقرنها بأي مسك كان ،وانّما يقصد ذلك المسك الجيّد الرّفيع الذي يغالي به صاحبه ، ومع ذلك فانّ التّجار يبذلون مقابل الحصول عليه أموالهم بسخاء ،لانّهم يدركون جودته . قال الأخطل :

(1)
كأنّ فأرة مسك غار تاجرها حتى اشتراها بأغلى سعرها التّجر .

ولا يشك الوليد بن يزيد في أن خمره قد مزجت فعلا بالمسك ،فيوهم سامعه بأنّ المسك قد خالطها حقيقة . وأمّا اذا كانت خمره لم تمزج بالمسك ،فهو لا يشكّ في أنّ ساقيه قد ضمخ كفيه بالمسك ،والاّ فان ممتّقوها أو د عوافيها بعض المسك .

انّ في الكأس لمسكا أو بكفّي من سقاني
(2)
أو لقد غود رفيها حين صبّت في الدّنان .

ولا تقلّ خمر أبي جلدة اليشكري شدة عن خمر الأعشى ،اذ هي أيضا يذهب ريحها بالزّكام . ولا يستبعد أن يكون أبو جلدة قد أفاد هذا المعنى من بيت الأعشى فقال :

(3)
معتّقة كالمسك يذهب ريحها الزّكام وتدعو المرء للجود بالّوفر .

وللأخطل أيضا أنّ خمره ينال رياحها المزكوم . عند انتشار رائحتها :

---

1) الديوان 3 : 252
2) الديوان 70 — 71
3) الأغاني 11 : 302 .

(1)
واذا تعاورت الأكفّ زجاجها   نفحت فنال رياحها المزكوم .

وشبه الأقيشر شرابه بالعنبر في قوله :

(2)
شرابا كريح العنبر الورد ريحه   ومسحوق هندي من المسك أذفرا .

أمّا الأخطل فيشبه شرابه بالطيب :

(3)
تفوح بماء يشبه الطّيب طيبه   اذا ما تعاطت كأسها من يديد .

وحاول الوليد بن يزيد ايجاد مبرّر لطيب الخمر المتضوع ،فأرجع سبب ذلك الى كون صاحب هذه الخمر يعني بها العناية اللّا ئقة بها ، ولتعتيقها لا يختم دنّها بالطّين ،بل يمزج لها أنواعا من الطيب والكافور بالقار .

(4)
ختموها بالأفاويه وكافور وقار .

ونجد الأخطل يعمد الى المبالغة في وصف رائحة خمره حيث يقول :

(5)
بالنيفحرتنبع الأرواح نفحتها   لو كان يشفي بها الأموات قد نشروا

وعلق الدكتور جميل سعيد على هذا المعنى ،فقال ،بأنّ الشاعر " أراد أن يبالغ وأن يطير عاليا بالمعنى فسقط . " (6) فالأخطل أراد تأكيد شدة طيب خمره وبخيرليها ،فتجاوز الأعشى وغيره من الشّعراء الذين جعلوها تشفي المزكوم ،

---

1) الديوان 1 : 85
2) الأغاني 11 : 244
3) الديوان 4 : 321
4) الديوان 42 .
5) الديوان 3 : 252
6) تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية الى أبي نواس 237 .

فهو لا يشك في تأثير طيب خمره ، اذ يرى أنّه لو كان هناك شفاء من الموت ، لكان طيب شرابه أولى بهذه المهمّة من كلّ الأدوية . وعلى أنّنا لا ننكر ما في هذا البيت من مبالغة ، الاّ أنّه يتعذّر علينا ـ ولا شكّ ـ أن ننفي مافيه من طرافة .

وهكذا حاول الشّعراء الأمويون التّجديد في وصف طيب الخمر ، وتجاوز معاني أسلافهم . فلم يقفوا عند تشبيهه بالمسك ، بل راحوا يؤكّدون شدة تضوعه الذي يعادل طيب المسك . ووصف الأخطل طيب خمره بأنّه يبلغ درجة كبيرة من الشّدة ، بحيث أنّه لا يشفي المزكوم فحسب ، بل هو قادر على احياء الموتى وبعث الروح فيهم لو كان ذلك ممكنا . ومع كلّ ذلك ، فانّ المعاني ـ في الغالب ـ كانت تحوم حول تشبيه طيب الخمر بالمسك ، وأنّها تشفي المزكوم لشدّتها على غرار ماورد عند الأعشى ومعاصريه .

ونتساءل الآن اذا كان شعراء الفترة العبّاسية قد تجاوزوا معاني السلف في تغنّيهم بعبير شرابهم ، أم أنّهم اكتفوا باجترار المعاني التّقليدية ؟ .

واذا نحن تصفحنا خمرياتهم ، وجدنا أن طيب الشراب ظل يقرن بالمسك ، كما ورد في قول مطيع بن اياس :

كأنّ المسك نفحتها اذا بزلت لها أرج . (1)

وبمجرّد تضوع رائحة الشراب الذّكية ، يتبادر الى ذهن مسلم بن الوليد

---

1) الأغاني 13 : 135 .

طيب المسك ،فيتوهم أنّ خمره تتضمن مسكا ،أو قد يكون عنبرا جلب من الهند ،أو طيبا من السخب خالط شرابه ،يقول في ذلك ،

(1)
كأنما ضمّنت مسكا تفوح به أو عنبر الهند أو طيبا من السّخب

ويذهب أبو الشّيص الى أنّ خمره المعتّقة عند فتح ختامها تصبح مسكا حقيقة .

(2)
لطيمة مسك فتّعنها ختامها معتّقة صهباء حيريّة النّسب ،

ونجده يأتي بصورة بديعة حين يشبّه خمره المعتقة الطيبة الرائحة بعجوز ضمخت جلدها بالزّعفران وأصداغها بالمسك .

(3)
عجوز غدا المسك أصداغها مضمّخة الجلد بالزعفران .

وجاء في بيت لبشار بن برد أنّ خمره تذهب بالزّكام .

(4)
نفحت نفحة فهزّت نديمي بنسيم وانشقّ عنها الزّكام .

وعلى أنّ هذا المعنى قديم تداوله الشّعراء منذ الأعشى ، الاّ أنّ بشارا لم يكتف بأخذه ،بل انّه عمد الى التّفصيل في الصورة والارتفاع بالمعنى ،بحيث جعل خمره تبلغ من القوّة مايجعلها تهزّ الشّارب ان هي نفحت نفحة واحدة ، فتنفذ الى أعماقه متجاوزة حتّى أنف المزكوم الذي يعاني من عسر في التّنفس .

---

1) الديوان : 166
2) طبقات الشعراء : 81
3) نفسه : 79
4) الديوان : 4 : 197

وقرن ديك الجنّ طيب خمره بالعنبر فقال :

وقهوة كوكبها يزهر   ينفح منها المسك والعنبر .(1)

ويذكر بشّار بن برد أنّ ابريقه يصبّ خمرا صفراء اللون لها طيب التّفاح :

اذا فرغت كأس امرئ خرّ ساجدا   وصبّ لنا صفراء في طيب تفّاح .(2)

وأمّا أشجع السّلمي فيشبّه طيب خمره بريح الرّيحان :

وريح ريحانة بمسك   تدعو نديما الى نديم .(3)

فأشجع يفيد من بيئته ، ذلك لأنّ محاصيل أرض العراق في تلك الفترة كانت وافرة ومتنوعة (4) . ومن منتوجاتها الزّهور والرّياحين كالبنفسج والورد وغيرهما ، وكان من صادرات البلاد العربية في العصر العبّاسي العطور كماء الورد والزعفران وماء السّوسن وزيت البنفسج (5) . الاّ أنّنا لا نجد في الخمريات العبّاسية اشارة الى هذه العطور في وصف طيب الخمر . ونادرا ماشبه الشعراء العبّاسيون طيب الخمر بماجادت به بيئتهم ، كذكر الرّيحان والتّفاح كما تقدم .

ولعلّ مرجع ذلك الى أنّه رغم تطور زراعة أنواع الزهور والرّياحين ، وتقدّم صناعة العطور ، فقد ظلت الرّائحة الذّكية تقرن دائما بطيب المسك والعنبر ، وكان ذلك

---

1) الديوان : 51
2) الديوان : 2 : 88 .
3) الأوراق : 110
4) ينظر تاريخ العرب : 2 : 429 .
5) ينظر تاريخ العصر العبّاسي : 373 .

أثر من آثار الشعر الجاهلي .

وعلى أنّ الشّاعر العبّاسي ظل يعتمد المعاني القديمة ، الا أنّه لم يأخذها على علاتها ، ففكرة انتزاع طيب الخمر للزكام جملته يعمد الى التّفصيل في هذه العطية - كما تقدم - . كما أنّ عملية الجمع بين طيب الخمر والمسك أوحت للشّاعر العبّاسي بصورة عجوز مضمخة الجلد بالزّعفران ، محشوة الأصداغ بالمسك .

وتتخلّل خمريات أبي نواس أوصاف متنوعة في طيب الشّراب ، ونجده في بعضها لا يجهد نفسه ، ولا يتجاوز ما جاء به متقدّموه كتشبيه طيب الخمر بالمسك ، كما جاء في قوله :

(1)
معتّقة حمراء ، وقدتها جمر ونكهتها مسك ، وطلفتها تبر .

وقال أنّ عبير خمره يتضوّع كأنّ فتات المسك قد نشر عليها .

(2)
تدور بالسّعد كأسنا عجلا قد فتت المسك في نواحيها .

ولا يكتفي الشّاعر بتشبيه طيب خمره بالمسك ، بل انّه يشترط في المسك أن يكون مدقوقا ، حتى تكون رائحته أكثر تضوّعا . فبعد أن كان الشّعراء يشبّهون خمرهم بالمسك عند بزل دنّها ، أو عند مزجها ، نجد أبانواس يجعل خمره شبيهة بالمسك في كلّ حالاتها ، في حين يشترط في المسك أن يكون مدقوقا ، وحينئذ يقرنه بخمره . قال في ذلك :

1) الديوان : 100
2) نفسه : 191

(1)
خندريس ، غطر النكـ ـهة كالمسك السحيق ؛

بل ان النواسي لا يتردد في تفضيل طيب خمره على طيب فأرة قد ملأها العطار مسكا ، يقول في خمره :

(2)
نكهتها أطيب من فـارة مملوءة مسكا لعطار ؛

وتجمع خمر أبي نواس بين طيب المسك وطيب الزعفران .

(3)
لها من ذكي المسك ريح ذكية ومن طيب ريح الزعفران نسيم .

وهذا البيت يذكرنا ببيت أبي الشيص الذي شبه فيه خمره المعتقة بعجوز تضمخ أصداغها بالمسك ، وتطلي جلدها بالزعفران . الا أن النواسي اكتفى بالاشارة الى أن خمره يشبه طيبها ريح المسك وريح الزعفران ، ولم يفد من صورة أبي الشيص .

كما قرن النواسي طيب خمره بالخلوق ، والخلوق ضرب من الطيب يتخذ من الزعفران وغيره (4) ، فقال :

(5)
جاء بها كالخلوق في قدح تزهر في جوفه ، فتأتلق .

وعلى أن أبا نواس اعتمد معاني السلف ، الا أنه لم يهمل ما جاءت به بساتين الحيرة ، وغيرها من تفاح وريحان وورد وقرنفل وغار ... وما الى ذلك في وصفه لطيب خمره .

---

1) الديوان : 206
2) نفسه : 179
3) الفيسبوليه
4) لسان العرب ، مادة : خلق .
5) الديوان : 54 . وقرنها بالخلوق مرة أخرى ، حيث قال :

ومدامة مثل الخلوق، عتيقة حجبت زمانا في كنائس دابق .

بل انّنا نجده ـ وهو الذي عرف من الورود أنوعا وألوانا ـ يجعل خمرة تفوق الورد عبيرا ، ويؤكّد أنّ ريحها أطيب من ريحه .

(1)
شيّع ريح الورد أرواحها وريحها أطيب من ريحه .

ويشبّه أبو نواس طيب خمرة بريح المسك في تشقيق التّفاح حيث يقول :

(2)
تنفّست في وجوه القوم ضاحكة تنفّس المسك في تفليح تفّاح .

وقال أيضا :

(3)
صهباء صافية تهدي لك نكهتها تنفّس المسك ، ملطوخا بتفّاح

الاّ أنّ استعمال الشّاعر للفظة " ملطوخا " تبدو ضعيفة وغير موحية .

و وصف أبو نواس تضوّع عبير الخمر عند بزل انائها ، فقال كأنّما هي تهديك تفّاحا ، لكونها تملأ الكون طيبا يشبه طيبه .

(4)
شك البزال فؤادها ، فكأنّما أهدت اليك بريحها تفّاحا .

وطيب خمر النّواسي جعلته يعتقد أنّها ريحانة يفوح عبيرها وينتشر .

(5)
فان تنسّمت من أرواحها نسما يوما تنسّم في الخيشوم ريحان .

فالشاعر يخبر من يجهل أسرار الخمر أنّ عبيرها هو عبير الريحان ، فمن يستنشق رائحة الخمر ، كمن يتنسّم عبير الرّيحان لا فرق بين ريحها وعبيرها . غير أنّنا

---

1) الديوان : 226 .
2) نفسه : 214 .
3) للفسيلو : 103
4) نفسه : 2 .
5) نفسه : 127 .

نستقبح هنا لفظة " الخيشوم " التي أضعفت من قيمة البيت .

ومن الرياحين التي عرفها أبو نواس ، وجعلها شبيها لخمرة في الطيب ، القرنفل .

عبقت أكفهم بها فكأنما يتنازعون بها سخاب قرنفل . (1)

فالشاعر يجعل من يلامس الخمر ، كمن يجذب سخابا من القرنفل ، كلاهما تعلق رائحة الطيب بكفيه وتعبق بها .

وقرن أبو نواس شرابه بالغار أيضا ، والغار ضرب من الشجر ، ومنه يستخرج دهن الغار. (2)

فيه مدام كعين الديك ، صافية من مسك دارين فيها نفحة الغار . (3)

وعند ما يتضوع عبير الخمر ، فان فكر أبي نواس ـ وهو ابن البيئة العباسية ـ ينصرف الى العطر . فيقول أن طيبها يوهمك بأنها تمازج العطر .

وما هي الا خمر خالصة ، ريحها عطر . (4)

اذا أخذتها الكأس كادت بريحها تخال بها عطرا وما ان ترى عطرا . (5)

ويولي أبو نواس الطيب الخمر أهمية كبيرة ، حتى انه يتذوقها بحاسة الشم . وربما اكتفى باستنشاق عبيرها ، يقول مخاطبا عاذليه :

---

1) الديوان : 67

2) الصحاح : مادة : غور

3) الديوان : 150

4) يرى الدكتور عزيز فهمي أن الشاعر أخذ هذا المعنى من بيت الأخطل في تشبيهه دابيب الخمر بالطيب ينظر ص 7 من هذا البحث . ولا أجد شبها بين المعنيين فهذا شبه رائحة الخمر بالعطر وذاك شبهها بالطيب ينظر المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول . 273

5) الديوان : 125 .

أيّها الرائحان باللّوم ، لوما   لا أذوق المدام الّا شميما

(1)

كبر حظّي منها إذا هي دارت   أن أراها ، وأن أشمّ النّسيما .

وممّا جاء في خمريات أبي نواس في شرابه المتضوّع الرّائحة قوله :

(2)

ورحت بها في زورق قد كتمتها   ومن أين للمسك الذّكيّ كتوم .

فهو لم يقل أنّ خمره كالمسك ، أو هي المسك ، أو أفضل منه ، وانّما جعل عبيرها يدلّ على مكانها ، ويفضح صاحبها ان هو أراد كتمانها ، كما هو الحال بالنّسبة للمسك . بل انّ النّواسي لا يجهد نفسه بحثا عن الشّراب الجيّد ، وذلك لأنّ طيبه يدلّه عليه ، كما جاء في قوله :

وخمار طرقت بلا دليل   سوى ريح العتيق الخسرواني

(3)

فقام اليّ مذعورا يلبّي   وجون الليل مثل الطّيلسان .

فهذا المعنى طريف لم يتفطّن اليه الشّعراء قبل أبي نواس على كثرة ماقالوه في طيب الخمر . فقد اهتم الشّعراء بطيب الخمر ، و " لكنّ أحدا منهم لم يصل قطّ الى ما قاله أبو نواس في أنّ ريح الخمر هي التي قادته - وسط الظّلام - الى حانة الخمار . (4)

فأبو نواس لا يكتفي بتشبيه خمره بالمسك أو الزعفران ، كما فعل أسلافه من الشّعراء ، وانّما يذهب الى أبعد من ذلك ليؤكد لنا قوة طيب خمره ،

---

1) الديوان : 29

2) نفسه : 132

3) نفسه : 88

4) تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية الى أبي نواس 237 .

ويطالمنا على أنّه يستلذّ هذا الطّيب ، وربما عزف عن شرب الخمر ، واكتفى باستنشاق عبيرها المتضوّع ، وذلك ايمانا منه بمفعول طيب الخمر .

وعلى أنّه ارتكز على معاني أسلافه من الشّعراء في تشبيه طيب الخمر بالمسك ، أو بالعنبر ، الاّ أنّه غالبا ماكان يفيد من بيئته ، حيث يقرن رائحة خمره برائحة التّفاح ، والرّيحان ، والقرنفل ، والغار . بل انّه يرتفع بخمره ، حيث يجعل طيبها يدلّ عليها ، فهو انّما يستدلّ على الخمار برائحة الخمر ، هذه الرّائحة الزّكية التي تفضح كلّ من حاول كتمان الخمر .

وبهذا استطاع أبو نواس أن يبدع في وصف طيب الخمر . معتمدا أسلافه من الشعراء .

الخمـــر وتعتيقهـــا :

توضع الخمر للتعتيق في دنان أو رواقيد تقير أو تطين ، حتى يشتد تخمرها ، ويجود تعتيقها ، ولهذا نهى الرسول (ص) عن نبيذ الظروف المزفتة والدنان والجرار . (1)

ثم تترك الخمر في الشمس مدة دون أن تمسها نار ، وهذا التشميس يجعلها رقيقة لطيفة الاسكار ". (2)

وبعد ذلك توضع الخمر في " ظل ممدود وارف . وأوفق مايكون ذلك في كنف لا يناله الهواء ". (3) وهذا التعاقب من حر الى برد له تأثيره في جودة الخمر ، الا أنه لا يعتبر شرطا في تعتيق كل أنواع الخمور ، فهناك دنان تدفن في باطن الأرض بعد تشميسها وتصان عن تقلب الجو . (4)

ويسمون الشراب الحديث مسطارا أو مصطارا ، وهو الذي لم يتعدا ستة أشهر به وقد أشار بعض الأطباء الى أنه مضر بالصحة . (5)

والشراب الذي يتجاوز أربع سنين يسمى بالعتيق ، وهناك من يقول بأنه " يضر بالعصب وسائر الحواس ، فلذلك ينبغي أن يحذره من كان في أعصابه ضعف ". (6) ويقال بأن المزاج الشديد يخفف من حدته ويدفع مضاره . (7)

1) ينظر الأشربة 16 (ورد في المخطوط الضروف)
2) ألحان الحسان 215
3) نفسه : 216
4) ينظر : نفسه
5) ينظر : نفسه 219 2
6) المختار من قطب السرور 50
7) ينظر ألحان الحسان . 220

ويذهب بعضهم الى أنّ أجود القديم هو ماكان من خمس عشرة سنة الى أربعين .(1)

وأفضل من العتيق والحديث المتوسط وهم الذي استوفى حولا كاملا . وقد نصح بعض الحكماء بشربه فقد قيل انه "خير الشراب المتوسط ماكان بين الحديث والعتيق".(2)

وجاء في قول بعض الحكماء " الشراب لسنته ، والخبز ليومه ، واللحم لوقته".(3)

وتغنى الشعراء بالشراب العتيق - منذ القديم - بل كانوا يتباهون باقتناء أقدم خمر تعاقبت عليها الأحوال . فهذا عبيد بن الأبرص يمدح خمره المعتقة بقوله :

ولهوة كرضاب المسك طال بها   في دنّها كرّ حول بعد أحوال (4)

ومثله قول حسان بن ثابت :

عتّقها الحانوت دهرا فقد   مرّ عليها فرط عام فعام . (5)

ويفخر الأعشى بأنّ خمره ، هي عبارة عن خلاصة بقيت في قعر الدن من كرّ الأحوال .

---

1) ينظر ألحان الحان 220
2) المختار من قطب السرور 50
3) نفسه
4) الديوان 110
5) الديوان 437

كميتا تكشّف عن خمرة اذا صرّحت بعد ازبادها (1)
كخوصلة الرّأل في لاتهلها اذا صوّتت بعد اقعادها

ويؤكد الأعشى ، شدة مفعول خمره المعتّقة ،فهي تبلغ من القوة مايجعلها تشفي من الزكام .

من خمر عانة قد أتى لختامها حول تسلّ غمامة المزكوم . (2)

وكلّما طالت مدة تعتيق الشّراب،ارتفع سعره " فالخمارون يدّخرون هذه المعتقة لمن يعرف فضلها ،ويقدّرها قدرها ،ولا يستغلي مهرها ،من الوجوه الأثرياء الذين تعوّدوا اطلاق اليد في النّفقة لما هم عليه من سعة الثروة ،ومن أصحاب الخلاعة السّادرين الذين لا يتمالكون شدّة ولعهم بها أن يخرجوا عن جميع ما احتوته أيديهم من أجلها ." (3) فانّ صاحب الخمر يمهل خمره حتّى تعود عليه بالثّراء ،فينتظرها أحوالا كما يبدو من قول عدي بن زيد العبادي .

تخيّرها أخو عانات شهرا ورجّى أولها عاما فعاما (4)
يؤمّل أن تكون له ثراء فأغلق دونها وعلا سواما .

ويسهر عليها صاحبها ويتعهّدها بالرّعاية حتّى تبزل ،قال الأعشى :

---

1) الديوان : 52
2) نفسه : 258 .
3) أنخيلن الحيان 227
4) الديوان 135 .

(1)
لها حارس مايبرح الدّهر بينها   وان ذبحت صلّى عليها و زمزما .

ويبدو أنّ الذين كانوا يتولّون تعتيق الخمور ، كانوا في الغالب من اليهود ، فقد كانوا يتاجرون بالخمور ، قال عدي بن زيد :

(2)
صانها التّاجر اليهودي حولين   فأذكى من نشرها التّعتيق .

ويبين الشاعر هنا بأنّ التعتيق يذكي طيب الخمر ، فيزيد تضوّعه ، كما أنّ للتّعتيق أثرا في لون الخمر ، فهو يكسبها صفاء وتألّقا ، حيث تضيء كعين الدّيك الثّائر ، ان هي مكثت في الدّنّ مايزيد على الحولين والثلاثة ، كما ورد عند عدي بن زيد .

وتباهى شعراء الخمر في العصر الاسلامي باقتناء أقدم الخمور ، وأشاروا الى أنّ التّعتيق يكسب الخمر رائحة تتضوع عند البزل ، فهذا حارثة بن بدر يفتخر بشربه الخمر المعتّقة الطيّبة الرّائحة ، ويصف تأثيرها فيه ، ذلك لأنّ التعتيق يكسبها قوّة ، فيعاني شاربها من سورتها كما مر بنا .

ونلاحظ أنّ الخمر المعتّقة غالبا مايقرن طيبها المتضوّع بالمسك ، حتّى لتحتلب ريق من يشمّها فتذهب عطشه ، كما تقدم عند حارثة بن بدر .

---

1) الدّيوان 200
2) الدّيوان 77

وحدّد شعراء الخمر في العصر الأموي مدّة التّعتيق بالسّنوات ، حيث ذكروا أنّ خمرهم تمكث في دنّها أعواما كاملة ، كما جاء في قول الوليد بن يزيد .

ثوت في الدّنّ أعوما ختيما عند حانوت (1)

ويغالي الوليد بخمره المعتّقة ، ويذكر أنّها عتّقت منذ عهد كسرى ، فيدعو صاحبيه أن يسقياه منها .

علّلاني واسقياني من شراب اصبهاني
من شراب الشّيخ كسرى أو شراب القيرواني (2)

أمّا الأقيشر ، فيذكر أنّ في حوزته خمرا عتّقت منذ زمن الفراعنة .

دخائر فرعون التي جبيت له وكلّ يسمّى بالعتيق مشهّرا (3)

ويعطينا الوليد بن يزيد فكرة عن تعتيق الخمر في عصره ، فيذكر أنّها تقضي حقبة طويلة من الزّمن في جرار مختومة بالرّياحين والقار والكافور كما تقدم .

1) الديوان : 27
2) نفسه : 70
3) الأغاني 11 : 244 .

ولعلّ هذا مايزيد في جودة طيب الخمر المعتّقة ،ممّا جعل الشّعراء يشبّهونها بالمسك ،كما جاء في قول أبي جلدة اليشكري :

(1)

معتّقة كالمسك يذهب ريحها الزكام وتدعو المرء للجود بالوفر .

وقد تقدّم هذا المعنى عند الأعشى ،وربما اعتمده أبو جلدة في قوله ، وأضاف بأنّ خمره الشّديدة تدفع بشاربها الى الكرم .

وللأخطل في الخمر وهي في الدّنّ المقيّر قوله .

(2)

لها رداء ان نسج المنكبوت وقد حفّت بآخر من ليف ومن قار .

وقد وفّق الشّاعر في رسم هذه الصورة ،حيث جعل خمره تتّخذ رداء لها من نسج العنكبوت ،وذلك اشارة منه الى طول مدّة تعتيقها ،كما جعلها تتردّى برداء آخر من اللّيف والقار الذي طليت به الدّنان لتجود خمرها . كما يذكر بأنّ خمره تبقى مكمومة على هذه الحالة في الدّنان المقيّرة مدّة طويلة :

كمّت ثلاثة أحوال بطينتها حتّى اذا صرّحت من بعد تهدار

(3)

آلت الى النّصف من كلفاء أترعها علج ولثّمها بالجفن والغار .

فهذه الخمر ذهب نصفها لطول مدّة تعتيقها ،وقد أشار الأعشى الى تناقص كميّة الخمر عند طول مكوثها في الدّنّ ،فقال أنّه لا يبقى منها الاّ حوصلة في قعر الدّنّ ،كما يفيدنا الأخطل بأنّ الخمر لا تجزل الاّ بعد سكون

---

1) الأغاني 11 : 203

2) الديوان 2 : 117

3) نفسه .

هديرها ، أي شدّة غليانها عند التّعتيق ، ويشبهه الأخطل بهدير الفحول .

عزّ الشّراب فأقبلت مشروبة ... هدر الدّنان بها هدير الأفحل
(1)
وتغيّظت أيّامها في شارف ... نقلت قرائحه وممّا ينقل

ويشير الأخطل الى تأثير مدّة التعتيق في لون الخمر ، حيث تميل الى السّواد ،

ثمّ يذكر أنّ دنانها تحفظ في البساتين بين الأنهار ،(2) فهي ليست كالطّلا الذي يطبخ ؛

لأنّها - لشدّة رقّتها - تخشى حرارة النّار .

(3)
ليست بسوداء من ميثاء مظلمة ... ولم تعذّب بادناء من النّار

(4)
ويشبّه الأخطل هذه الخمر المحجوبة بعذراء يتقدّم عبادي لخطبتها .
(5)
عذراء لم يجتل الخطّاب بهجتها ... حتّى اجتلاها عباديّ بدينار

وظلّ الشّراب العتيق مفضلا عند أصحاب الخمر في العصر العباسي ؛

فتباهى الشّعراء باقتنائهم الخمر التي تعاقبت عليها الأحوال وهي معتّقة

في الدّنان ، وأكّدوا أنّ التّعتيق يكسب لون الخمر صفاء وتألقا ، كما يجعل

طيبه أكثر تضوعا .

---

1) الديوان 3 : 291

2) ينظر صفحة 31 من هذا البحث

3) الدّيوان 2 : 117

4) من " العباد وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فأنفوا أن يتسمّوا بالعبيد وقالوا : نحن العباد . والنسب اليه عبادي كأنصاري نزلوا بالحيرة " (عن لسان العرب مادة عبد) .

5) الديوان : 2 : 117 .

.../...

ويصف مسلم بن الوليد خمرا معتقة ،فيذكر أنها قضت في الدن عشر سنوات ،ذلك لأنها كانت من أفضل الخمور التي يضن بها صاحبها .

بعثت لها خطابها فأتوبها وسقت لها عنهم الى ربها المهرا
ومازال خوفا منهم في جدودها يقر بهم فترا ويبعدهم شبرا
الى أن تلاقوها بخاتم ربها مخدرة قد عتقت حججا عشرا (1)

بل يذكر أنها عتقت منذ عهد نوح ،أو أن أهل قبيلة عاد هم الذين قاموا بعصرها ،فأودعوها في الدنان ،وتوالت عليها السنون حتى جاء العصر العباسي ،فأدركها مسلم .

وقهوة شمول منشأها السواد
كانت بعهد نوح أو عصرتها عاد (2)

كما يرى مسلم أن قوم نوح تعهدوا خمرهم بالرعاية الى أن أبيدوا ، فتولى أهل ثمود حراستها ،ورعايتها ،فخمره ضاربة في القدم ،توارثتها الأمم جيلا عن جيل .

كانت بعهد نوح وهم لها جنود
حتى اذا أبيدوا أورثها ثمود (3)

نجد الشاعر يتجاوز مجرد ذكر قدم الخمر ،فيجعل أهلها يضنون بها حتى يدركهم

---

1) الديوان : 41
2) نفسه : 189
3) نفسه : 157 .

الفناء ،وهكذا يتوارثها قوم عن قوم .

ويصف أبو الشيص الخمر المعتقة بالعجوز لقدمها فيقول :

(1)

عجوز نسج الماء لها طوقا من الشذر .

ويفتخر مسلم بكونه اشترى خمرا من دهقان عظيم من العجم ،كان قد حصل عليها من ميراث .

(2)

كانت دخيرة دهقان يضن بها مكسوبة من حلال غير مكتسب

وقد أشار السلف من الشعراء الى قدم الخمر ، فالوليد بن يزيد ذكر أنه احتسى من خمر أعدت لكسرى ،كما جاء في قول الأقيشر أنه أدرك خمرا ادخرت منذ عهد الفراعنة . الا أن مسلما تجاوز هذه المعاني ،اذ نجده يؤكد مايذهب اليه من وصف خمره بالقدم ،حيث يجعل خمره تتوارثها الأجيال مع تعاقب السنين عليها . كما وصفها أبو الشيص بالعجوز .

وتعرض الشعراء الى ستر دنان الخمر ،وتغطيتها عند التعتيق - كما تقدم - ويرى مسلم أن الخمر تحجب عن العيون حتى لا تصيبها ،مع العلم أن الشيء الثمين هو ما يحجب عادة ،فصاحبها يضن بها فيخفيها ،قال مسلم .

(3)

محجوبة من عيون الناس ليس لها في غير بيت بني ساسان من نسب .

ويقوم أصحاب الخمر بطلي الدنان بالطين والقار لحفظ شرابها ،وأشار مسلم الى ذلك فقال أنه يكسو دن خمره :

---

1) طبقات الشعراء : 77

2) الديوان : 166

3) نفسه

(1)
وخزنتها في دنّها وكسوته من خيش مصر والمنباء جنيلا لا .

ولعلّه اعتمد قول الأخطل الذي أجاد في جعل خمره تتردّى برداء من ليف وقار ، وآخر من نسيج المنكبوت . الا أنّ مسلما يؤكّد أنّه هو الذي يكسو دنّ خمره ، كما أنّه يبالغ في تغليفه وتغطيته ، ليبرز مدى تعلّقه بخمره ، وسهره عليها ، وهكذا استطاع أن يفيد من المعنى ، ويضيف اليه ، ولكن بقي بيت الأخطل أجود وأكثر طرافة .

وتحفظ دنان الخمر بعد التّشميس في أماكن مظلمة ، بعيدة عن حرّ القيظ ، لأنّ ذلك يكون أحسن لتعتيقها ، فتجود بذلك خمرها . وأكّد شعراء الخمر أنّ خمرهم لا تطبخ ، فميّزوها عن الطّلا ، وأكّدوا أنّ خمرهم رقيقة ، تخاف النّار ، كما جاء في قول أبي الشّيص :

(2)
على عذراء لم تفتق بنار لا ولا قدر

فخمره لرقّتها تتأثّر بحرارة الصّيف وهي محجوبة عنها في الدّنان ، وقال أيضا في هذا المعنى .

(3)
كميت أجادت حمرة الصّيف طبخها فآبت بلا نار تحشّ ولا حطب .

كما يرى الشّاعر بأنّ الشّمس تقوم بصبغ الخمر وهي في بطون الدّنان فتؤثّر في لونها .

---

1) طبقات الشعراء : 161
2) نفسه : 77
3) نفسه : 81

(1)
فلم تزل الشمس مشغولة   بصبغتها في بطون الدنان

وأشار شعراء الخمر الى أن الشمس تكسب الشراب تألقا في اللون واشعاعا ، فتجعله يضر بصر الناظر اليه ، فلا يقوى على اطالة النظر اليه ، وكأنه ينظر الى الشمس ، وجاء في هذا المعنى قول بشار .

(2)
وصافية تمشي العيون رقيقة   رهينة عام في الدنان وعام .

وبما أن التعتيق يكسب الخمر جودة ، فان صاحبها يغالي في بيعها لجودتها ، فقد جاء في خمريات مسلم بن الوليد أنه ليس بالأمر اليسير اقتناء الشراب العتيق .

ولديهم كرخية شمسية   قد خليت في دنها أحوالا
(3)
حتى اذا بلغت وحان هطابها   ساومت صاحبها البياع فغالا .

وقد أشار الشاعر الجاهلي الى أن صاحب الخمر كان يمهلها حقبا طويلة في الدن حتى تعود عليه بالثراء . فكان يغالي في بيعها .

وشبه الشعراء الخمر بالفتاة ، لأنها تصان وتحجب عند تعتيقها ، لذا وصفوها بالبكر ، كما جاء في ديوان مسلم بن الوليد .

وشادن قال هاك الكأس قلت له   هات اسقني من نتاج الماء والعنب
(4)
فقام يسعى الى دن فسللها   حمراء بكرا لها عشر من الحقب

---

1) طبقات الشعراء : 78

2) الديوان 4 : 201 .

3) الديوان : 161

4) نفسه : 166

الاّ أنّ تشبيه الخمر - عند الغزل - بالبكر ليس من ابداع شعراء البيئة العبّاسيّة ،فقد ورد تشبيهها بالعذراء في خمريات الأخطل وخمريات الأعشى .

لقد تعرض شعراء الخمر العبّاسية الى وصف الشّراب العتيق ،وتفننوا بجودته ،فأكّدوا طول المدّة التي تقضيها الخمر في الدّنان ،فعلى صاحبها أن يمهلها أحوالا ان كان يأمل الحصول على شراب جيّد يعود عليه بالفائدة . ثمّ عليه أن يحجب خمره بتطيين دنانها ،وتقييرها ،وحفظ هذه الدّنان - بعد سكون هديرها - في مكان لا تصله حرارة الشّمس حتّى لا تؤذي خمره . الاّ أنّ هذه المعاني ،كانت في الغالب مطروقة تناولها أسلافهم من شعراء الخمر . فاعتمدوها مع بعض الاضافة . ونادرا ما تسنّى لهم تجاوز المعاني القديمة .

ولا نشك في أنّ أبا نواس كان يفضّل المعتّق من الشّراب ،وهو الذي أدمن الخمر وخبرها ،كما أنّه كان يملك القدرة على مقاومة شدّة سورتها ،فمن غير المستبعد - اذن - أن يبالغ في وصف طول مدّة تعتيق شرابه .

وها هو يذكر أنّه يملك خمرا تعاقبت عليها الأعوام وهي معتقة في دنّها ، كما يشير الى أنّ هذه الخمر من بابل ، فيقول :

ظللت أعاطيه سلافة قرقف مخدّرة ،عذراء ، من سبي بابل
سليلة كرم لم يفض ختامها ولم يلتذعها في بطون المراجل
يكرّ عليها صيفها وشتاؤها ويأتي عليها قابل بعد قابل (1)

أشار الشّعراء الى طول مدّة تعتيق خمرهم ،

1) الديوان : 185

غير أنّ النّواسي يشير الى أنّ هذه الخمر ضاربة في القدم ،تعاقبت عليها الأزمان ، وتوالت عليها الأجيال ،لتأكيد قدمها . ويصرّح برفض الخمر التي لم تطل مدّة تعتيقها ،وان بقيت عشر أحوال في الدّنّ فهي - لديه - حديثة العهد بالتّعتيق ، لم تستوف مدّة تعتيقها . يقول :

ولا تسقياني بنت عشر ،فانّها كما عصرت لم ينس فرقتها الكرم
ولكن عجوزا بنت كسرى قديمة ، معتّقة ،قد دبّ في طيّها الحلم (1)

وهكذا يشترط أبو نواس أن تكون الخمر المعتّقة ضاربة في القدم ،الاّ أنّ وصف الخمر العتيقة بالعجوز ورد عند سابقيه . كما طالب سلفه من الشّعراء بالخمر التي عتّقت منذ عهد كسرى ،على أنّ ذكر النّواسي لكسرى - فيما يبدو - لا يقصد به مجرّد القدم فقط ،بل انّه يشير بذلك أيضا الى كرم نسب هذه الخمر ،فالخمر المنسوبة لكسرى هي أجود الخمور . فطالما قرن الفرس الخمر بكسرى ،للدّلالة على جودتها .(2)

وربما قصد النّواسي أنّ هذه الخمر سهر عليها الفرس ،وتعهدوها بالرّعاية أثناء مدّة تعتيقها ،لأنهم برعوا في ذلك واكتسبوا خبرة في صنع الخمور على عكس العرب . قال أبو نواس مصرحا بذلك ،متغنّيا بالخمر الكسروية :

تراث أنوشروان كسرى ،ولم تكن مواريث ما أبقت تميم ولا بكر .(3)

---

1) الديوان : 104
2) ينظر تطور الخمريات من العصر الجاهلي الى عصر أبي نواس 149 - 151 .
3) الديوان : 102 .

[illegible] :

ولا يمرّ علينا هذا البيت، دون أن يتبادر الى ذهننا الشّكّ في أنّ الشّاعر هنا ينزع نزعة شعوبية، فهو يزدري العرب لعدم اهتمامهم بصنع الخمور، كما يحتقرهم لكونهم يكتفون عند الشرب بلبن الشاة (1) .

وينسب النّواسي خمره المعتّقة الى عهد نوح، ويشير الى أنّها شهدت الطّوفان، وبقيت محفوظة في أرض الأحرار - ويقصد بهم الفرس - فهذه الأرض بعيدة عن العرب، - الذين يتّهمهم بالحمق - ، منزّهة عن عيشهم الجدب، فهي تحوي دساكر كسرى، كما يؤكّد النّواسي أنّ الذي تولّى تعتيق هذه الخمر، هو دهقان من الفرس .

كانت على عهد نوح في سفينته   من حرّ شحنتها، والأرض طوفان

فلم تزل تعجم الدنيا وتعجمها   حتّى تخيّرها للخبء دهقان

فصانها في مغار الأرض فاختلفت   على الدّفينة أزمان وأزمان

ببلدة لم تصل كلب بها طنبا   الى خباء، ولا عبس وذبيان

ليست لذهل، ولا شيبانها وطنا   لكنّها لبني الأحرار أوطان

أرض تبنّى بها كسرى دساكره   فما بها من بني الرّعناء انسان (2) .

ويشير النّواسي الى أنّ الذي يقوم بتعتيق خمره دهقان له مرتبة في الدّيانة، يحترمه النّاس .

---

1) ينظر ديوانه : 11 .

2) نفسه : 126 - 127 .

راحا مشعشعة حمراء صافية بالكرخ عتّقها الدّهقان فادرسا
(1)
محالف الدّين ، قد شابت ذوائبه يدعونه النّاس ربّانا وقسّيسا .

وخمر أبي نواس ان لم تكن من عهد كسرى ، فهي من عهد قيصر .
(2)
ادرها علينا مزّة بابلية تخيّرها الجاني على عهد قيصرا

لقد امتدح الشّعراء الشّراب العتيق ، فنسبوا خمرهم الى عهد نوح ، وفرعون ، وكسرى ، الاّ أنّ النّواسي يركّز على جودة الخمر المعتّقة ، فيشير الى تدعيم التّعتيق لهذه الجودة . فيلقب الخمر " عجوز " قديمة قدم الدّهر لأنّه يدرك أنّ التّعتيق يكسب الخمر جودة ، وأنّ أجود الخمور أكثرها تعتيقا .

اصدع نجيّ الهموم بالطّرب وانعم على الدّهر بابنة العنب

واستقبل العيش في غضارته لا تقف منه آثار معتقب

من قهوة زانها تقادمها فهي عجوز ، تعلو على الحقب
(3)
دهرية قد مضت شبيبتها واستنشقتها سوالف الحقب .

وكما شبّهت الخمر بالعجوز ، لطول مدّة تعتيقها ، نجد أبا نواس يشبّهها بالشّيخ لتعاقب الأزمان عليها في الدّنّ .

فسمّها بالشّيخ لا الفتاة

ثمّ اقتعدها ساكر الغداة

فاستلّ منها مهج الحياة (4)

---

1) الدّيوان : 203
2) نفسه : 101
3) نفسه 161
4) نفسه 166

فهو يدعو الى عدم تسمية الخمر بالفتاة ، وقد ورد هذا التشبيه لأن الخمر تكون محجوبة طيلة مدة التعتيق في دنها ، فلا تغادره الا عند البزل ، فأرهى الشعراء أنها بهذا شبيهة بالفتاة المصونة . وما جعل النواسي يرفض هذه التسمية ، هو أن تشبيهها بالفتاة ربما ينفي عنها صفة القدم ، بينما يصر على وصف مدة تعتيقها بالطول ، فيفضل تشبيهها بالشيخ والعجوز ، كما تقدم .

ونجده يذكر أنه اقتنى خمرا تعاقبت عليها الأجيال ، فقد شهدت الطوفان في عهد نوح ، بل ان خمره أدركت نوحا وهي شمطاء .

رأت نوحا ، وقد شمطت وشابت ‏ ‏ وقد شهدت قرونا قبل نوح (1)

كما أن خمر النواسي شهدت عهد ثمود حتى أبيد أهلها ، وكان مسلم قد أشار - فيما تقدم - الى أن خمره توارثها أهل ثمود عن أهل نوح . غير أن النواسي جعل خمره تصرح بقدم عهدها لما سألها عن سنها في حوار لطيف أجراه معها .

فقلت لها لما أضاء سناؤها ‏ ‏ على صحن كأس قد علا الكف زاهر

أبيني لنا ياخمر كم لك حجة ؟ ‏ ‏ فقالت لحاك الله إني بذاكر

شهدت ثمودا حين حل بها البلى ‏ ‏ وأدركت أياما لعمرو بن عامر (2) (3)

وعلى أن الشعراء نسبوا خمرهم الى عهد نوح ، أو كسرى ، أو ثمود

---

1) الديوان 164

2) هو عمرو بن عامر بن زيد بن مناة ، الكعبي الخزرجي شاعر جاهلي فارس ، كان أشرف الخزرج يعده بعض الرواة من ملوك العرب في الجاهلية (الأعلام للزركلي 25)

3) الديوان 208

يتبع

ـ كما مرّ بنا ـ ، الا أنّ النّواسي يتجاوز نسبتها الى الأمم البائدة ، فخمره قديمة قدم الدّهر ، رضعت معه من شدي واحد .

اسقنيها بسواد قبل تغريد المنادى
من كميت بلغت في السّنّ أقصى مستزاد
رضعت والدهر شديا وتلته في الولاد . (1)

وهكذا فقد بلغ أبو نواس أقصى حدّ لقياس الزّمن ، فليس هناك خمر معتّقة تضاهي خمره في القدم ، فهي " نشأت في حجر أمّ الزّمان " . يقول في هذا المعنى أيضا :

فتمزّيت بصرف عقار نشأت في حجر أمّ الزّمان
فهي سنّ الدّهر ان هي فرّت نشأ وارتضعا من لبان (2)

بل انّ النّواسي يضفي علو خمره صفة الأزلية ، فهي تكبر الدّهر ، شهدت يوم ولادته ، وعايشته عند هرمه .

اسقنيها سلافة سبقت خلق آدما
فهي كانت ولم يكن ماخلا الأرض والسّما
رأت الدّهر ناشئا وكبيرا مسرّما . (3)

كما يذكر النّواسي أنّ خمره ضاربة في القدم ، فهي قد عتّقت قبل حركة الكواكب .

---

1) الدّيوان : 64
2) نفسه : 18 - 19
3) نفسه : 80

تخيّرت والنّجوم وقف لم يتمكّن بها المدار
فلم تزل تأكل اللّيالي جثمانها مابها انتصار (1)

ويجعل أبو نواس خمره تكبر الدّهر سنّا ، فهي عتّقت قبل ولادته ، وشهدت الأحداث التي تعاقبت منذ نشأة الكون ، فعمر هذه الخمر سجّل لتاريخ الانسانية منذ بدايته . يسؤكد ذلك حيث يقول بأنّ خمره لو تمكّنت من الكلام ، لسردت قصص الأمم لأنّها عايشتها جميعا ، يقول :

فهي اليوم الذي بزلت وهي تربّ الدّهر في القدم
عتّقت حتّى لو اتّصلت بلسان ناطق ، وفم
لاحتبت في القوم ماثلة ثمّ قصّت قصّة الأمم (2)

ويرى أحد القدماء (3) أنّ النّواسي بالغ في وصف خمره ، فعلّق على هذا المعنى بقوله : " ويستجيده خلق كثير ، وليس عندي بالمحمود لما فيه من الافراط " (4) ، الاّ أنّ غيره من الدّارسين (5) ، استحسن هذه المبالغة التي جاء بها أبو نواس لوصف خمره بالقدم ، فعلّق على ذلك بقوله : " وقد سبقه الشعراء الى وصف قدم الخمر وطول تعتيقها ، ولكن ليس منهم من بلغ هذه الغاية . . . وليس الأمر مجرّد تنافس في اطالة مدّة تعتيقها بينه وبينهم ، يقولون سنة فيقول عشرا ويقولون مائة فيقول ألفا ، ولكن المهمّ أنّه وصل في تفكيره في القدم الى التّجريد الفلسفي

---

1) الدّيوان : 73
2) نفسه : 41
3) المبرّد محمد بن يزيد النّحوي .
4) الموشّح : 237 .
5) النّويهي .

لكنه الزمان حتّى يتعدّى بدايته الأولى الى الوجود اللا زمني الذي تنسبه الأديان الى الله وحده".(1)

والحقيقة أنّ النّواسي عمد الى المبالغة في وصف خمره بالقدم الا أنّها مبالغة مقبولة ،فهو - كما تقدم - لم يقس مدّة تعتيق خمره بالسّنين ، بل راح يبحث في كنه الزّمن ،فجعل خمره تربا للدّهر ،بل جعلها تسبقه الى الوجود .

ويرى الدكتور عزيز فهمي أنّ معاني أبي نواس في وصف الخمر بالقدم مأخوذة عن الأخطل والوليد بن يزيد .(2) وفي هذا الحكم مبالغة واجحاف في حقّ أبي نواس . فعلى أنّه أفاد من بعض معاني أسلافه من الشّعراء ،الا أنّه أبدع في تجسيد القدم نفسه ممّا ميّزه منهم .

وأشار أبو نواس الى مكان تعتيق خمره ،كما جاء في قوله :

لم تخط من خدرها شبرا الى أحد ولم تزل بين جنّات وأنهار .(3)

فالشاعر يشير هنا الى جمال المناطق الجبلية ،حيث البساتين والتّلال والأنهار ،فعمد لذلك الى تشبيه مكان تعتيق الخمر بالجنان . وهو تشبيه طريف لم يسبق اليه .

ويتولّى الأكراد ،- وهم سكّان المناطق الجبلية - تعتيق الخمور . قال أبو نواس :

1) نفسية أبي نواس : 35
2) ينظر كتابه المقارنة بين الشّعر الاموي والعبّاسي في العصر الأوّل 276 - 277 .
3) الدّيوان : 145 .

بنت عشر لم تعاين غير نار الشمس نارا
لم تزل في قعر دن عشر زفتا وقارا (1)

وأشار الأخطل الى أن خمره لم تعذب بادنائها من النار ، ومن الجائز أن يكون أبو نواس قد أفاد من معناه .

بل ان خمر أبي نواس تتأثر بحرارة الشمس أثناء التعتيق ، وكأنها طبخت على النار ، حيث تضافر عليها حر الشمس . وحر الأصوات فبقيت عند البزل مجرد خلاصة في قاع الدن تنير كالقبس .

طبخته الشمس لما بدل العلج بناره
فأتى الدهر عليه غير شيء في قراره
فتجلت عن شهاب يتراءى بشراره
ركد الدهر عليه فكفى ضوء نهاره (2)

وأشار الشعراء الى تأثير الشمس في لون الخمر أثناء التعتيق ، فقالوا بأن لونها يكتسب تألقا يؤثر في عين الناظر اليها ، كما قالوا بأن لونها يشتد ، وكأن الشمس قامت بصبغها وهي في بطون الدنان .

ويتجاوز أبو نواس هذه المعاني ، فيبالغ في وصف تألق خمره ، فهي شهاب يتطاير شرره ، على انها تضيء الكون مثل الكواكب المنيرة . كما يشبه حبابه المتين بنور يتساقط من السماء .

أتت دونها الأيام حتى كأنها تساقط نور من فتوق سماء . (3)

---

1) الديوان : 65
2) نفسه : 95
3) نفسه : 402

ويرى مهلهل بن يموت بن المزرّع أنّ أبا نواس نقل هذا المعنى الى وصف الخمر من قول جرير في الغزل :

تجري السّواك على أغرّ كأنّه ... برد تحدّر من متون غمام.(1)

الّا أنّ صاحب الوساطة يستبعد أن يكون النّواسي قد اعتمد معنى جرير في قوله.(2)

والحقيقة أنّنا لا ندري كيف تمّ الجمع بين هذين المعنيين ، فأبو نواس يشبّه خمره المعتّقة بنور يسلّط من السّماء على الأرض ، بينما يصف جرير أسنان حبيبته بشدّة البياض ، فيشبّهها بالبرد الذي يصدر عن الغمام الممطر . ولكنّنا يعلم أنّ البرد ينزل من السّماء الى الأرض ، وكذلك يسلّط نور الكواكب على الأرض من السّماء .

ويحاول أبو نواس تبرير حمرة شرابه عند التّعتيق ، فيأتي بمعنى طريف ، حيث يرجع سبب ذلك الى أنّ الخمر تشرب من نفسها ، حيث تتناقص كمّيتها وتزداد حمرتها .

فلم تزل حقب الأيام تنقصها ... حتّى اختفا عشرها في دنّها الضّاري

كأنّما شربت من نفسها جرعا ... فازداد من لونها في باطن القار .(3)

و ورد في الخمريات الشعراء الى أنّ التّعتيق يكسب الخمر رائحة طيّبة ، فيتضوّع عبيرها عند البزل تضوّع رائحة المسك ، كما جاء في بيت حارثة بن بدر ، وأبي جلدة اليشكري — فيما تقدم — ويذكر أبو نواس أنّ خمره المعتّقة تمتاز بذكاء الرّائحة فكأنّ عبيرها طيب الخلوق .(4)

---

1) سرقات أبي نواس 73
2) ينظر كتاب الوساطة 211
3) الدّيوان : 145
4) ينظر ديوانه : 54

ويصف النّواسي دنّ خمره أثناء التّعتيق بأنّه ملفوف مختوم تداولت عليه السّنون السّنون ،فخمر هذا الدّنّ ـ حسب قول أبي نواس ـ ستكون جيّدة ،فهو يطالب بها .

ياخليليّ من بني مخزوم　　علّلاني بماء بنت الكروم

من كميت لذيذة الطّعم والريح ،عقار ،عتيقة خرطوم

عتّقها الأنباط عشرا فعشرا　　ثمّ عشرا في مدمج مختوم. (1)

ويصف أبو نواس دنان خمره المطيّنة المقيّرة بأنّها بنات كسرى ، وهنّ محتجبات .

بنات كسرى خيرما بنات

جلسن من هيت ومن عانات

محتجبات غير باديات

الاّ بأن يجلسن بالطّاسات (2)

ويذكر النّواسي أنّه يقوم بعملية لفّ الدّنّ بنفسه ،ويشبّه غشاء الطّين الذي يكمّ به أعلى الدّنّ بالعمامة ،فيقول بأنّه ينسج لدنّه عمامة محكمة مخافة أن يؤذي الجوّ خمره .

نسجت لها عمائم من تراب　　وماء ،محكمات موثقات

سترت الجوّ خوفا من أذاه　　فباتت من أذاه آمنات (3)

ومن غير المستبعد أن يكون النّواسي قد اعتمد معنى مسلم الذي قال فيه أنّه

---

1) الديوان 175

2) نفسه 165

3) نفسه 210 - 211 .

كساد نّ خمره عباءة ،كما يجوز أن يكون قد أفاد من معنى الأخطل الذي جعل دنّه يتردّى برداء من قار ،وآخر من نسج العنكبوت ،فلعلّ النّواسي أفاد من تشبيه غلاف الدّنّ بالرّداء ،فشبّه غطاء أعلى الدّنّ بعمامة تلفّ على رأسه ،وعلى أنّه أفاد من قول الأخطل ،الاّ أنّه لم يبلغ جودة معناه . كما أكّد أبو نواس . أنّه لا يأتمن الجوّ على خمره ،لهذا فهو يحكم تغليف دنّها .

ويشير الى أنّ الخمر تصان عند التّعتيق من أذى الجوّ .

من قهوة لم تزل تخفى ، ويحجبها كنّ الحرائر عصرا بعد أعصار

ظلّت من الدّهر أزمانا مخدّرة يصونها كنف من بيت خمّار (1)

كما يضفي عليها من أحاسيسه ،فيجعل صيانتها حفظا لها من أي مكروه قد يحيط بها ،فخمره يجب أن تكون في أمان لأنّها تخشى الأخطار .

حصّنها في الحياض ،فاحتجبت ما راعها رهبة ، ولا فرق (2)

بل انّ الشّاعر يشبّه خمره بأميرة محجوبة عن العيون ،لا يعلم بوجودها أحد .

ثم اصطبح من أميرة حجبت عن كل عين بالصّون والرّصد

لم يرها خاطب فيمنعها ولا دعاه لها أخو فند

محجوبة في مقيل حوبتها تسعين عاما محسوبة العدد

لم تعرف الشمس أنّها خلقت ولا اختلاف الحرور والصّرد (3)

ويبدع أبو نواس حين يشبّهها بجنين ،الاّ أنّ خمره تعاقبت عليها الأحوال

---

1) الديوان 149

2) نفسه 53

3) نفسه 172 - 173 .

حتّى شمطت في الرّحم ، ثم غادرته وهي في عزّ الشباب الذي عاودها من جديد .

فاسقيني الخمر التي اختصرت بخمار الشّيب في الرّحم
ثمّت انصات الشّباب لها بعد ما جازت مدى الهرم (1)

ويتعهّد الخمر صاحبها بالرّعاية طيلة مدّة تعتيقها - كما تقدّم - ، وإذا كان أبو نواس قد وصفها أثناء التّعتيق بالأميرة فانّه يشبّه صاحبها بالعبد لأنّه يسهر عليها ويقوم بخدمتها .

في كلّ يوم يظلّ قيّمها مكبّلا كالأسير في صفد
مزمزما حولها ، ومرتنما يرجو بصون لها غنى الأبد (2)

وتتناقص كمّية الخمر عند التّعتيق لطول مكوثها في الدّنّ ، وقد تقدّم في هذا المعنى قول الأخطل بأنّ خمره التي عتّقت ثلاثة أحوال ، عند سكون هديرها كان قد ذهب نصفها (3) ، فلم يزد النّواسي على هذا المعنى شيئا ذا بال ، الاّ أنّه يعجب من تناقص كمّية الخمر عند صيانتها عكس غيرها من الأشياء التي تزيد لمّا تصان ، فيرى أنّ الخمر تخرج عن هذه القاعدة .

رأيت الشّيء حين يصان يزكو ونقصان المدام على الصّيان (4)

ويرى الشّاعر بأنّ الخمر تتأثّر بتداول اللّيل والنّهار عليها وهي مكمومة في الدنّ ، فتتناقص كمّيتها ، بحيث لا تغطّي أحيانا الاّ نصف شطر الدّنّ عند البزل .

وتناساها الجديدان حتّى هي أنصاف شطور الدّنان . (5)

---

1) الدّيون : 41
2) نفسه 173
3) ينظر نفسه 66
4) الديوان 83
5) نفسه 19 .

وهذه الخلاصة من الخمر التي تبقى في الدّن يصفها أبونواس بأنّها جوهر الخمر الخالص.

حتّى اذا ماتكلّ ذ ا م وخلّص السّرّ والنّجار
(1)
عادت الى جوهر لطيف عيان موجود ه ضمار

ويأتي النّواسي بمعنى طريف حين يجعل من هذه الخلاصة الباقية روح !
(2)
الخمر بعد فناء جسدها .

(3)
أتت من دونها الأيّام حتّى تعادم جسمها والرّوح فاق

بل انّ أصحابها لا يدركون عند البزل الّا حشاشة من روحها ،قال أبونواس :
(4)
فأدرك منها الغابرون حشاشة لها هيجان مرّة ،وسكون

وعن تلازم الخمر والدّن قال أبو نواس .
(5)
ربيبة خدر راضها الخدر أعصرا فكانت له قلبا ،وكان لها صدرا

فجعل الشّاعر الدّن صدرا يحتضن الخمر ،وهي بالنّسبة له القلب النّابض ،فلا قيمة للدّن ان لم تكن به خمر ،فهو بدونها جسم ميّت بلا روح . وهذا المعنى يذكّرنا ببيت مسلم بن الوليد الذي يقول فيه .
(6)
أناخ عليها أغبر اللّون أجوف فصارت له قلبا وصار لها صدرا .

ولعلّ أبانواس قد أفاد من هذا المعنى في قوله ذلك . ويشبّه أبو نواس الدّن بالمهد لاحتضانه الخمر حقبا من الزمن .

---

1) الديوان 73
2) ينظر هذا المعنى في ديوانه 66 ، 69 ، 80 .
3) الدّيوان 56
4) نفسه 69
5) نفسه 125
6) الديوان 42 .

فمهّدت في دنان سقيا لها من مهاد (1)

غير أنّ خمر أبي نواس لا تنعم بالرّاحة في مهدها، فهي تعاني مايعانيه السّقوم، حيث يبلي تداول السّنين جسمها، فيلطف الله بها، حيث يدرك البازل حشاشة من روحها.

تعلّنا بمدام قد تناولها ريب الزّمان، وعصر بعد اعصار
أتت زمانا، كما أنّ المريض، وما تشفى، فدافع عنها الخالق البارى (2)

وعلى أنّ وصف الخمر بالبكر قد ورد عند الشّعراء الذين سبقوا أبا نواس، الاّ أنّه يتجاوز هذا التّشبيه، حيث يجعل خمره البكر تفتض عذرتها عند البزل حين قال:

فافترعناها مزّة الطّعم فيها نزق البكر، ولين العوان (3)

ولقد تقدّم قول مسلم بن الوليد عن خمره بأنّها قد حان خطابها مشيرا الى جودتها بعد التّعتيق. أمّا أبو نواس فيجعل من خمره عروسا ويرشّح نفسه للزّواج بها. قال يصفها في دنّها:

فهي فيه عروس خدر وكنّ ربّيت في النّعيم بعد النّعيم
في ظلال محفوفة بظلال من كروم ومن عريش كروم
زرتها خاطبا، فزوّجت بكرا ففضضت الختام غير مليم
عن فتاة كأنّها حين تبدو طالعة الشّمس في سواد الغيوم (4)

---

1) الدّيوان : 153
2) نفسه : 145
3) نفسه : 19
4) نفسه : 175.

وهكذا رأينا - فيما تقدم - أنّ أبا نواس نسب خمره الى عهد قيصر ونوح وثمود، ولعلّه أفاد من معاني سابقيه الذين وصفوا قدم خمرهم بأنّها عتّقت منذ أيّام كسرى وفرعون. الا أنّه يكتفي أحيانا بالمبالغة في هذه المعاني، حيث يجعل خمره تسبق خلق آدم، كما يصفها بأنّها شمطت قبل نوح.

وما كان أبو نواس ليقف عند اعادة صياغة المعاني القديمة المتداولة، والمبالغة فيها - وهو الذي جعل الخمر كلّ شيء في حياته، كما أنّه اشتهر بوصفها -. فقد جاء بمعان طريفة في وصف شرابه بالمتق، كقوله بأنّ خمره رضعت مع الدّهر ثديا واحدا، وأنّها نشأت في حجر أمّ الزّمان، بل انّها تكبر الدّهر، فقد رأته ناشئا. كما يقول عن خمره بأنّها عتّقت عندما كانت النّجوم متوقّفة لم يتيسّر لها بعد أن تبدأ في حركتها.

ويذهب أبو نواس الى أنّ خمره لو تمكّنت من الكلام، لحكت قصّة الأمم لأنّها عايشتها جميعا. وهكذا يوهم الشّاعر سامعه بأنّ خمره - حقيقة - أزلية متوغّلة في القدم.

كما يصفها بأنّها شابت وهي مكنونة في الرّحم، ثمّ عاودها الشّباب عند بزلها.

ويضفي أبو نواس على خمره من أحاسيسه، فيذكر أنّه انّما يصونها لأنّها تخشى الأخطار وهي في مهدها. فالخمر

بالنّسبة لأبي نواس كائن حيّ أفنى جسمه التّعتيق ، وظلت روحه تقاوم الزّمن ، فلا يدرك أصحابها عند المزل الاّ حشاشة من روحها على وشك الحتف .

وبهذه المعاني الطّريفة استطاع أبو نواس أن يتجاوز ماقاله سابقوه من الشّعراء في وصف الشّراب بالعتق ، ولعلّ مردّ ذلك الى أنّهم لم يولعوا بها ولعه وبها .

الخمـــــر ومنزجهـــــا :

كانت حياة البدو في الجاهلية متعلقة بسقوط المطر ،فهم يتتبعون أماكن الكلأوالعشب[1] لرعي ماشيتهم التي هي أساس معيشتهم .

فكان حديث النّاس ـ حضرهم وبدوهم ـ هو المطر ،ذلك لأنّ المطر هو مصدر رزق الأعراب ،تحيا به نباتاتهم ،وحيواناتهم ،ففي سقوطه سعادتهم ،وفي غيابه تعاستهم[2] .

وكانوا يفسّرون انحباس المطر عنهم بغضب من الآلهة قد حلّ بهم ،فكانوا يتضرّعون في حالة الجفاف الى آلهتهم يطلبون منها الغيث ،بأدعية وصلوات الاستسقاء[3] .

وقد عملوا على بناء السّدود لخزن مياه الأمطار والافادة منها[4] ،وخاصّة باليمن ، فقد أقيم على كلّ واد يمكن استثمار جانبيه سدّا[5] .

وعلى أنّ هناك بعض البرك الدّفينة في تيماء وخيبر كانت تنفجر ماء ،وتساعد على زراعة النّخيل ،الاّ أنّ مياهها تكون مضرّة أحيانا[6] .كما كانت هناك آبار في الجزيرة العربية ،الاّ أنّ مياه بعضها كانت مالحة لا تصلح الاّ لشرب الجمال ، وتعرف هذه الآبار بالخبرات ، مفرد ها خور[7] . فكانوا ـ لذلك ـ يشربون الكرع وهو ماء السماء[8] .

---

1) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ 4 : 277

2) ينظر جغرافية شبه جزيرة العرب : 89 .

3) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 1 : 162

4) ينظر تاريخ الشعوب الاسلامية : 13

5) ينظر العرب قبل الاسلام : 169

6) ينظر تاريخ الشعوب الاسلامية : 11 .

7) ينظر تاريخ العرب القديم : 22 .

8) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 277 .

ونريد من كلّ ما تقدّم أن نبيّن مدى أهمّية المطر في حياة الجاهليّين ، ولكلّ هـذا حق لهم أن يسمّوه غيثاً .

انّ شدّة تعلّق الشّعراء بالخمر جعلتهم يهتمون بطبيعة الماء الذي يمزجونها به ، فراحوا يصفونه بالصّفاء والعذوبة في خمرياتهم .

ونجدهم يستقبلون أول المطر باحتفاء شديد بعد مدّة طويلة من الحرمان . ويفخرون بأنهم يمزجون خمرهم بماء أوّل المطر الذي يمتاز بالصّفاء والعذوبة . وللأعشى في هذا المعنى قوله :

ثوت في الخرس أعواما وجاءت وهي مقتولة
بماء المزنة الغرّاء راحت وهي مشمولة (1)

كما يذكر امرؤ القيس أنّه يمزج خمره بماء المطر الصّافي البارد :

كأنّ التّجار أصعدوا بسبيئة من الخصّ حتّى أنزلوها على يسر
فلمّا استطابوا صبّ في الصحن نصفه وشجّت بماء غير طرق ولا كدر
بماء سحاب زلّ عن متن صخرة الى بطن أخرى طيّب ماؤها خصر. (2)

فالشاعر يذكر أنّ الماء الذي يمزج به خمره وقع على صخرة ثم نزل الى بطن صخرة فتحصل عليه الشّاعر ، ورشّحه ليمازج خمره . ومراده من وراء ذلك ، تأكيد صفاء الماء الذي لم يخالطه تراب ، فخمره الصّافية لا يمازجها الاّ ماصفا من الماء .

---

1) الدّيوان : 256

وقال لبيد في هذا المعنى :

عتيق سلافات سبتها سفينة تكرّ عليها بالمزاج النّياطل
بأشهب من أبكار مزن سحابة وأري دبور شاره النّحل عاسل

ولعدي بن زيد في هذا المعنى قوله :

قتلته بسبيب أبيض صاف طيّب زان مزجه التّصفيق

2) الدّيوان : 99 - 100

ويؤكد عدي بن زيد أن خمره تمزج بماء سحاب صافي اللون، عذب المذاق .

ثم كان المزاج ماء سحاب لا صرى آجن ولا مطروق .(1)

وامتدح الأعشى الخمر التي يعلوها الزبد بكثرة عند المزج فقال :

وشاو اذا شئنا كميش بمسعر وصهباء مزباد اذا ما تصفق .(2)

ويتأثر لون الخمر عند ممازجة الماء لها، اذ يكون قاتما بعد التعتيق، فيصيره المزاج أفتح مما يزيد في تألق الخمر .(3)

وعند الافراط في مزج الخمر، تسمى مقتولة .(4) ويفضل حسان بن ثابت الشراب الصرف أو الممرق، فيدعو على ساقيه الذي أفرط في مزج الخمر، ويناديه أن يناوله شرابا لم يقتل حيث يقول :

ان التي (ناولتني)(5) فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تقتل(6)

ويفيدنا الأعشى أن الماء يصب متفرقا على الخمر عند مزجها، وقد يكون الهدف من ذلك الاحتراس من المبالغة في المزج .

فترى ابريقهم مسترعفا بشمول صفقت من ماء شن(7)

وقد لا تمزج الخمر، وذلك عند كونها رقيقة سهلة، فتشرب صرفا وكأنها ممزوجة لطيبها، قال عبدة بن الطبيب .

---

1) الديوان : 79
وقال حسان في صفاء وعذوبة الماء الذي يمازج خمره :
فقمت بكأس قهوة فشننتها بذي رونق من ماء زمزم فاتر
وقال الأعشى أنه يمزج خمره بماء الفرات :
وردت علينا الريف حتى شربتها بماء الفرات حولنا قصباتها

2) الديوان 147
3) ينظر مطلع معلقة عمرو بن كلثوم، شرح المعلقات السبع : 126
4) ينظر قول عدي بن زيد العبادي، وكذا قول الأعشى، صفحة
5) جاء في الديوان فاولتني والصواب ناولتني
6) الديوان : 367
7) الديوان : 228 .

ثمّ اصطبحت كميتا قرقفا أنفا   من طيّب الرّاح واللّذات تعليل
(1)
صرفا مزاجا وأحيانا يعلّلنا   شعر كمذهبة السّمان محمول .

وتفنّى الشعراء بالفقاقيع التي يحدثها المزج فتعلو سطح الاناء ،فهذا عدي بن زيد يشبّهها بالياقوت الأحمر لتألّقها في قوله :
(2)
وطافا فوقها فقاقيع كالـ   ـياقوت حمر يزينها التّصفيق

نلاحظ ممّا تقدّم اهتمام شعراء الجاهلية ـ بحكم جدب الصحراء ـ بطبيعة الماء الذي يمازج خمرهم ،فلا يرشجون لها الا ماصفا وعذب من ماء المطر . كما أنهم يفضلون أوّل المطر ،فراحوا يدقّقون في وصف طريقة الحصول على الماء الذي يمزجون به خمرهم . وقال جميل سعيد في ذلك : " ولندرة الماء الجيّد عندهم تعرّضوا لما يمزج منه بالخمر ،وهم حين يعرضون لهذا يستقصون أوصاف الماء كأنّهم يحكون تأريخ هذه القطرات ".(3)

وتعرض شعراء الخمر في العصر الاسلامي الى تأثير المزاج في لون الخمر ،فهذا متمّم بن نويرة يصف تحول لون خمره من السّواد الى حمرة الدّم عند المزج .
(4)
جفن من الغربيب خالص لونه   كدم الذّبيح اذا يشنّ مشعشع .

ويذكر حارثة بن بدر أنّ خمره تصبح كالخيال عند المزج لرقّتها .
(5)
تراها اذا ما الماء خالط جسمها   تخايل في كفّ الوصيف المنطّق .

---

1) المفضّليات 292 - 293
2) الديوان 78
3) تطور الخمريات من العصر الجاهلي الى عصر أبي نواس 43
4) المفضليات 74
5) الأغاني 23 : 496 .

وله أيضا يصف تأثير المزج في طيب الخمر الذي يفوح ويتضوّع لمّا يصبّ عليها الماء .

حساها كمستدمي الغزال عتيقة ... اذا شعشعت بالماء طيّبة النّشر (1)

والخمر بعد مزجها تكون أقلّ حدّة وتأثيرا في الشّارب من الصّرف ، فقد روي عن الرسول أنّه كان يطوف بالبيت فعطش فأتي بنبيذ ، فلمّا شمّه قطب ثم دعا بماء زمزم فصبّه عليه وشربه . (2) كما يروى عنه أنّه قال : " انظروا هذه الأشربة اذا اغتلمت عليكم فاقطعوا متونها بالماء " (3)

غير أننا نجد أبا محجن الثقفي يذكر أنّه قلّما يمزج شرابه ، ويكون ذلك في حالات طربه ، ولعلّ سبب ذلك أنّه يرغب في الاحتفاظ بوعيه ليتمتّع بالسّماع ، قال في ذلك :

فقد أبا كرها ريّا وأشربها ... صرفا وأطرب أحيانا فأمتزج . (4)

وتقاس قوة الخمر بمدى مقاومتها للماء ، فالخمر الشّديدة هي التي لا تتأثّر بالماء مهما مازجها اذ تذهب بزبده . قال القطامي :

وكأس تمشي في العظام سبيئة ... من الرّاح تعلو الماء حتّى تكاثره

كميت اذا ما شجّها الماء صرّحت ... ذخائر حانيّ عليها ينازره (5)

واهتم ربيعة بن مقروم بفقاقيع الخمر التي تتكون عند المزج ، وتتصاعد الى سطح الاناء .

---

1) الأغاني 23 : 457
2) ينظر كتاب الأشربة : 22
3) نفسه : 23
4) الديوان : 70
5) الديوان : 93

ومشجوجة بالماء ينزو حبابها   اذا المسمع الفرّيد منها تحبّبا (1)

لقد أبدع الشاعر حين جعل الحباب يثب عند مزج الخمر . ويوفق حارثة بن بدر في رسم صورة جميلة عند وصفه فقاقيع الخمر ، حين يقول :

اذا شمشمت بالماء خلت حبابها   نظائم در أو عيون الجنادب (2)

فقد شبّه الشّاعر فقاقيع الخمر المتراصّة على سطح الاناء باللآلىء أو عيون الجنادب لاستدارتها ولمعانها . وما أطرف هذا المعنى الذي جمع فيه الشّاعر بين فقاقيع الخمر عند ممازجتها الماء ، وبين عيون الجنادب .

واهتمّ شعراء الخمر في عهد بني أمية - كمتقدّميهم - بعملية تمازج الخمر والماء ، فوصفوا تأثيره في لونها ، فان كان يحوّلها من السّواد الى الحمرة ، فانّه ينقلها أيضا من الحمرة الى الصّفرة عندما ترقّق بالمزج ، قال الوليد بن يزيد :

فهي بغير المزاج من شرر   وهي لدى المزج سائل الذّهب (3)

لقد وفق الشّاعر في تشبيه خمره بالشّرر لتوهّج حمرتها بعد التّمتيق ، ثم يذكر بأنّ الماء يجعل منها ذهبا سائلا ، حيث ينقل لونها من حمرة الى صفرة لامعة . فالماء يرقّق الشراب ، ويكسبه تألّقا ولمعانا ، قال أبو جلدة اليشكري :

تلوح كعين الدّيك ينزو حبابها   اذا مزجت بالماء مثل لظى الجمر . (4)

---

1) الأصمعيات : 225 .
2) الأغاني : 23 : 477
3) الدّيوان : 22 : 302
4) الأغاني : 11 : 302

فالشاعر يشبه لمعان خمره بعد المزج بلهب النار المتّقدة ، ويشير الى فقاقيعها التي تتصاعد الى سطح الاناء ، ولعلّه أفاد من معنى ربيعة بن مقروم الذي جعل الحباب ينزو عند وصف حركة تصاعده - كما تقدم - .

وجاء شعراء الخمر الأموية بصور بديعة لوصف الفقاقيع ، فهذا يزيد بن معاوية يشبّهها باللؤلؤ ، لتألّقها ، كما يشبّهها بنقوش من ذهب على الفضة . في قوله :

لها حبب فوق الكؤوس كلؤلؤ كنقشة دينار على دور درهم (1)

وله أيضا في هذا المعنى :

اذا ما طفا فيها الحباب حسبتها كواكب درّ في سماء عقيق (2) *

لقد جعل الشاعر من فقاقيع خمره كواكب من ذهب رصّفت في سماء من عقيق ، وهو يشير بهذا الى لون الفقاقيع الضاربة الى الصفرة ، بينما يكون لون الخمر شديد الحمرة .

والخمر تلين عند المزج - كما تقدم - بينما تكون أشدّ تأثيرا وهي صرف كما يبدو من قول الأخطل . (3)

ومن الشرب من يميل الى مزج الخمر ، بينما هناك من يفضّلها صرفا . فاذا كان حسان بن ثابت يرفض الخمر المقتولة - كما تقدّم - ، فان الأخطل - وهو الذي عشق الخمر وتعلق بها - يفضلها مقتولة ، ذلك لأنّ الماء يكسبها طعما لذيذا كما يبدو من قوله :

فقلت اقتلوها عنكم بمزاجها فأطيب بها مقتولة حين تقتل . (4)

---

1) حلبة الكميت : 140

2) نفسه 122 . * (ورد في حلبة الكميت طفى)

3) ينظر ديوانه 3 : 12

4) نفسه 1 : 4

ويتلطف أبو الهندي حين يصف خمره بأنّها تتّخذ لون الورد عند مزجها ،

تصبّح بوجه الرّاح والطّائر السّعد كميتا ، وبعد المزج في صفة الورد . (1)

ذكر شعراء الخمر في الجاهلية أنّهم كانوا يمزجون خمرهم بماء المطر ـ كما تقدّم ـ ، ويذكر مسلم بن الوليد ـ وهو ابن البيئة العبّاسية ـ أنّه يمزج خمره بماء الغمام هو أيضا .

شججتها بلعاب المزن فاعتزلت نسجين من بين محلول ومعقود (2)

ولا نظنّ أنّ الشّاعر كان يلجأ الى ماء المطر لمزج خمره ، ذلك لأنّ في أمياه الرّافدين والآبار ما يغنيه عن ماء المطر ، الاّ أنّ جريه وراء تقليد المعاني الجاهلية جعله يذكر ذلك ، ولقد أبدع في وصف عملية تمازج الخمر بالماء ، اذ شبّه اختلاط السّائلين بتداخل خيوط النّسيج من نير وسدى . ثمّ ذكر أنّ طبيعة السّائلين ليست واحدة ، فالخمر عقدت لطول مدّة تعتيقها ، فكانت أغلظ من الماء الذي لا يمازجها بسبب عفرته .

وتعرّض شعراء الخمر في العصر العبّاسي الى تأثير الماء في لون الخمر ، فذكروا أن المزج يكسبها تألّقا ولمعانا ، ما يجعلها تشبه الذّهب واللّؤلؤ ، قال مسلم بن الوليد :

صبّ المزاج عليها الحلّي فاضطربت كأنّ في خافتيها الدّرّ والشّذرا (3)

وعندما يمزج أبو الشّيص خمره ، فانّما هو يفرغ ماء اللّؤلؤ على الذّهب المذاب .

كأنّ اطّراد الماء في جنباتها تتبّع ماء الدّرّ في سبك الذّهب (4)

---

1) تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ 2 : 65 (لم يذكر المؤلف مصدر البيت)
2) الدّيوان : 122
3) نفسه : 170

وقال أيضا في هذا المعنى مشبّها حباب الخمر بلؤلؤ ينزل من خيط على ذهب .

كأنّها وصبيب الماء يقرعها درّ تحدّر من سلك على ذهب .

4) طبقات الشّعراء : 77 .

ولعلّ شعراء الفترة العبّاسية أفادوا من سابقيهم في تشبيه الخمر عند المزج بالذّهب، كما ورد في قول الوليد بن يزيد الذي أوحت له الخمر الممزوجة بأنّها ذهب سائل . كما لا يستبعد أن يكونوا قد أفادوا من تشبيه حارثة بن بدر حباب خمره باللّؤلؤ .

وأفاد مسلم بن الوليد من هذا المعنى الأخير وتجاوزه حين جعل حباب خمره عند المزج أحجارا كريمة كالّتي ترصّع بها الخلاخل أو الدّماليج فقال :

(1)

كأنّ حباب الماء حين يشجّها لآلىء عقد في دماليج أو حجل

كما أبدع حين جعل من الفقاقيع قلادة تزيّن كأس الخمر ، ذلك لأنّ الفقاقيع أحاطت بجوانب الآنية على السطح ، فشبّهها بالاكليل المرصّع في قوله :

(2)

لطف المزاج لها فزيّن كأسها بقلادة جعلت لها اكليلا

وطوّر مسلم بن الوليد هذا المعنى ، فجعل خمره تتحلّى بالماء وتلبس الزّبد .

(3)

حليّها من ماء ولبسها الازبار .

وأبدع أبو الشّيص هذا المعنى في وصف تأثير الماء في لون الخمر .

وحمراء قبل المزج صفراء بعده بدت بين ثوبي نرجس وشقائق

(4)

حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا عليها مزاجا فاكتست ثوب عاشق .

وفّق الشّاعر في جعل خمره تحاكي شقائق النّعمان ووجنة المعشوق لشدّة حمرتها قبل المزج ، أمّا بعد المزج فيميل لونها الى الصفوة ، فجعلها الشاعر ـ لذلك ـ شبيهة بالنرجس ، ولون العاشق الشّاحب . كما شبّهها مسلم بن الوليد بالياقوتة قبل

---

1) الدّيوان : 33
2) نفسه : 48
3) نفسه : 189

ولأبي الشيص في هذا المعنى أنّ الماء ينسج لها طوقا من ذهب .

عجوز نسج الماء لها طوقا من الشّذر
كأنّ الذهب الأحمر في حافاتها يجري

4) طبقات الشعراء : 77 .

المزج وبعده بالورس . (1)

ويبدع مسلم بن الوليد في وصف تداخل الماء والخمر ، وتمازج لونيهما ، فخمره ... حمراء ، صفراء الصدر لممازجة الماء لها . يعلو رأسها شيب ، وهو يريد أن خمره أصبحت عبارة عن خلاصة لطول مدة تعتيقها لهذا هي لا تمازج الماء بسرعة قال مسلم :

حمراء صفراء الترائب رأسها   فيه لما نسج المزاج قتير (2)

وله يصفها عند المزج بأنها ترمي بالشرر كالنار المتقدة ، وذلك بغية تأكيده توهج حمرتها وحركتها عند المزج .

كميت رحيق اذا صفقت   أطارت على حافتيها الشرارا (3)

وله صورة طريفة في تمازج الخمر والماء .

كأنها وسنان الماء يقتلها   عقيقة ضحكت في عارض برد . (4)

شخص الشاعر الماء ، وجعله يقذف الخمر بالرمح فيصيبها سنانه ، كما شبهها عند المزج ببرق لامع بين سحاب ذي برد . وهكذا يبدع مسلم في استخراج هذا المعنى ، كما يجيد في الصياغة .

ولا تقل عن هذه الصورة جمالا تلك التي شبه فيها خمره عند المزج بلهب تذكيه ريح الصبا فقال :

كأنها والماء يطلب حلمها   لهب تلاطمه الصبا في مقبس . (5)

واهتم مسلم بن الوليد بالحباب المتصاعد عند اختلاط الخمر بالماء ، ولبياض هذا وصفرة

---

1) ينظر ديوانه : 213
2) نفسه : 122
3) نفسه : 151
4) نفسه : 68
5) نفسه : 108

تليك ،شبّه الفقاقيع التي تعلو سطح الاناء بجنيّ النرجس .

(1)

مزجت ولا وذها الحباب فحاكها   فكأنّ حليتها جنيّ النّرجس

ويسمّي مسلم هذا التّمازج بين الخمر والماء زواجا حيث يقول :

(2)

خرقاء يرعش بعضها من بعضها   لم تتّخذ غير المزاج حليلا

كما يصف خمره بالقوة قبل المزج ،أما اذا مزجت ،فانّها تبتسم ،أي ينتقل لونها الى الصفرة الضاربة الى البياض .

(3)

جهلت فداري جهلها فتبسّمت   عن مشرب لون الشّهولة أفيس

ويفضل مسلم الخمر التي لم تقتل بالمزج كما يبدو من قوله :

(4)

اذا شئتما أن تسقياني مدامة   فلا تقتلاها كلّ ميت محرّم

وهو هنا يشبه حسّانا بن ثابت حين يدعو على ساقيه الذي قدّم له عقارا قتلت مزجا ،ولعلّ مسلما أفاد من بيته الّا أنّه استطاع أن يتجاوزه في ذكره سبب رفض الخمر التي أفرط في مزجها ،فهي مقتولة ،وشاعرنا لا يقرب الحرام .

بينما يفضّل مطيع بن ايّاس الخمر الممزوجة على الصّرف كما جاء في قوله :

(5)

يصرّف ساقينا ويقطب تارة   فياطيبها مقطوبة حين يقطب

ولا شكّ في أنّه أفاد من بيت الأخطل ،بل انّه ينقل الشطر الثّاني من بيته ،ويكتفي بتعويض فعل " قتل " بفعل " قطب " ،وللفعلين - تقريبا - معنى واحد ،فقطب الشراب يعني مزجه ،وقتله يعني الافراط في مزجه .

---

1) الديوان 108
2) نفسه 47
3) نفسه 108
4) نفسه 144
5) الأغاني 13 : 301

اعتمد شعراء الخمر في العصر العباسي - أحيانا - معاني سابقيهم وأفادوا منها .
وغالبا ماكانوا يتجاوزونها ، فقد أبدعوا صورا جديدة في تمازج الخمر والماء .

كما جاء أبو نواس بمعان جديدة في وصف مزج شرابه ، والفقاقيع التي تعلو الاناء عند تمازج الخمر والماء ، الا أن هذا لا يعني أنه لم يفد من معاني سابقيه ، بل أنه اعتمدها ، ونجده أحيانا يعمد الى نقل بعض المعاني كما يبدو من قوله :

فهي بغير المزاج من شرر وهي اذا صفقت من الذهب (1)

وهذا البيت أخذه الشاعر بتغيير بعض ألفاظه من بيت للوليد بن يزيد وصف فيه انتقال لون شرابه من الخمرة الى الصفرة عند المزج .

وشبّه أبو نواس فقاقيع الخمر المتصاعدة عند المزج بلؤلؤ رصّف على قطعة من ذهب ، فقال :

صهباء تبني حبابا كلّما مزجت كأنّه لؤلؤ يتلوه عقيان (2)

ولعلّه أفاد هذا المعنى من سابقيه كأبي الشّيص الذي شبّه حباب خمره الممزوجة بقطرات من لؤلؤ على خيوط من ذهب ، كما قال مسلم بن الوليد في هذا المعنى ، وبيته يفوق بيت النّواسي .

وأولى أبو نواس اهتماما بهذا المعنى ، فكثيرا ماكان يشبّه فقاقيع الخمر باللؤلؤ . (3)

ويرى أبو نواس في هذه الفقاقيع التي تحيط بجوانب الاناء على السّطح اكليلا يطوّق خمره ، قال في وصف ذلك .

اذا شجّها السّاقي بماء رأيتها مكلّلة الأعلى بطوق جمان (4)

وكان مسلم قد سبقه الى هذا المعنى ، حيث جعل من الفقاقيع قلادة تكلّل بها الخمر ، وأجاد في جعل المزاج يرغب في تزيين الخمر فيكلّل كأسها بقلادة . كما قال أبو الشّيص أن الماء ينسج لخمره .

---

1) الدّيوان : 162
2) نفسه : 126
3) ينظر ديوانه : 72 ، 89 ، 100 ، 119 ، 148 ، 158 ، 171 ،
4) نفسه : 85 .

طوقا من ذهب .

وشبّه أبو نواس حبب الخمر بالحلي لصفائها ، وتألقها فقال :

(1)
ترى كأسها عند المزاج كأنّما   نثرت عليها حلي رأس عروس

وشبّهه أيضا بالوشاح في قوله ، من خلال حديثه عن السّاقي :

(2)
يسعى بصفراء ، كالعقيقة في الـ   كأس ، عليها الوشاح من مزن .

ولعلّ الشاعر أفاد من بيت مسلم الذي جعل فيه خمره تتحلّى بالماء وتلبس الزّبد ، الاّ أنّ أبانواس تجاوز هذا المعنى ، في جعله الخمر تنثر عليها الحلي التي تزيّن رأس العروس ، كما طور المعنى في تشبيهه خمره بعروس تتحلّى عند المزج بقلادتين من اللّؤلؤ المنظوم ، الاّ أنّه لا خيط يجمع بين هذه اللآلىء ، ولا مسمار يثبتها الى بعضها ، قال أبو نواس:

عروس خدر من الياقوت تشربها   تكنّ تحت سماها بدر أقمار

تبدو لنا عطلا حتّى اذا مزجت   حلّى لها المزج سمطيّ درّ قسطار

(3)
كأنّه برد في الطّوق منتظم   في غير سلك ، ولم يوثّق بمسمار

كما شبّه خمره بامرأة عاطل ، يلبسها المزاج وشاحا حين قال :

(4)
من قهوة جاءتك قبل مزاجها   عطلا ، فألبسها المزاج وشاحا

أمّا عن طبيعة الماء الذي يمازج خمر أبي نواس ، فهو يمزجها بماء السّحاب الصّافي ، كما يبدو من قوله :

(5)
وخذها ان شربت وميض برق   بماء المزن من نطف الغيوم

فالشّاعر هنا يجري وراء تقليد سلفه من شعراء الجاهلية الذين تفنّنوا بريق الغمام ،

---

1) الدّيوان : 99
2) نفسه : 196
3) نفسه : 151
4) نفسه : 2
5) نفسه : 144

وماء المزن الذي إتخذوه مزاجا لخمرهم ـ كما تقدم ـ . بينما عمد أبو نواس الى ذكر ماء المطر الذي يمزج به خمره بجريان ماء تقليد المعنى وذلك لأنّ بيئتنا تختلف عن البادية التي حلّ المطر لتدفّق أنهارها وتعدّد آبارها .

ويذكر أبو نواس أنّه يتناول الخمر المشعشعة بالماء البارد العذب .

(1)

فبتّ أسقى ومن كلفت بـــه مدامة صفّقت بسلســـال

ونلاحظ من قول أبي نواس أنّ النّاس في عصره حافظوا على صفات الماء الذي كانت تمزج به الخمر الجاهلية ، إذ طالما نوّه الجاهليون ببرودة الماء الذي يتّخذونه لمزج الخمر ، كما تفنّنوا بعذوبته .

ويمزج أبو نواس خمره بماء الفرات أيضا كما جاء في قولــه :

فهي اذا شجّت على العـــلا ت

بـبارد المـاء مـن الفـــرات

تخال فيها ألســن الحيّـــا ت

(2)

را أو وقد نيران على الجاقـــا ت

وكونه يمزج خمره بماء الفرات ، فذلك مايذكرنا بالأعشى هو أيضا حين صفّق شرابـــه بمــاء الفـــرات .

وجاء في قول أبي نواس أنّه يمزج خمره بمـــاء النّيـــل .

(3)

وصفّقوها بماء النّيل اذ برزت في قد ر قسّ كجنوف الجبّ روحـــاء

وتعرّض أبو نواس الى تأثير الماء في لون الخمر عند المزج ، فوصف انتقال لونها من الحمرة الى الصّفرة في قولـــه :

(4)

حمراء تصفرّ اذا شعشعــت ألطف في الشّارب من روحـــه

1) الديـــوان : 142

2) نفســـه : 166

3) نفســـه : 35

4) نفســـه : 226

ونلاحظ أنّه اكتفى بالاشارة الى الصفرة التي تشوب شرابه بعد المزج ، حيث يفقد حمرته ، فجاء معناه تقريريا ، فهو لم يبلغ جودة قول مسلم في وصفه تأثير الماء في لون شرابه ، حين جعله يكتسي ثوب النّرجس بعد اكتسائه ثوب الشّقائق ـ كما تقدم ـ . أو في وصف شرابه بأنّه ياقوتة تتحوّل الى ورس بعد المزج . كما شبّه خمره بدم الغزال قبل المزج ، أمّا بعده فهي ماء الذّهب .

ولأبي نواس في انتقال لون خمره عند المزج من الصفرة الى البياض قوله :

صفراء قبل المزج ، بيضاء بعده   كأنّ شعاع الشّمس يلقاك دونها (1)

فهو يذكر أنّ خمره تنتقل من الصّفرة الى البياض لممازجة الماء لها ، فيشبّهها بشعاع الشّمس ، وهذا معنى تداوله الشّعراء منذ الأعشى الذي شبّه خمره المتألّقة بقرن الشّمس . (2)

ويشير أبو نواس الى صفاء خمره عند المزج في قوله :

صفراء ما تركت ، زرقاء ان مزجت   تسمو بحظين من حسن ، ولألاء (3)

ويشبّهها عند المزج لتألّقها بشهاب نار يلوح في الظلام

كأنّها والمزاج يقرعها   شهاب دجن يلوح قدّامي (4)

كما يشبّهها بنار متوهّجة اللّهب عندما يصبّ عليها الماء .

كأنّها ولسان الماء يقرعها   نار تأجّج في آجام قصباء (5)

ولعلّ أبا نواس أفاد معناه هذا من بيت مسلم بن الوليد ، ولم يبلغ درجته في الجودة حين شبّه خمره بلهب تذكيه ريح الصّبا ، فيتمايل لسانه . فمسلم شبّه خمره بهذا

---

1) الديوان 20
2) ينظر ديوان الأعشى : 135
3) الدّيوان : 34
4) نفسه : 24
5) نفسه : 36 .

اللّهب لحمرتها ، وحركتها عند افراغ الماء عليها .

كما شبّه أبو نواس خمره بشهاب نار يحترق في الجوّ ، الّا أنّه لم يتمكّن من تجاوز معنى مسلم بن الوليد ، قال أبو نواس :

كأنّها والمزاج يقرعها شهاب نار في الجوّ يحترق (1)

وقال مشبّها حمرة شرابه عند المزج بالعقيقة .

شمول اذا شجّت تقول عقيقة تنافس فيها السّوم بين تجار (2)

ويعدّ مهلهل بن يموت بن المزرّع هذا البيت من سرقات الشّاعر ، ويذكر أنّه أخذه من قول بعض بني قشير .

كأنّما ريقتها بعد الكرى لطيمة غالى بها مستامها (3)

فالشّاعر هنا يشبّه ريق التي يتغزّل فيها بالمسك الذي يغالي به صاحبه لجودة طيبه ، بينما أكّد أبو نواس في بيته توهّج حمرة شرابه عند المزج ، فشبّهها بالعقيقة ، ثم يذكر تنافس التّجار عليه عند البيع ، وذلك لتأكيد جودة خمره . ولا نجد ما يؤكد اعتماد أبي نواس معنى هذا البيت ، سوى ما كان من أمر الغلاء والنّفاسة . ولو جعله ابن المزرّع يعتمد معنى مسلم في تشبيهه حمرة شرابه عند المزج بالعقيقة ، لكان أفضل فيما يبدو .

ويعتبر أبو نواس هذا التّمازج بين الماء والخمر زواجا حيث يقول :

وخذها ان شربت وميض برق بماء المزن من نطف الغيوم

لتجعل هذه عرسا لهذا فانّ القطر بعل للكروم (4)

---

1) الدّيوان : 54

2) سرقات أبي نواس 74 ، البيت غير موجود بالدّيوان .

3) نفسه

4) الدّيوان : 144 .

وله أيضا في هذا المعنى قوله :

خندريس كأنّها كلّ طيب ، زوّجوها ، وليس تهوى الزّواجا . (1)

ولعلّه أفاد معناه هذا من بيت مسلم بن الوليد الذي قال أنّ خمره لم تتّخذ لها زوجا غير الماء . الاّ أنّ أبا نواس يتجاوز هذا المعنى حين يصف خمره بأنّها نتيجة لزواج تمّ بين القطر والكرم . كما طور هذا المعنى حين جعل الخمر بكرا يفتضّها الماء .

حمراء ، ملّقها بالماء شاربها تفتضّ عذرتها في بطن رحراح (2)

وكغيره من شعراء الخمر ، اهتمّ أبو نواس بالحبب الذي يتكون عند تمازج الخمر والماء ، فشبّهه بجراد ينزو كالفرس الجامح .

وكأنّ فيها من جناد بها فرسا اذا سكّنته رمحا (3)

ويذكر مهلهل بن يموت بن المزرع أنّه أفاد هذا المعنى من غيره ، بل انّه سرقه من بيت حسّان (4) الذي يقول فيه :

بزجاجة رقصت بما في قعرها رقص القلوص براكب مستعجل (5)

فالمقصود من قول حسّان ، وصف حركة الزّجاجة ، وبالتّالي تحرّك الخمر التي تحتويها هذه الزّجاجة . فاهتزاز الخمر نتيجة حتمية لتحرّك الزّجاجة . ويصف الشّاعر صورة مشابهة لما يراه ، انصرف اليها ذهنه ، حيث يشبّه الشّراب الذي يهتزّ لحركة الزّجاجة ، باهتزاز راكب مستعجل على ناقة شابة نجيبة يستحثّها على السّير . بينما قصد أبو نواس ـ في قوله ـ حركة الحبب المتصاعد عند المزج ، فشبّه الفقاقيع التي تتسابق لتتفرقع على السّطح بالجراد ، كما جعلها ـ لاستمرارها في الحركة ـ كالفرس

---

1) الدّيوان 163
2) نفسه 214
3) نفسه 60
4) ينظر سرقات أبي نواس 79 .
5) الدّيوان : 73 .

الجامح الذي لا يهدأ ولا يسكن .

اذن فهناك فرق بين المعنيين ، وبهذا يمكن أن نبرّئ النّواسي من سرقة هذا المعنى .

كما يرى مهلهل بن المزرّع أنّ أبا نواس أفاد من بيت حسّان وأخذ معناه فقال : (1)

تلعب لعب السّراب في قدح إلـ ـقوم اذا ما حبابها اتّصلا (2)

ولا نظنه أفاد من بيت حسّان ـ هنا أيضا ـ ذلك لأنّ حسّانا يصف في هذا البيت تلألؤ الخمر عند المزج حين تتصاعد فقاقيعها ، فشبّهها بلمعان السّراب لذلك .

ولا نجد صلة تربط بين هذا المعنى ، ومعنى بيت أبي نواس .

ويشبّه أبو نواس آثار الحبب على سطح الاناء بعد سكونه برأس دبّ اليه الشّيب فأصاب بعضا من شعراته .

كأنّ بقايا ما عفا من حبابها تفاريق شيب في سواد عذار (3)

ويرى بعض الدّارسين أنّه أخذ هذا المعنى من الفرزدق حين قال : (4)

تفاريق شيب في الشّباب لوامع وما حسن ليل ليس فيه نجوم (5)

ويعلق بدوي طبانة على أنّ البيتين يتساويان في الجودة في التّعبير ، بينما أساء أبو نواس في أخذه "تفاريق شيب" ، في حين امتاز بيت الفرزدق بزيادة معنى الشّطر الثّاني من البيت .

---

1) سرقات أبي نواس : 80
2) الدّيوان : 293 .
3) سرقات أبي نواس 188 ، البيت غير موجود بالدّيوان .
4) بدوي طبانة ينظر كتابه السّرقات الأدبية 188 - 189 .
5) السّرقات الأدبيه 189 ، لم أعثر على هذا البيت بديوان الفرزدق .

ولا أجد البيتين يتفقان الا في لفظة " تفاريق شيب " ، وان قصد به الفرزدق بياض الشعر ، فان أبا نواس يستعمل الشيب مجازا ليصف آثار الحبب البيضاء على سطح اناء الخمر . وقد شبه مسلم بن الوليد أثر الحبب بالقتير ، وهو أول الشيب . ولو اتهم أبو نواس بالافادة من معنى مسلم والاعتماد عليه لكان أقرب الى الصواب .

كما يرى بعض الدارسين (1) أن بيت أبي نواس الذي شبه فيه فقاقيع خمره بالدر فقال :

كأن صغرى ، وكبرى فواقعها حصباء در على أرض من الذهب (2)

يشبه في معناه بيت عدي بن زيد العبادي الذي شبه فيه فقاقيع الخمر بالدر. (3)

وهذا التشبيه طالما ورد عند شعراء الخمر ، الا أن النواسي - وان كان ربما قد أفاد من معنى عدي كما أفاد من معاني غيره - ، فانه يتجاوزه حين يشبه خمره بأرض من ذهب تناثرت عليها حصى كبيرة وصغيرة من الدر .

ويعتبر الجرجاني هذا البيت من جيد شعر أبي نواس. (4) ويشبه أبو نواس حبب خمره بعيون الحيتان وذلك في قوله :

وكأن للذهب المذوب بكأسها بحرا يجيش بأعين الحيتان (5)

كما شبهه بعيون اليعاسيب حين قال :

كأن أحداقها ، والماء يقرعها في ساحة الكأس أحداق اليعاسيب (6)

ويرى أبو نواس أن هذه الفقاقيع المستديرة التي تعلو اناء الخمر عيون ، الا أنها عيون لا جفون لها .

---

1) طه حسين ، ينظر كتابه حديث الأربعاء 2 : 73
2) الديـان : 72
3) ورد في حديث الأربعاء تشبيه الفقاقيع بحصباء من الدر ، وشبهت في الديوان بالياقوت الأحمر .
4) ينظر كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه : 56
5) الديوان : 195
6) نفسه : 76.

ثم شجّت فأبدت فوقها مثل العيون
حدقا ترنو الينا لم تحجّر بجفون (1)

وعلى أنّ الشاعر أجاد في صياغة هذا المعنى، الا أنّه لم يبدع فيه، ذلك لأنّ حارثة بن بدر سبقه اليه حين أوحت له فقاقيع شرابه بعيون الجنادب .

فالنّواسي أفاد من معنى حارثة، واكتفى بتعويض عيون الجنادب بعيون الحيتان ، كما استطاع أن يسمو بالمعنى حين جعل هذه الفقاقيع ترنو الى الشرب، كأنّها عيون، الا أنها عيون بغير جفون ، وبهذا تجاوز مجرّد الوقوف عند تشبيه الحبيب بالعيون .

وجعل أبو نواس خمره تبتسم عند المزج فقال :

اذا جرى الماء في جوانبها هيّج منها كوامن الشّغب
فاضطربت تحته تزاحمه ، ثمّ تناهت تفترّ عن حبب (2)

فالماء يهيج الخمر عندما يصبّ عليها ، فيصدر عنها مايشبه الشرر ، لكنّها سرعان ما تمتزج به ، فتبتسم عند انتقالها من كميت الى صهباء . وهذا المعنى كان قد ورد عند مسلم بن الوليد .

ويسمو أبو نواس بهذا المعنى ، حين يصف حسن ابتسامة خمره عندما يضحكها المزج :

اذا علاها المزاج أضحكها عن اللآلي بحسن مبتسم (3)

وان اعتمد شاعرنا معاني سابقيه في وصف الحبب - كما تقدم - فانّه جاء بمعان طريفة وفق فيها ، فقد كان " أحبّ منظر الى أبي نواس منظر الخمر حين يشجّها

---

1) الدّيوان 70
2) نفسه 162
3) نفسه 189

الماء فتثور وتشغب وتعلوها فقاقيع الحبب وله في ذلك بدائع أوصاف لا آخر لها، (1) كوصفه حركة الفقاقيع عند تفرقعها على سطح الاناء بنبال ترمي وجوه النّدامى ، لكن دون أن تشجّها أوتدميها .

فرمت أوجه النّدامى بنبل ليس يدمي ، وليس يبدي شجاجا (2)

كما شبّهها بجنود ترمي بالنّبال :

كأنّ تركا صفوفا في جوانبها تواتر الرّمي بالنّشاب من كثب (3)

ويصف تواتر انفجار الفقاقيع بقوله :

ترمي الحباب بمثله صعدا دقّت مسالكها عن الحسّ . (4)

فهذه الخمر تقذف الحباب بمثله دون أن تحدث صوتا ، ذلك لأنّ الفقاقيع تكون في حركة متوالية ، فكلّما تفرقعت احداها ، تركت مكانها لأخرى تعلوه ، ثمّ تتفرقع بدورها .

وجعل أبو نواس من هذه الفقاقيع التي تتصاعد وتتفرقع على السّطح جرادا ينزو ، وذلك حين قال :

تنزو جنادبها في وجه شاربها مثل الدّبى هاجه طشّ بقيعان (5)

وقال مشبّها الفقاقيع بذيول تتبع الخمر .

تنزو فواقعها منها اذا مزجت نزو الجنادب من مرج وأفياء
لها ذيول من العقيان ، تتبعها في الشّرق والغرب في نور وظلماء (6)

---

1) ألحان الحان : 179
2) الدّيوان : 163
3) نفسه : 72
4) نفسه : 215
5) نفسه : 114
6) نفسه : 34

ولعلّ جميل سعيد كان موفقا حين قال عن هذين البيتين بأنّ الشّعراء مهما قالوا في حبب الكأس قبل أبي نواس ،فانّ واحدا منهم لم يبلغ جودة هذا المعنى ،(1)

كما أبدع الشاعر في تشبيهه هذه الفقاقيع عند انفجارها بألسنة الحيات .

ويبدي لنا من جوفها مسّ مزجها كألسنة الحيّات تبدو من الذّعر ا(2)

كما يبدع أبو نواس في وصف حركة الحبب ،وله في وصف " الخمر المرغية من حركة في القدح عند صبّها فيه ،ومن فوران ورمي بالحبب عند المزج ،طرائف من شعره لم يسبق الاّ في الأقلّ ايرادها والاستشهاد بها "(3) قال أبو نواس مشبّهها الخمر التي تضطرب عند ممازجة الماء لها بجان أفزعته شهب رجم بها .

كأنّها عند مسّ الماء من جزع والماء يجزع منها شبه فرّار
في حلبة الحان جان خلفه شهب مبادر راعه شخص بانفار
والكأس تمسكها من أن تراع وفما تنفك فيها باقبال وادبار(4)

وقال يصف الفقاقيع ، وهي تتوالى متصاعدة الى السّطح :

من قهوة مزّة مشعشعة ترى لها عند مزجها حببا
مما وتترى اذا حبا أوّل منهنّ وطّا لا خر فحبا(5)

ويعمد الشّاعر الى تشبيه شرابه حين يغطي سطحه حباب المزج بجلد حية شديدة البياض، ونلاحظ هنا أنّ الشاعر قد أهمل الجانب النّفسي ،وذلك لأنّ جلد الحيّة منظر لا يسرّ النّاظر اليه . قال أبو نواس :

كأنّما حقّ من قرارها بطوقها جلد حيّة يقق(6)
الى

1) ينظر تداور الخمريات من العصر الجاهلي الى عصر أبي نواس : 237 .
2) الدّيوان : 123 .
3) ألحان الحان : 234
4) الدّيوان : 151
5) نفسه : 51
6) نفسه : 54

كما شبّه سطح شرابه أيضا بجلد الثعبان وجلد الأفعى .

كأنّ مازجها بالماء طوّقها منزوع جلدة ثعبان وأفعاء (1)

وقال في وصف الحبب :

صفراء ، تضحك عند المزج من شغب كأنّ أعينها أنصاف أجراس (2)

وفي هذا البيت معنى طريف في تشبيه الفقاقيع عند المزج بأنصاف الأجراس .

واهتمّ أبو نواس بآثار الحبب الذي يبقى على سطح الاناء بعد تفجّر الفقاقيع ـ بينما وقف سابقوه عند وصف الحبب ـ فشبّهها ببقايا حروف كتبت بالخطّ الفارسي .

كأنّ سطورا فوقها فارسية تكاد وان طال الزمان تبين (3)

وأحيانا يرى الشاعر أنّ هذه الآثار تكون غامضة فكأنّها خطوط خلّفتها أكارع النّمل ، لا نقاط عليها ولا حركات .

حتّى اذا سكنت جوا نحها كتبت بمثل أكارع النّمل

خطّين من شتّى ، ومجتمع غفل من الاعجام والشّكل (4)

وقد نوّه الجرجاني بهذا المعنى ، واعتبر هذين البيتين من جيّد شعر أبي نواس (5) .

وعلى أنّ أبا نواس كان مقلّدا في تشبيه الخمر بالذّهب واللؤلؤ عند المزج ، الاّ أنّه استطاع أن يتجاوز هذه التّشابيه ، وأبدع حين جعلها ـ لتألّقها ـ في درجة النّجوم المنيرة .

اذا قهرت بالماء راق شعاعها عيون النّدامى ، واستمرّ بها الأمر

---

1) الدّيوان 36 .
2) نفسه 159
3) نفسه : 69
4) نفسه : 43
وله في هذا المعنى أيضا :
ثمّ شجّت فأدارت فوقها طوقا فدارا
كاقتران الدّرّ بالدّرّ صغارا وكبارا
فاذا ما اعترضته العين من حيث استدارا
خلتّه في جنبات الكأس واوات صغارا
5) ينظر الوساطة بين المتنبّي وخصومه : 56

وضاء من الحلي المضاعف فوقها بدور ، ومرجان تألّفه الشّذر
كأنّ نجوم اللّيل فيها رواكد أقمن على التّأليف ، آنسها البدر (1)

كما جعلها لتألّقها عند المزج في مرتبة الشّمس والبدر اذ قال :

كأنّها الشمس اذا صفّقت مسكنها الكبش أو الحوت
أو دارة البدر اذا ما استوى وتمّ للمدّ المواقيت (2)

ويرى النّواسي أن وميض خمره عند المزج يشبه لمع البرق .

تبدي الشّموس اذا ما الماء خالطها شعاع نور كلمح البرق لمّاح (3)

ويذكر أبو نواس أنّ الماء على ما فيه من رقة ، فانّه يثقل على الخمر عند المزج لأنّها كالخيال ، فيبالغ في وصف خمره ، ويجعلها لا تمازج الماء بسرعة لثقله على ممازجتها .

يجفو الماء عنها في المزاج لأنّها خيال ، لها بين المظام دبيب (4)

ويرى أبو نواس أنّ الماء يؤذي خمره ، حيث يشّج جبينها ، فهي تصدر أنينا عند المزج لما تشعر به من ألم فيخاطب الشّاعر مازجها قائلا :

أأدميت بالماء القراح جبينها لتسمع في صحن الزّجاج أنينها
فقد سمعت أذناك عند مزاجها أنينا وألحانا تجيب دنينها
فصنها عن الماء الوباء ، وهاتها فانّك أن لم تسقني مت دونها (5)

وبهذا يجيد النّواسي في استجلاء هذا المعنى الطّريف ، ويطالب بصرف الخمر ، فالماء دنس لها يجب أن تصان منه .

---

1) الدّيوان : 100 - 101
2) نفسه : 74
3) نفسه : 214
4) نفسه : 110
5) نفسه : 138

اسقني صهباء صرفا لم تدنّس بمزاج (1)

لقد أولى أبو نواس اهتماما كبيرا بخمرة عند مزجها ،فوقف طويلا - في خمرياته - عند وصف طبيعة الماء الذي يمازجها ،كما اهتمّ بلمعانها ،وتأثير الماء في لونها ،وتعرض للحبب الذي يعلو سطح الاناء عند صبّ الماء عليها .

ولا نجد أبا نواس مقلّدا الاّ في بعض معانيه ،كتشبيهه الخمر بالشّرر قبل المزج ،وبالذهب بعده ،أو تشبيهه فقاقيع الخمر بطوق من اللّؤلؤ يكلّلها به الماء عند المزج .

وعلى أنّ شعراء الخمر في العصرين الأموي والعبّاسي أبدعوا معاني طريفة في وصف تمازج الخمر والماء ،الاّ أنّ النّواسي لم يقف عند اعادة صياغة هذه المعاني ،بل انّه أفاد منها وتجاوزها . ونذكر على سبيل المثال هذا المعنى الذي تردّد كثيرا في الخمريات العبّاسية ،وهو تشبيه الحبب بلآلئ انتظمت في خيط من ذهب . ولا نستبعد أن يكون النواسي قد أفاد من هذا المعنى ،فوصف الماء بأنّه يلبس خمره وشاحا ،كما وصف خمره بأنّها تتحلّى بقلادتين من لؤلؤ متراصفة حبّاته ،وليس ثمّة خيط ينتظمها ،أو مسمار يثبتها الى بعضها .

كما أنّ تشبيه الحبب بعيون الجنادب أوحى له بأن يشبّهه بعيون اليعاسيب والحيتان ،ونجد أبا نواس يرتفع بهذا المعنى حين يصف فقاقيع خمره بعيون لا جفون لها .

ولأبي نواس معان طريفة في وصف مزج الخمر لم يتوصّل اليها سابقوه من الشّعراء . فعلى كثرة ما قالوه في الحبب ،فانّنا لم نعثر على تشبيههم له بجلد الحيّة

---

1) الدّيوان : 58 .

أو الأفعى كما ورد عند أبي نواس . كما أنه لم يغفل حركة الحبب عند صب الماء على الخمر ،فقال بأنها تقاوم الماء كالفرس الجموح ،كما شبه الفقاقيع عند تفرقعها بصغار جراد اهاجه طش بأرض منبسطة ،وفي معنى آخر جعلها نبالا ترمي بها الخمر وجوه شاربيها ،الا أن هذه النبال لا تدمي ولا تشج الندامى .

ولتملق الشاعر بخمره ،نجده دقيقا في تأملها عند المزج حتى بعد سكون حركة حببها ،فيصف آثاره بحروف فارسية ،أو هي حروف كتبت بأكارع النمل ،خالية من النقاط والحركات كما شبهها بواوات صغيرة .

وتبدو لنا شدة تعلق أبي نواس بالخمر ،في كونه يشخصها ويضفي عليها من أحاسيسه ،حيث يجعلها تكابد الألم ،فتئن عند المزج . وعلى أن النواسي وصف جمال خمره عند المزج ،الا أنه يرى أن الماء الصافي العذب يدنس الخمر عند ما يمازجها ،فراح يطالب بصيانتها عنه .

ونستنتج من خلال هذه الأوصاف الطريفة للخمر عند مزجها مدى اهتمامه بملاحظتها ،ودقته في وصفها .

تأثير الخمر وأوقات شربها :

رغم أنّ الاسلام حرّم الخمر وذكر أنّ اثمها أكبر من نفعها ،الا أنّ أصحابها ظلّوا يؤكّدون منافعها ،فهي - حسب زعمهم - تفيد جسم الشارب ،لأنّها تذرّ فيه الدّم وتصفّيه ،كما أنّها تدفع الهموم ،وتبعث السرور في النّفس ،كما تكسب شاربها الشجاعة والكرم .

وسئل الحارث بن كلدة طبيب العرب عن رأيه في الطلاء ،فقال : " مصحّة للبدن ، مطيّبة للنّفس ،تفتح له العروق أفواهها ،كما تفتح الفراخ أفواهها للزّق " .(1)

كما أنّ الخمر تنعش الجسم وتدفئه ،كما جاء في قول بعض الفلاسفة " ما ماء المطر في الزرع عند الحاجة ،بأنفع من النّبيذ في البدن لمن اقتصر عليه ،وما الفنك(2) والسّمور(3) بأدفأ منه للمقرور ".(4)

ويرى جالينوس(5) أنّ الشّراب الأسود " اذا كان حلوا غليظا فانّه يولّد دما غليظا لا سيما اذا كانت علّة البطن والمعدة من مزاج حار ".(6)

وقيل " الخمر تذرّ الدّم وتقوي المنّة(7) وتصفّي اللّون ".(8)

1) المختار من قطب السرور : 75

2) الفنك = دابة يفترى جلدها أي يلبس جلدها فروا (اللسان مادة فنك)

3) السّمّور = حيوان برّي يتخذ من جلده فراء ثمينة للينها وخفتها ودفائها وحسنها (محيط المحيط مادة :سمر)

4) المختار من قطب السرور : 74

5) خاتمة الأطبّاء والمعلّمين ،ولد سنة 5؟ م .

6) المختار من قطب السرور : 50

7) المنّة : القوّة (لسان العرب مادّة : منن)

8) الأشربة : 35 .

وكان أحد قدماء الأطبّاء يسقي العليل الضعيف الخمر الريحانية الممزوجة ،فاذا قوي قليلاً ،عالجه بالدّواء.(1)

ومما جاء في منافع الخمر أيضا ،أنها تفيد الحواس ، وتنعش النّفس ،فأمّا ماء الكرم فهو ريحانة النّفس وترياقها ،يشرب في كلّ حين ،وينفع كلّ قوّة وحاسّة ، وتحيد عنه النّوازل والأحزان ،وتنعش بنكهته النّفوس والأبدان . وحقّ للنّفس أن تألفه ،وللطبيعة أن تلائمه ،اذا كان حبيبها وشقيق الدّم وصديق الرّوح.(2)

ولعلّ من أهمّ فوائد الخمر ،لدى شاربيها ،أنها تخلّص محتسيها من ألم الخمار ،وتشفيه من الصّداع الذي ينتابه عند الصّحو ،فقالت الفرس في ذلك " بالخمر يدفع الخمار ، ووافقتهم العرب في ذلك ".(3)

ويذكر أصحاب الخمر ألّا مايزيدهم تعلّقا بخمرهم ،تبديدها للأحزان ،وتوليدها الشّعور بالمرح ، وقال بعض الحكماء في ذلك : " كما أنّ التّرمس المرّ اذا نقع في الماء صار حلوا ،كذلك الشّراب يذهب بمرارة النّفس وحزنها ".(4) وقال بعض حكماء اليونان : " الخمر لا يحلّ الهمّ حيث حلّت ،ولا ينزل الغمّ حيث نزلت"(5) ،فالخمر " تبعث النّشاط وتفتق اللّسان ما أخذ منها بقدر الحاجة ".(6)

وحاول بعض الفلاسفة لمس الأسباب التي تجعل من الخمر شرابا منشّطا وباعثا على السّرور ،فزعموا " أنّ الذي يذهب الهمّ ،ويطيّب النّفس عند تناول الشّراب ،هو أنّه يبسط دم القلب الغريزي في البدن ،فيكون من ذلك الفرح والسرور والنّشاط ".(7)

---

1) ينظر الأشربة 35 - 36
2) المختار من قطب السرور 72 - 73 .
3) نفسه : 73
4) نفسه : 51
5) نفسه : 53
6) الأشربة : 35
7) المختار من قطب السرور : 75

أمّا أفلاطون فيرى " أنّ النّبيذ يثمر السرور ، ويولّد الضّحك ، ويطيّب النّفس لشبهه بالدّم ، وأنّه يفعل في الأجساد اذا أعدل فعله لأنّه أحمر حارّ رطب ، فاذا صحّ جوهره وكثرت أجزاؤه ولّد في النّاس السرور والضّحك . والنّشاط . ولذلك تجد الصّبيان أنشط وأكثر حركة وأجدر أن يضحكوا وهم أطفال رضع من غير عجب ، وليس ذلك الاّ بكرم طبع الدّم ، والشّراب يجري هذا المجرى ".(1)

وأطلق العرب على الخمر أسماء تناسب مفعولها ، فأسموها الدّرياقة(2) ، والمسلّية(3) والمنسّية(4) .

وشاعت عن الخمر أقوال في وصف دفعها للهموم والأحزان ، وبعثها للسرور والمرح في نفس محتسيها(5) .

ومن الفوائد التي نسبت للخمر ، أنّها تجعل من شاربها شجاعا كريما ، قال بعض الفلاسفة في الشّراب أنّه " يجلو الهموم على القلوب ، ويستدرّ الجود من البخيل ، والعطف من القاسي ، ويشجّع قلب الجبّان ، ويزيد الشجاع شجاعة "(6) .

---

1) المختار من قطب السّرور - 81 - 82 .
2) والدّرياق نافع من السّمّ ، ينظر المختار من قطب السرور 34
3) لأنّها تسلّي الفؤاد عن الأحزان ينظر نفسه 44
4) لأنّها تنسّي الهموم والأحزان ينظر نفسه
5) ومن ذلك قول بعض الحكماء " شرب الراح كيمياء الأفراح " ولهم أيضا " النبيذ يردّ الشيوخ الى طبائع الشّباب ، والشبّان الى طبائع الصبيان " . وقال محمد بن عبد الله بن طاهر " الخمر مفتاح السرور " عن المختار من قطب السرور 75 .
6) المختار من قطب السرور 51 وأدب النّدماء : 4

وكان الرجل في الجاهلية يستعين على أمر عظيم يقدم عليه بشرب الخمر وسماع الغناء و " كذلك فعل أحيحة بن الجُلاح حينما نوى الهرب من تبّع ، وكذلك فعلت قريش حينما ذهبت لحرب الرسول صلى الله عليه وسلّم ، يوم بدر ، وكذلك فعل عامر بن مالك حينما همّ بقتل نفسه ."[1] كما " اصطبحها قوم من المسلمين يوم بدر قبل أن ينزل تحريمها ."[2]

واذا تصفّحنا الخمريات الجاهلية ، وجدنا الشاعر الجاهلي يصف النّشوة التي تعتريه اثر احتسائه كؤوس المدام . ويذكر الأعشى أنّ الشارب يبلغ من الانتشاء مايجعله يشعر بالخيلاء وكأنه ملك .

من قهوة دينّة ببابل حقبة ... تدع الفتى ملكا أغرّ متوّجا (3)

ويخيّل للشارب وهو تحت تأثير الخمر ، أنه يملك الدنيا وما فيها ولا يدرك حقيقة أمره الا عند الصّحو .

قال طفيل بن عبد الله الغنوي يصف ما أوهمته به الخمر .

شربنا من المصطار حتّى كأنّنا ... ملوك لنابرّ العراقين والبحر

فلمّا بدت شمس النّهار رأيتنا ... تولّى الغنى عنّا وعاودنا الفقر (4)

ويذكر عديّ بن زيد العبّادي أنّ الخمر تجعل الشّيخ عند انتشائه يطرب ويتمايل ويهتزّ .

وشراب خسروانيّ اذا ... ذاقه الشّيخ تغنّى وارجحن . (5)

---

1) القيان والغناء : 112
2) الأشربة : 38
3) الدّيوان : 238
4) المختار من قطب السّرور : 119
5) الدّيوان : 172

ومن فضائل الخمر التي تغنّى بها الشّعراء ، أنّها تدفع بشاربها البخيل الى الجود والكرم . قال عنترة :

فاذا شربت فانّني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
واذا صحوت فما أقصّر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرّمي (1)

ذكر الشّاعر بذله للمال عند الشرب ، ثمّ استدرك أنّ الكرم من شيمه ومن طباعه .

ويفضّل المرزباني في هذا المعنى قول زهير .

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنّه قد يهلك المال نائله

ويقول فيه : " فهذا من أحسن الكلام يريد أنّه لا يشرب ماله الخمر ولكنّه يبذله للحمد ".(2)

وقال حسّان بن ثابت يمدح شجاعة قومه عند السّكر :

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدا ما ينهنهنا اللّقاء (3)

ويفضّل المرزباني على هذا البيت قول طرفة :

أسد غيل فاذا ما شربوا وهبوا كلّ أمون وطمر (4)

ومن فوائد الخمر التي تغنّى بها الأعشى ، تخليصها الشارب من الخمار ، فهي تشفيه من الصّداع الذي يعتريه من سورتها ، فيلجأ اليها المخمور ثانية للتّخلّص من خمارها ، فقال أنّه يتداوى منها بها .

---

1) شرح المعلّقات السّبع : 157 - 158

2) الموشّح : 58

3) الدّيوان : 60

4) الموشّح : 58 ، هكذا ورد البيت في الموشّح ، وجاء في الدّيوان :

فاذا ما شربوها وانتشوا وهبوا كلّ أمون وطمر

وكأس شربت على لـــــذة وأخرى تداويت منهـــا بهــــا

لكي يعلم النّـــاس أنّي امرؤ أتيـــت المعيشـــة مـــــن بابهـــا (1)

" وهذا بعينه مايقرّره المحدثون من أصحاب البحوث الطبيّة في الخمر وتأثيرها ، فقد ثبت لهم أنّ ظاهرة ارتعاش اليدين عند المدمنين تكون على أشدّ هـــا في الصّباح وأنّها تسكن بعد ذلك بعض الوقت اذا اصطبحوا من الخمر بالقـــدر اليســـير ". (2)

ووصـــف القلمّــس بن الفيّاض الخمر بأنّها تحيي النّفــس ، وذلك في قولـــه :

أروّي بها نفسـي فتحيا بشربها ولا أشتهـي شـرب النّبيذ مـن الخمر (3)

ويكون للخمر تأثير في بصـر شاربها ، فيقـوم من مجلس الشّراب وهو لا يقـوى على النّظـر ، قال الأعشـــى :

فقلت للشّرب في درنى وقد ثملوا شيموا وكيـــف يشيم الشّارب الثّمـــل (4)

ويفقد الشارب القدرة على التمييـز بين الأشكال والألوان ، قال الأعشـى :

شربت الرّاح بالقلتين حـــتّى حسبـــت دجاجـة مـرّت حمـــارا (5)

وذلك لأنّ شارب الخمر كلّما اشتدّ بـه السّكر ، ضعفت حواسّه ، فيختلّ ضبطها للمرئيات ، فلا يحقق الأشياء ، ولا يثبت شيء عنده على صورة أو وضع ، وقد يرى الشيء الواحد شيئـــين . (6)

---

1) الدّيـوان : 121

2) ألحـــان الحـــان : 142

3) المختار من قطب السرور : 115

4) الدّيـــوان : 44

5) نفســـه 241 . ومثله قول امرئ القيـــس :

ونشـرب حتّى نحسب الخيل حولنا نقادا وحتّى نحسب الجـون أشقرا

6) ألحـان الحـان : 143

كما يكون للخمر تأثير في كلام شاربها ، " فترى السّكران - وقد ثقل منه اللّسان وعسر عليه خروج الكلام - يردّد الكلمة في فيه ، ولا ينطق بالعبارات بعضها في اثر بعض ، وانّما كلامه لجلجة وتعتعة وتمتمة وفأفأة ". (1)

وجاء في قول امرئ القيس :

وكأنّ شاربها أصاب لسانه موم يخالط جسمه بسقام (2)

كما أنّ شارب الخمر لا يستطيع المشي ، فيجرّ رجليه ويمشي مشية غير متساوية وكأنّه أعرج ، قال الأعشى :

فترى الشّرب نشاوى كلّهم مثل ما مدّت نصاحات الرّبح

بين مغلوب كريم خدّه وخذول الرّجل من غير كسح (3)

فأثر الخمر يبدو في حركة الشّارب ، ويكون " أشدّ الظهور في مشية السّكران ، فتراه تختلف منه عند المشي الرّجلان ، منجكبا برأسه الى الأمام ظاهر الميلان ". (4)

ويذكر الأعشى أنّه يشعر بدوار وصداع في رأسه لمّا يحتسي كؤوس المدام .

حتّى اذا أخذت مآخذها تمشّت في استداره (5)

ويصف الأعشى دبيب الخمر الذي يسري في جسم شاربها بقوله :

تكاد تنسّي ولما تذق وتغشي المفاصل افتارها

تدبّ لها فترة في العظام وتغشي الذّوابة فوّارها (6)

---

1) ألحان الحان : 138
2) الدّيوان : 163
3) الدّيوان : 163
4) ألحان الحان : 137
5) الدّيوان : 113
6) نفسه : 214

ويأتي حسّان بن ثابت بصورة جميلة لوصف سريان الخمر في جسم شاربهـا حيث يقـول :

تدبّ في الجسم دبيبا كما دبّ دبى وسط رقاق هيام (1)

فعند تأثير الخمر في الدّماغ، وتفتيرها للحواس، تكون بداية النّشوة وهو ما اصطلح عليه بالدّبيب، وإذا تجاوزت الخمر في الأخذ من شاربها، قيل انّها تمشّت في مفاصله (2).

ومن الدّارسين (3) من يرى أنّ وصف الجاهليين لتأثير الخمر كان وصفاسطحيا تقريريا، خاليا من الخيال، "وأنّ المعاني التي ألمّ بها الجاهليون في وصفهم لتأثير الخمرة كانت معاني بسيطة، تقرّر شعورهم العفوي السّاذج الذي لا تكلّف له، أو تعمّق فيه. انّها انفعالات رجل حادّ التّأثّر، لكنّه عييّ الخيال، عاجز عن ارتياد الصّورة القصصية، يفرح أشدّ الفرح باقتناص الصورة النثرية الواضحة" (4).

فالمعاني الجاهلية في وصف تأثير الخمر كانت بسيطة ساذجة في بعض الأحيان، كجعل الخمر تدفع شاربها الى الكرم والشّجاعة، فشاربها عند انتشائه جواد كريم، وأسد جبّار لا يخشى سلطة أحد. الاّ أنّنا لا نستطيع أن ننكر بعض المعاني الجيّدة كقول الأعشى أنّ جسمه يفيد من حمرة شرابه.

كما جاء ضمن الخمريات الجاهلية وصف لما يؤول اليه شارب الخمر، لا يخلو من دقّة كثقل لسانه، وعدم قدرته على المشي مشية متساوية، ووفق حسّان بن ثابت في وصف مفعول الخمر، وسريانها في جسم شاربها، فشبّه دبيبها بدبيب

---

1) الدّيوان : 437

2) ينظر ألحان الحان 137

3) خليل حاوي

4) فنّ الشّعر الخمري : 21 .

...ن ليّن مستو . وهو وصف - كما يبدو لي - دقيق وجيّد يشهد
...ال صاحبه .

...ب أصحاب الخمر على تخصيص أوقات معيّنة ، يقيمون فيها مجالس للخمر ،
...ا للشرب . وذلك منذ الجاهلية حيث كانت الحياة ساذجة بسيطة ، تتوالى
...وتيرة واحدة ، وخاصّة عند أهل الوبر . (1) فكان البدو يقضون يومهم
...ون ، ويمهدون بمهمة الرّعي للشبان . (2) أمّا الشباب الموسر من أهل
...مدر ، فكانوا يقضون وقتهم في الشّرب ، والاستماع الى القيان واللهو ، وخاصة منهم
شباب مكة الذين اشتهروا باستهتارهم قبل الاسلام . (3)
وعلى أنّهم كانوا يقضون جلّ وقتهم في الجلوس الى الخمر إلّا أنهم
كانوا يميّزون بين أوقات الشّرب . ولكلّ وقت تسمية معيّنة ، فمن ذلك الصبح ،
وهو الشرب عند الصبح بعد طلوع الفجر .
والقيل شرب نصف النّهار . والغبوق شرب العشيّ . وشرب المغرب
الى المساء يقال له : التّخبئة . والجاشرية شرب آخر الليل وقبل الصّبح . (4)
إلّا أنّ أفضل الأوقات للشرب - كما يبدو لنا من خلال الخمريات - هو الصّباح ، وخاصة
في فصل الرّبيع حيث يكون المجلس وسط البساتين المونقة ، وقيل في تعليل ذلك :
" لما كانت محاسن الأشجار ، وما تشتمل عليه من الأزهار ، وما يتخلّلها من الجداول
والأنهار ، انّما تظهر للأبصار بالنّهار ، وكان في ضيائه أنس القلوب وتنفيس الكروب ،
وانتشار الحرارة الغريزية في الأبدان ، ونزهة العيون في محاسن الألوان ، كان الشرب

---

1) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 606 .
2) ينظر نفسه
3) ينظر نفسه 4 : 662 .
4) المختار من قطب السرور 39 - 40 .

فيه تماه الرّياض المشرقة، وتحت ظلال البساتين المونقة وعلى حافات البرك والأنهار المتدفقة، ألذّ من الشرب في الليل الحائل بين النّاظر وبين ادراك حسن المناظر.(1)

واذا نحن تصفّحنا الخمريات الجاهلية، لاحظنا أنّ معظم الشعراء يؤثرون شراب الصبوح على غيره، كما نجد في خمريات الأعشى(2) الذي يصرّح بأنّه يباكر خمره وحيدا اذا تولّى عنه ندماؤه.(3) كما قال عبيد بن الأبرص أنّه يباكرها قبل الصّياح.(4)

وصياح الدّيك عند عبدة بن الطبيب لا يعتبر منبّها لطلوع فجر يوم جديد، بل هو دعوة الى الصّبوح.

وقد غدوت وقرن الشّمس منفتق ودونه من سواد اللّيل تجليل
اذ أشرف الدّيك يدعو بعض أسرته لدى الصّباح وهم قوم معازيل
الى التّجار فأعداني بلذّته رخو الازار كصدر السّيف مشمول(5)

بل انّ الشاعر لبيدا يباكر خمره قبل صياح الدّجاج وقيام النّائمين حيث يقول :

بل أنت لا تدرين، كم من ليلة طلق لذيذ لهوها وندامها
قد بتّ سامرها وغاية تاجر وافيت اذ رفعت وعزّ مدامها
باكرت حاجتها الدّجاج بسحرة لأعلّ منها حين هبّ نيامها(6)

---

1) سرور النفس : 57 .
2) ينظر ديوانه : 5 ، 137 ، 214 ، 224 .
3) ينظر ديوانه : 60
4) ينظر ديوانه : 110
5) المفضليات 289 - 290 .
6) شرح المعلقات السّبع 116 - 117 .

واذا انتقلنا الى العصر الاسلامي ، وجدنا شعراء هذه الفترة يعتمدون - في الغالب - ما ورد عند متقدميهم من الجاهليين في وصف تأثير الخمر .

ومن مزايا الخمر التي تغنى بها شعراء الاسلام ، ذهابها بأحزان شاربها وبعثها في نفسه الشعور بالمرح قال القطامي :

(1)
واذا تعانيني الهموم قريتها ... سن اليدين تخالس الخطرانا

وغالبا ما يكون هدف الشارب الانتشاء والشعور بالمرح ، قال عبيد الله بن قيس الرقيات :

(2)
علل القوم يشربوا ... كي يلذوا ويطربوا

ويذكر حارثة بن بدر أن شارب الخمر يشعر عند انتشائه وكأنه مرزبان لما يعتريه من الزهو والخيلاء .

(3)
كأنك اذ تحسو ثلاثة أكؤس ... من التيه قرم من قروم المرازب

وقال أيضا أن الخمر تبدي مكارم شاربها ، وتدفعه الى العطاء والجود .

(4)
اذا ما شربت الراح أبدت مكارمي ... وجدت بما حازت يداي من الوفر

وقال أنس بن زنيم أنها تجعل من الشارب شجاعا لا يهاب الأعداء .

(5)
عليك بها صهباء كالمسك ريحها ... يظل أخوها للعدا غير هائب

ويضعف بصر الشارب كما أسلفنا فلا يتمكن من التمييز بين الفرد والجماعة ، قال حارثة بن بدر في وصف نديم له من بني سعد في سخرية لطيفة .

---

1) الديوان 60 .
2) الديوان 177 .
3) الأغاني 23 : 477 .
4) نفسه 23 : 490 .
5) نفسه 23 : 477 .

وأبيتُ من أولاد سعد بن مالك   سقيت من الصهباء حتّى تقطّرا
وحتّى رأى الشخص القريب لسكره   شخوصا فنادى يال سعد وكبّرا (1)

ويصف القطامي دبيب الخمر عند سريانها في جسم شاربها ، فيقول كأنّما هي تمشي في العظام .

وكأسٍ تمشي في العظام سبيئة   من الرّاح تعلو الماء حتّى تكاشره (2)

ونلاحظ ممّا تقدّم أنّ معاني شعراء الاسلام في وصف تأثير الخمر لم تتجاوز المعاني الجاهلية .

كما ظل شعراء الاسلام يفضلون الصّباح على غيره من أوقات الشرب ، فهذا أبو محجن الثّقفي يذكر مباكرته للخمر في قوله :

فقد أباكرها ريّا وأشربها   صرفا وأشرب أحيانا فأمتزج . (3)

بل انّه يشربها دون تمييز بين أوقات شربها ، فلا فرق عنده بين صبوح وغبوق ، لأنّه مدمن والمدمن يشربها في كلّ وقت .

أباكرها عند الشروق وتارة   يعاجلني بعد العشيّ غبوقها (4)

وحاول شعراء الخمر في العصر الأموي التّجديد في معاني أسلافهم التي كثيرا ما اعتمدوها في وصف تأثير الخمر . ومن منافع الخمر التي تغنوا بها ، دفعها الهموم عن شاربها ، قال الوليد بن يزيد أنّه انّما يشرب ليسلو :

---

1) الأغاني 23 : 494 .
2) الدّيوان : 93
3) الدّيوان 70 . وقال القطامي في مسابقته العواذل بمباكرة الصّبوح .
أفر اذا أصبحت من كلّ عاذل   وأمسي وقد حانت عليّ العواذل
4) الدّيوان : 72 .

اسقنيها مرّة يا أخذني منها استداره
اسقنيها كي تسلّ ما بقلبي من حراره (1)

ويجعل ابن أرطأة شارب الخمر عند انتشائه قادرا على الملك وتسيير أمور الرّعية .

تدعك على ملك ابن ساسان قادرا اذا حرّمت قرّا ونا حلب الكروم (2)

ووصف الأخطل تبختره عند الانتشاء فقال بأنّه يجرّ ذليه أمام الأمير، ويشعر كأنّه أمير عليه :

اذا ماانديمي علّني ثمّ علّني ثلاث زجاجات لهنّ هدير
جعلت أجرّ الذيل منّي كأنّني عليك أمير المؤمنين أمير (3)

وقال أبو الهندي يصف النّشوة التي ينالها شارب الخمر :

من شراب خسروانيّ اذا ذاقه الشّيخ تغنّى وطرب (4)

ولعلّه أفاد هذا المعنى من بيت عدي بن زيد - الذي تقدّمت الاشارة اليه - .

ويستطيب ابن أرطأة تمايله عند ما تصرعه الخمر ، فلا يقوى على المشي مشية متساوية .

انّا لنشربها حتّى تميل بنا كما تمايل وسنان بوسنان (5)

---

1) الدّيوان 42
2) الأغاني 2 : 222
3) الدّيوان 2 : 154
4) طبقات الشّعراء 142
5) الأغاني 2 : 225

وقال أبو الهندي أنّ الخمر تصيب لسان الفصيح بلثغة

شرابا يمرب الذّبّان منه ويلثغ حين يشربه الفصيح (1)

ويعتري الشّارب في حالة السّكر الارتعاش " وليس يخلو مدمن للخمر من ارتجاف الأطراف، وبخاصّة ارتعاش اليدين، ويعمد المصابون بالرّعاش في اليدين الى المساعدة بين أصابعهما للاستعانة بهذا الاستمرار على الاحتفاظ بشيء من مظهر ثباتهما ". (2)

قال نابغة بني شيبان يصف تأثير الخمر في حركة الشّارب ولسانه .

وكأنّ الشّرب قوم موّتوا من يقم منهم لأمر يرتعش

خرس الألسن ممّا نالهم بين مصروع وصاح منتعش (3)

وجاء أبو الهندي بمعنى طريف ليصف دوار رأسه من الخمار .

وكأس كعين الدّيك ، قبل صياحه شربت بزهر لم يضرني ضريرها

فما ذرّ قرن الشمس حتّى كأنّها أرى قرية حولي تزلزل دورها (4)

ووصف الشّعراء دبيب الخمر في العظام ، وشبّهه الأخطل بدبيب النّمل (5) في رمل مرتفع يتحدّر .

فما لبثتنا نشوة لحقت بنا توابعها ممّا نعلّ وننهل

تدبّ دبيبا في العظام كأنّه دبيب نمال في نقا يتهيّل (6)

وهذا القول منظور فيه الى بيت حسّان بن ثابت ، وان كان له فضل السّبق الى المعنى ، فانّ الأخطل قد أحسن استغلاله .

---

1) الأغاني 18 : 152 وفي هذا المعنى ورد قول الأخطل :
وكأنّ شاربها أصاب لسانه من داء خيبر أو تهامة موم

2) ألحان الحان 141

3) الأغاني 7 : 107

4) طبقات الشّعراء 141

5) ينظر الأغاني 11 : 252 بيت الأقيشر .

6) الدّيوان 1 : 4 .

بينما يشبّه يزيد بن معاوية دبيب الخمر بسريان البرء في جسد انسان سقيم .

(1)
تدبّ دبيب البرء في كلّ مفصل وتكسو وجوه الشّرب شوب شقيق

وقال انّ الخمر تصرع شاربيها :

(2)
فما برحت حتّى استرقت عقولنا وحتّى بقينا بين صرعى ونوّم

وذلك لأنّ الشّارب عند ما تشتدّ به سورة الخمر يصاب بدوار " ويعقب الدّوار بالرأس ثقلة كثقلة النّعاس "(3) ، فذهب الشّعراء - لذلك - الى القول بأنّ الخمر تصرع شاربيها .

ولقد أورد ابن المعتزّ في طبقاته مقطوعة لأبي الهندي يصف فيها حال سكران صرعته الخمر ، فهرع اليه صحبه من النّدماء يساعدونه على القيام . وقد توخّى الشّاعر الدّقّة في وصفه .

واذا ما منتش قامت به رفعوا الأوصال منه بالخشب
ثمّ ناحوا نوحة ثمّ بكوا ثمّ ضجّوا ضحكا ، يا للعجب
وده منكّب على جبهته مزبد الشّدقين مسترخي العصب
رفع الشّرب له يا فوخه بعد لأي ما تولّى وانقلب
ساعة ثمّ دعوه باسمه فأجاب المرء صوتا و وثب
(4) ينفض الرّأس ، عليه غبرة من تراب ورماد وقتب

ويغالي شعراء بني أميّة في وصف تأثير الشّراب فينسبون اليه المعجزات التي تحدث

---

1) حلبة الكميت 122
2) نفسه 140 . وقال عبد الملك بن مروان أنّه لا بدّ من مصرع لمدمن الخمر:
رأتني صريع الخمر يوما فسؤتها وللشّاربين المدمنين مصارع
3) الحان الحان 137
4) طبقات الشّعراء 142 .

عنها القرآن الكريم منسوبة الى الأنبياء ، ويجعلونه مزيلا للعاهات يشفي المقعد والأعمى ، قال الأقيشر :

ومقعد قوم قد مشى من شرابنا وأعمى تسقيناه ثلاثا فأبصرا .(1)

أمّا الأخطل فيصف الخمر بأنّها تصيب مقاتل الشّارب ، وأبدع حين جعل الحرب تدور بين الخمر وشاربها ، وتنتهي لصالحها .

لذّ أصابت حميّاها مقاتله فلم تكد تنجلي عن قلبه الخمر(2)

كما يصف الأخطل خمره بأنّها تميت ثمّ تبعث قتلاها .

تميت وتحيي بعد موت وموتها لذيذ ومحياها ألذّ وأحمد(3)

لقد شبّه الشّعراء حالة السّكران الذي يخرّ صريعا من سورة الخمر بالميّت ، وذلك لأنّه عند انتشائه " يكثر لغوه ... ويرتفع لغطه وصخبه ، وتستشري عربدته وشغبه . ثمّ لا يلبث أن يرشح بالعرق الغزير جسمه ، ويتباطأ تنفّسه ونبضه ، وتنقبض حدقتاه أو تنتشرا ، ثمّ اذا بالمسكين ينجدل على الأرض صريعا لا حراك به كما يسقط الجذع اليابس ، مستغرقا في سبات أقرب مايكون الى سبات الموت ."(4)

هذا عن تأثير الخمر ، أمّا اذا تصفّحنا الخمريات الأموية ، متتبّعين أوقات شربها ، فانّنا نجد الأخطل كالأعشى يبادر صباحا باحتساء خمره الصّهباء الصّافية السّلاف .

---

1) الأغاني 11 : 244
2) الدّيوان 2 : 99
3) نفسه 4 : 322
4) ألحان الحان : 143

ولقد تباكرني على لذاتها صهباء عارية القذى خرطوم (1)

أمّا ابن أرطأة فيذكر أنّه ونديمه يجلسان للخمر مساء ، يغتبقان شرابا .

أمسي أعاطيه كأسا لذّ مشربها كالمسك حفّت بنسرين وريحان (2)

ويفضّل أبو جلدة اليشكري الجلوس الى خمره ليلا ، فيحتسي منها ويسقي نديمه الى طلوع الفجر .

فمازلت أسقيه وأشرب مثل ما سقيت أخي حتّى بدا وضح الفجر (3)

ويذكر ابن أرطأة حنينه الى يوم جلس فيه الى الخمر مع بعض ندمائه حتّى غابت النّجوم .

ويارب يوم قد شهدت بني أبي عليها الى أن غاب تالية النّجم (4)

ونفيد من هذا أن هناك من كان يرغب في الجلوس الى الخمر ليلا . كما أنّ المجالس كانت تعقد باللّيل ، وذلك خوفا من الحرس الذين كانوا يقومون بالمراقبة ومعاقبة كلّ من ضبط في حالة سكر . فقد أورد صاحب الأغاني أنّ الأقيشر ضبطه الحرس وهو في بيت خمّار ، وبيده وعاء خمر ، فحاول أن يوهمهم بأنّه كان يشرب لبنا ، غير أنّهم ألحّوا عليه حتّى أخذوا منه درهمين ، فقال شعرا يستنكر فيه عملهم هذا ، ويصرّح بأنّه لم يذنب ان هو شرب من أمواله . (5)

واهتمّ شعراء الخمر العبّاسيون بوصف تأثير الخمر في شاربها ، وامتدحوا - كسابقيهم - قدرة العقار على تبديد الهموم والأحزان ، حتّى ليخرج بشّار بن برد بقاعدة هي أنّ الهموم والخمر ممّا يستحيل الجمع بينهما ، فمجرّد الاقدام على احتساء المدام

---

1) الدّيوان 1 : 84
2) الأغاني 2 : 225
3) نفسه 11 : 309
4) نفسه 2 : 222
5) ينظر نفسه 11 : 241

يطرد الهموم التي تشغل الشارب .

(1)
فاشرب على حدثان الدهر مرتفقا لا يصحب الهم قرع السن بالكاس

ويقول مسلم بن الوليد أن شارب الخمر يتخلص من همومه لأن الخمر تجول به في طرق السرور مقبلة ومدبرة ، فتجعل همومه ترحل ، مما يبعث في نفسه الشعور بالمرح .

(2)
ركبوا المدام فأدبرت بهم على سبل السرور وأقبلت اقبالا .

فعلى أن الشعراء - فيما سبق - جعلوا الخمر تطرد الهموم ، الا أن الشاعر العباسي ارتفع بهذا المعنى ، وجعل هموم الشارب ترحل عنه بمجرد ماتقابله كؤوس المدام . قال والبة بن الحباب :

(3)
قد قابلتنا الكؤوس ودابرتنا النحوس

فلحالة الانتشاء كانت مؤقتة محدودة ، ذلك لأن الأحزان تعاود الشارب عند صحوه من الخمار ، بينما أصبح مدمن الخمر في العصر العباسي لا يكاد يصحو من سكره ، حتى يهب الى كؤوس المدام يعب منها ماشاء حتى يخر صريعا ، ولعله لهذا السبب قال مسلم بن الوليد أن خمره تميت الهموم .

(4)
مميتة لهموم القلب محيية للبشر نافية للفكر والوصب

ويشبه ديك الجن شارب الخمر بالقائد لخيلائه فيقول :

فلم أزل من ثلاث واثنين ومن خمس وست وما استحلس وما لطفا
(5)
حتى توهمت ذو شروان لي خولا وخلت أن نديمي عاشر الخلفا

---

1) الديوان 4 : 100
2) الديوان 161
3) الأغاني 18 : 43
4) الديوان 166
5) الديوان 71

ولقد ورد ـ فيما تقدم ـ أنّ الشّارب عند الانتشاء يشعر أنّه مرزبان ، أو ملك يكلّل رأسه تاج الملك . ولم يبلغ ديك الجنّ جمال بيت الأخطل الذي جعل نفسه أميرا على الخليفة .

وما كان شعراء البيئة العبّاسية لينسوا فضل الخمر في دفعها بالشّارب الى الكرم ، وعلى أنّ هذا المعنى متداول بين شعراء الخمر منذ الجاهلية ، الاّ أنّ مسلما بن الوليد أجاد صياغته حين قال :

(1)
تصدّ بنفس المرء عمّا يغمّه وتنطق بالمعروف ألسنة البخل

كما أشار الشّعراء العبّاسيون الى أنّ الخمر تفيد صحّة شاربها فتجديه حمرتها ، قال مسلم :

(2)
خلطنا دما من كرمة بدمائنا فأظهر في الألوان منّا الدّم الدّم .

وقد تقدّم قول الأعشى بأنّه سلب خمره جريا لها ، ومن الجائز أن يكون مسلم قد أفاد من معناه ، الاّ أنّه لا يكتفي بالقول أنّه يفيد من حمرة شرابه ، وانّما هو لا يشاء في أنّ الكرم دما ، وأنّه عند شرب الخمر انّما يمزج دم الكرم بدمه وقال ديك الجنّ في دفع الخمر للخمار :

(3)
بها غير معدول فداو خمارها وصل بعشيّات الغبوق ابتكارها

ولم يحقّق الشّاعر جمال بيت الأعشى الذي قال فيه أنّه يشرب كأسا ينتشي بها ، ويردفها بأخرى يتداوى بها .

وقال مسلم بن الوليد أنّ الخمر تبعث الرّوح في شاربها :

---

1) الدّيوان : 31

2) نفسه : 144

3) الدّيوان : 38

أحيا الليالي حتى اذا تلفت نفس الدّجا واستنار الصّبح كالوقد (1)
غادي الشّمول فماطته سمادرها طيفا به ألفت روحها الى جسد

وقد أشار الأخطل ـ فيما تقدّم ـ الى أنّ الخمر تحيي شاربها بعد أن تميته ، وطوّر مسلم هذا المعنى حين جعل خمره قادرة على الجمع بين الرّوح والجسد مهما كان الانفصال بينهما .

وذهب بشار الى تشبيه الصّداع الذي يصاب به المخمور في رأسه بدبيب العنكبوت .

أصبحت من كأس تخبّطتها بعد كئاس مرّها دالث (2)
كأنّ في رأسي ذا امه أو دبّ فيه عنكب عابث

وقد وصف الأعشى ـ كما مرّ بنا ـ التّمايل عند المشي بأنّ رجله تخذله ، وما به عرج . وأبدع مسلم معنى طريفا في وصف مشية السّكران ، حيث قال كأنّما برجليه قيدا يمسكهما ، فلا تطاوعاه على الخطو خطوات متساوية .

يارب خدن قد قرعت جبينه بالكأس والابريق حتّى مالا (3)
أنهضته من بعدما أسكرته فمشى كأنّ برجله عقّالا

ووصفت خطوات السكران بأنّها " دفعات متتاليات من خطا عدّة في اتجاه منحرف ، ويكاد يخيّل للرّائي أنّها يقصد بها الى اتّقاء الانكباب والسّقطة أكثر ممّا يقصد بها الى الانتقال والسّعي " (4) ولقد وفّق الشّاعر هنا في تشبيه

---

1) الدّيوان 68
2) الدّيوان 2 : 49
3) الدّيوان 159 - 160
4) ألحان الحان 140

مشية السّكران بخطا الانسان مقيّد الرّجلين .

ولم يغفل الشّعراء العبّاسيون تأثير الخمر في لسان شاربها ، وقال مسلم بن الوليد أنّها ترمي شاربيها بالخرس . (1)

ألسنة الشّرب اذا ما جرت كأنّها ألسنة خرس، (2)

وفصيح القوم اذا أكثر من شرب الخمر فانّها تسلب منه فصاحته ، وتجعله عند الحديث يتلعثم في كلامه كالأعجميّ ، قال أشجع :

واذا أدارتها الأكفّ رأيتها تثني الفصيح الى لسان الأعجم، (3)

وجاء بشار بمعنى طريف لوصف تأثير الخمر في البصر فقال :

دارت له الكأس حتّى زاح باطله فطرفه نائم في عين يقظان (4)

وتجعل الخمر شاربها يهذي كما جاء في قول حماد عجرد :

بنت عشر تترك المكسوّ عنها كالأ ميم . (5)

وعند هذيان الشارب ، فانّه يضيّع مافي جعبته من أسرار ، ولهذا يذكر العبّاس بن الأحنف أنّه يهجر ندماءه عند السّكر .

هجرت النّدامى خشية السّكر انّما يضيّع الفتى أسراره حين يسكر. (6)

---

1) ينظر ديوان بشار 4 : 197 و 198

2) الدّيوان 213

3) الأغاني 18 : 152

4) الدّيوان 4 : 214 . وعكس بشار هذا المعنى في وصف الشّارب الذي صرعته الخمر ، وقاوم بصره سورتها فقال :

تركته الصّهباء يرنو بعين نام انسانها وليست تنام

5) الأغاني 14 : 321

6) الدّيوان 145 .

ويذهب مسلم بن الوليد الى وصف خمره بأنّها تقتل شاربيها .

الى أن دعا للسّكر داع فصوّتوا (1) وكان مدير الكأس أحسنهم سكرا

ويحاول الشّرب قتل الخمر بما يصبون من كؤوسها ، فتثأر لنفسها ، حيث تتركهم صرعى ، قال ديك الجنّ :

ظللنا بأيدينا نتعتع روحها (2) فتأخذ من أقدامنا الرّاح ثارها

وان كانت الخمر تثأر لنفسها ، فانّ الشّرب لا يستطيعون الأخذ بثأرهم منها ، قال مسلم :

أماتت نفوسا من حياة قريبة (3) وفاتت فلم تطلب بتبل ولا ذحل

نلاحظ أنّ شعراء البيئة العبّاسية استطاعوا أن يضيفوا الى معاني أسلافهم في وصف تأثير الخمر ، فبعد أن أشار الشّعراء في السّابق الى أنّ الخمر تفيد شاربها بحمرتها . أصبح الشّاعر العبّاسي يوهمنا بأنّ للكرم دما ، فعندما يشرب الخمر ، انّما هو يمزج دم الكرم بدمه .

كما طوّروا معنى أسلافهم في كون الخمر تصرع شاربها وتميته ، فوصفوا الشّرب بأنّهم يتآمرون على قتل الخمر ، فتثأر لنفسها منهم وتقتلهم ، ثمّ انّهم لا يستطيعون الثّأر لأنفسهم منها .

وهناك من يميّز في الشّرب بين أيّام الأسبوع ، فيؤثر بعض الأيّام على غيرها ، فقد دأب بعض أكاسرة الفرس على الشّرب في كلّ ثلاثة أيّام .

---

1) الدّيوان 43

2) الدّيوان 33

3) الدّيوان 32 .

يوما .[1] ولعلّ خلفاء بني العبّاس تأثّروا بهم ،فكانوا يشربون أياما ويتركون أخرى ، فقد روي عن الرّشيد أنّه كان يشرب مرّتين كلّ أسبوع ،وكان المعتصم لا يشرب يوم الخميس ولا يوم الجمعة ، وعرف عن أبي العبّاس السّفاح أنّه كان يؤثر الشرب مساء كلّ ثلاثاء .[2]

وكان الشّعراء العبّاسيون يفضّلون شراب الصّبوح على غيره من الأوقات ،وان كان منهم من يستطيب الشرب ليلا .

فبشار بن برد يرى أنّ الانسان ضعيف مآله الفناء ،لذا عليه التّعجيل باغتنام ملذّات الحياة ،والمبادرة بالصبوح ،يقول مخاطبا ساقيته :

قومي اصبحينا فما صيغ الفتى حجرا لكن رهينة أجداث وأرماس[3]

وعلى عكس طرفة بن العبد ،وغيره من الشعراء الذين استعجلوا بالصّبوح فرارا من العواذل ،نجد الشاعر العبّاسي يتمهّل في الجلوس الى خمره صباحا ،ينعم بمجلسه ،فهذا العبّاس بن الأحنف يدعو ساقيه أن يوافيه بـ " سيّد الأشربات ، عند ابتسام الصّباح ،ولا يستعجله كما ورد عند متقدّميه .

أذّن مجتازا بنا بالصلاة وغارت الأنجم مستوسقات

وابتسم الصّبح وأبدى لنا عن غرّة واضحة كالأة

يا أيّها السّاقي ادر كأسنا واكرر علينا سيّد الأشربات[4]

وعلى أنّ الأعشى - كما مرّ بنا - كان يهبّ من نومه قبل صياح الدّيك ليسابق عواذله على الشراب فيباكر بالصبوح ،الاّ أن د يك

---

1) ينظر التاج في أخبار الملوك 257

2) ينظر نفسه : 259 - 260

3) الدّيوان 4 : 90 ويؤكد هذا المعنى في نفس الصفحة بقوله :

قومي اصبحينا فانّ الدّهر ذو غير أفنى لقيما وأفنى آل هرماس

4) الدّيوان 84 .

الجنّ يذكر أنّه يقوم على صوت الدّيك الذي يتزايد كلّما علا الأماكن المرتفعة فيطرب له ، اذ يشنّف سمعه بهتافاته ، فيغريه بالقيام الى الخمر يصطبحها على أنغام صوته ، فينصرف خياله الى الدّيك - الذي لا تزال هتافاته متوالية - فيشبّه عرفه بالتّاج ويصفه في قوله :

أما ترى راهب الأسحار قد هتفا ... وحثّ تغريده لمّا علا الشّعفا
أوفى بصبغ أبي قابوس مفرقه ... كدرة التّاج لمّا أن علا شُرفا
مشنّف بعقيق فوق مذبحه ... هل كنت في غير أذن تعرف الشّنفا
لمّا أزاحت رعاة اللّيل غادية ... من الكواكب كانت ترتقي الشّرفا
هزّ اللّواء على ماكان من سنة ... فارتج ثمّ علا واهتزّ ثمّ هفا
ثمّ استمرّ كما غنّى على طرب ... مزيج شرب على تغريده وصفا
اذا استهلّ استهلّت فوقه عصل ... كالحيّ صيح صباحا فيه فاختلفا (1)

ولقد كان هناك من العبّاسيين من ينعم بمجلس الخمر اليوم بأكمله ، حيث يصل صبوحه بغبوقه . (2)

ولا نعني بهذا أنّ مجالس الخمر في العصر العبّاسي كانت تقام في النّهار فقط ، بل كانت تقام باللّيل أيضا أعراس للشرب واللهو . فهذا أشجع السّلمي يذكر ليلة جلس فيها الى الشّراب مع ندامى كرام ، حتّى أوشك الفجر على الطلوع .

ولقد طعنت اللّيل في أعجازه ... بالكأس بين غطارف كالأنجم
واللّيل منتقب بفضل ردائه ... قد كاد يحسر عن أغرّ أرثم (3)

---

1) الدّيوان 68 - 69

2) ينظر الأغاني 13 : 301

3) نفسه 18 : 151 . وقال بشار في هذا المعنى :

أدرنا بها الكأس الرّوية بيننا ... من اللّيل ، حتّى انجاب كلّ ظلام .

يبدو لنا من خلال الخمريات العبّاسية أنّ مجالس الخمر دائما متوالية ، فالصّبوح يقرن بالغبوق ، والجلوس الى الشّرب يدوم اللّيل بأكمله حتّى الصّبح ، وهكذا لا يكاد ينفضّ مجلس حتّى يقام آخر ، والشّرب ينعمون بالغناء والحديث وتعاطي الأقداح ، الى أن يخرّوا صرعى من سورة الخمر . وفي كلّ هذا صورة لظاهرة المجون التي عرف بها هذا العصر .

ويشغل وصف تأثير الخمر جزءا كبيرا من خمريات أبي نواس ، ولا غرابة في ذلك ، فهو الذي كان يقضي يومه صريع الخمر ، أو مترنّحا من سورتها ، فكيف له أن ينفصل عن وصف ما يعتريه منها .

وكثيرا ما وصف خمره بأنّها تقضي على الهموم والأحزان (1) ، غير أنّه لم يطوّر معاني الشّعراء السّابقين ، ولم تبلغ خمره قوّة خمر أستاذه والبة الذي قال انّ الهموم تولّي مدبرة عنه بمجرّد ما تقابله كؤوس الخمر .

ومن البديهيات لدى أبي نواس استحالة الجمع بين الأحزان والخمر في صدر واحد ، يقول :

ما استقرّت في فؤاد فتى فدرى ما لوعة الحزن (2)

ويدخل ابن المزرّع هذا البيت في عداد المسروق من شعر أبي نواس فيقول أنّه سرقه من قول بشّار بن برد ، لا يصحب الهمّ قرع السّنّ بالكأس . (3)

---

1) ينظر ديوانه : 5 ، 16 104 ، 123 ، 131 ، 137 ، 144 ، 153 ، 195 ، 203 ، 222 ، 223 .

2) نفسه : 412

3) ينظر سرقات أبي نواس 74 .

وعلى أنه من غير المستبعد أن يكون أبو نواس قد أفاد من معنى بشار ، الا أن هناك بيتا آخر للنواسي - يبدو لي - أقرب الى معنى بشار ، وهو الذي يقول فيه :

(1)
لا تحسبن عقارا خابيتة - والهم يجتمعان في صدر •

فالتقليد هنا يبدو جليا ، ومع افادة النواسي من معنى بشار ، فانه لم يبلغ جمال بيته لخفته ، وخاصة الشطر الثاني الذي يجري مجرى المثل •

ويحاول أبو نواس أن يسمو بهذا المعنى الذي تداولة الشعراء فيجعل أحزان الشارب المتراكمة تسيل عنه عند احتسائه الخمر •

تخازل عقل المرء قبل ابتسامه وتخدعه عن لبه وعن الحلم
(2)
وعنه يسيل الهم أول أو لا وان كان مسجور الجوانح بالهم

ونجد الشاعر ينفي أي وجود لسعادة الانسان عند غياب القدح •

لست أرى لذة ، ولا فرحا ولا نجاحا ، حتى أرى القدحا
(3)
نعم سلاح الفتى الهلم الهلم اذا ساوره الهم ، أم به جمحا

ويجعل أبو نواس من المرء والهموم التي تشغله طرفي نزاع في حالة صراع ، حتى اذا ما لجأ هذا الانسان المهموم الى الخمر ، فانها تنصره على همومه •

(4)
بكر صبوحك بابنة الكرم بمدامه تعدي على الهم

وبهذا أعطى أبو نواس نفسا جديدا لهذا المعنى الذي أفاده من سابقيه •

وأشار النواسي الى ما يكتسبه من كرم شارب الخمر ، وان كان مشتهرا بالبخل •

---

1) الديوان 99

2) نفسه 202

3) نفسه 97

4) نفسه 178

تخاذل عقل المرء قبل ابتسامه   وتخدعه عن لبّه وعن الحلم

— — —

وينساق للجدوى وان كان ممسكا   ويظهر اكشارا وان كان ذا عدم (1)

كما ارتفع الشّاعر بهذا المعنى المتداول حين جعل من الخمر مفتاحا لقفل البخيل .

والخمر شيء ،لو أنّها جعلت   مفتاح قفل البخيل لا نفتحا (2)

وعلى أنّ الشعراء قبله ركّزوا على صفة الشجاعة التي تبعثها الخمر في الشارب ،الاّ أنّه أنّنا نجد النّواسي يكتفي بالاشارة الى هذا المعنى في قوله :

تهدي لقلب المستكين تخيّلا   وتلين قلب البازخ المتخيّل (3)

فيجعل الشاعر الخمر تهب الشجاعة للشارب المستضعف عن طريق الخيال ،وهذا لا يعني أنّ الشاعر يشك في قوة مفعول خمره ،بل - ربّما - لكونه لا يعير صفة الشجاعة اهتماما كبيرا ،فالمروءة - في نظر شاعرنا - لا تقاس بالشجاعة ،وانّما بالقدرة على الانغماس في ملذّات الحياة .

وأشار أبو نواس الى أنّ حمرة خمره تجديه ،فقال :

كأسا اذا انحدرت في حلق شاربها   أجدته حمرتها في العين والخدّ (4)

وقال ابن المزرع أنّه سرق هذا المعنى من بيت الأعشى . (5)

فالنّواسي أفاد من المعنى ، كما عمد الى التّأكيد بأنّ حمرة الخمر تظهر في عين الشارب وفي خدّه .

ويرى أبو نواس أنّه عندما يشرب خمر الدّن فانّما هو يستلّ روحه :

---

1) الدّيوان 202

2) نفسه 97

3) نفسه 128

4) نفسه 27

5) ينظر سرقات أبي نواس 87

مازلت أستل روح الدّن في لطف وأستقي دمه من جوف مجروح

حتّى انثنيت ، ولي روحان في جسد والدّن منطرح جسما بلا روح ، (1)

وقال مهلهل بن المزرّع أنّه سرق هذا المعنى من بشار ، (2)

والتّشابه واضح بين البيتين وان عمد أبو نواس الى التأكيد بأنّه يضيف روح الدّن الى روحه .

ومما أغفل أبو نواس الاشارة الى أنّ خمره تخلّص شاربها من الخمار . فقال :

دع عنك لومي فانّ اللّوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الدّاء (3)

وهناك من قال بأنّ أبا نواس سرق هذا المعنى من الأعشى (4) ، في قوله أنّه يشرب كأسا يلتذّ بها ، وأخرى يتداوى منها بها .

وعلّق طه حسين على هذه السرقة بأنّ التّشابه واضح بين بيت الأعشى وشطر بيت أبي نواس " وداوني بالتي كانت هي الدّاء " ويقول بأنّ النّواسي جدّد في الصّياغة ، بل جدّد حتّى في المعنى ، وذلك لأنّ معنى الأعشى ضيق لأنّه يشرب كأسا ينتشي بها ، وأخرى يتداوى بها في حينه ، بينما أطلق النّواسي هذا المعنى بصفة أوسع ، حيث جعل من الخمر الداء والدواء (5) .

ونلاحظ أنّ النّواسي اهتمّ بصياغة هذا المعنى أكثر من اهتمامه باخفائه ، واستطاع أن يجيد في الصّياغة فاختصر المعنى في شطر واحد .

---

1) الدّيوان 92

2) ينظر سرقات أبي نواس 91 - 92 في قوله :

شربنا بنات الدّن حتّى تركنا الدّن ليس له فؤاد

3) الدّيوان : 6

4) مهلهل بن المزرّع والمرزباني ، ينظر سرقات أبي نواس 70 والموشّح 267 و 282 .

5) ينظر حديث الأربعاء 2 : 72 .

وينصح أبو نواس مسقي المخمور عند عربدته بكؤوس تسكّنه .

وإذا رام نديم عربده فاقرعن بالصّرف منه كبده
كرّر الخمر عليه بحتة كي تقيم الخمر منه أوده (1)

كما يفيدنا أبونواس بأنّ الكؤوس الأولى تسبّب للشّارب ارتعاشا يتخلّص منه باحتساء كؤوس أخرى تسكّنه .(2)

وكثيرا ما أشار الشّاعر إلى مفعول الخمر في صداع الخمار .(3)

كما وصف خمره بأنّها تشفي المريض من سقمه .

صهباء صافية ، عذراء ناصعة للسّقم دافعة ، من كرم دهقان (4)

ومع ذلك فانّ خمره لا تضاهي خمر الأقيشر التي تمشي المقعد ، وتعيد البصر - كما مرّ بنا - للأعمى .

ويخصّ الشّاعر خمره بمزايا لم يرد ذكرها عند سابقيه ، ومن ذلك أنّها تبعث الدّفء في جسم المقرور .

ويوم من أيّام العجوز كأنّما وجوه الموالي فيه بالثّلج تلطخ
جعلنا صلاتنا الرّاح فالتهبت بنا وأوقدت الأجواف فالجلد يرشح (5)

ويشبّه النّواسي سريان الخمر في جسم الشّارب بدبيب النّمل في قوله :

حتّى اذا سكنت جوانحها كتبت بمثل أكارع النّمل (6)

---

1) الدّيوان 96
2) ينظر ديوانه : 81
3) كنحو قوله :
اذا المخمور باكرها ثلاثا تطاير عن مفاصله الخمار
وينظر له هذا المعنى في ديوانه : 10 ، 65 ، 95 ، 185 ، 186 .
4) الدّيوان 113 .
وقال أيضا في هذا المعنى ، ينظر ديوانه : 53 ، 144 .
5) الدّيوان 226 .
6) نفسه 43 .

ويتّهمه ابن المزرّع بسرقة هذا المعنى من الأخطل ، وقد تقدّمت الاشارة الى أنّ الأخطل أفاده بدوره من حسّان بن ثابت .

كما وصف أبو نواس دبيب الخمر في مفاصل شاربيها .

فتمشّت في مفاصلهم كتمشّي البرء في السّقم (1)

الّا أنّ العبّاسي اتّهم الشّاعر بسرقة المعنى من قول أبي العتاهية :

علي سرعة الشّمس في مرّها دبيب المخلوقة في البدد (2)

وفي الحقيقة لا نجد تشابها بين المعنيين يؤكّد هذا الرّأي .

وقال كلثوم العتّابي انّما النّواسي سرق معناه هذا من شوشة الفقعسي في قوله :

اذا ما السّقم حلّ عنها وكاءها تصعّد فيه برؤها وتصوّبا (3)

وقال الجاحظ انّ في هذا الحكم تحاملا على أبي نواس من كلثوم العتّابي الذي كان يحطّ من قدر أبي نواس (4) والحقيقة أنّ في اتّهامه النّواسي بسرقه معنى الفقعسي ما يؤكّد هذا التّحامل ، وذلك لاختلاف المعنيين .

كما أشار العبّاسي الى أنّ أبا نواس عند تشبيهه دبيب الخمر بتمشّي البرء في السّقم كان يتّبع قول مسلم بن الوليد ، وقال انّه قد أحسن اتّباعه وذلك في قوله :

تجري محبّتها في قلب عاشقها مجرى المعافاة في أعضاء منتكس (5) .

---

1) الدّيوان : 41

2) معاهد التّنصيص 1 : 86 - 87 .

3) ألحان الحان 151 - 152 .

4) نفسه .

6) معاهد التّنصيص 4 : 33 .

ولعلّ هذا الرّأي أقرب الى الصّواب من غيره ،فقد يعقل أن يكون النّواسي قد أفاد من معنى هذا البيت ،ونقله من الغزل الى وصف الخمر ،ولكن ينبغي ألّا ننسى أنّ يزيد بن معاوية كان قد تحدّث عن دبيب الخمر فشبّهه بتمشّي البرء في السّقم ، وذلك أقرب أن يفيد منه أبو نواس .

ورغم هذا يرى أحد الدّارسين (1) أنّ أبانواس أفاد معناه من تشبيه الأخطل دبيب الخمر بدبيب النّمل ،كما يقول انّه أفاد من معنى الأعشى حين وصف تأثير الخمر في ذؤابة شاربها .

الّا أنّنا نستبعد أن يكون قد أفاد من هذين المعنيين وذلك لا نعدام صلة تربط بينهما وبين معنى أبي نواس . وان كانت المعاني كلّها في وصف تأثير الخمر ،فالأخطل شبّه دبيب الخمر بدبيب النّمل ،ووصف الأعشى شدّة تأثير خمره بأنّها تسري في جسم شاربها ،فيبلغ تأثيرها ذؤابته . بينما شبّه أبو نواس سريان الخمر في جسد الشّارب بتمشّي البرء في جسد السّقيم . وهو معنى جيّد لما فيه من دقّة .

ويتجاوز أبو نواس معاني سابقيه حين يشبّه سريان الخمر في جسد الشّارب بأخذ النّعاس بالمفاصل .

(2)
ولها دبيب في العظام كأنّه   قبض النّعاس ،وأخذه بالمفصل

كما أشاد أبو نواس بفوائد الخمر على جسم الشّارب بقوله :

(3)
كذاك علمت الرّاح ما الغيث في الظّما   بأنفع منها في الطّبيعة والجسم

ويشبّه تأثيرها في بصر الشّارب بأخذ النّوم بالأجفان .

(4)
فأرسلت من فم الابريق صافية   كأنّما أخذها بالعين اغفاء

---

1) جورج غريب ،ينظر شعر اللّهو والخمر : 103

2) الدّيوان 67 .

3) نفسه 202

4) نفسه 6 .

ويرى ابن المزرّع أنّه سرق هذا المعنى من قول الأقيشــــر ،

فمضى الي بكأس راح أخذهـا   للعقل أخذ النّوم بالأجفــان (1)

فالشّاعر هنا يشبّه تأثير الخمر في العقل بتأثير النّوم في الأجفان ، بينما لا يرى النّواسي فرقا بين تأثير الخمر أو تأثير النوم في العين . والشّاعران كلاهما يهدفان الى التّركيز على البطء في سريان الخمر سواء في تأثيرها في بصر الشارب أو في عقله . وربّما اتّكأ أبو نواس على معنى الأقيشر واستعان به في قوله ذاك .

وعلى أنّ البعض يذهب الى أنّ الخمر تسفّه الحليم وتلعب بعقله ، الاّ أنّ النّواسي يبرّئ خمره من ذلك ، ويرى أنّها تزيد السّفيه سفاهة ، بينما تجعل الكريم يحتفظ بأخلاقه ، بل انّها تنمّي أخلاق الكريم وتبرزها .

أرى الخمر تُربي في العقول فتنتفي   كوامن أخلاق تثير الدّواهيـا

تزيد سفيه القوم فضل سفاهة   وتزداد أخلاق الكريم كما هيا

وجدت أقلّ النّاس عقلا اذا انتشى   أقلّهم عقلا اذا كان صاحيا (2)

وأكّد النّواسي قوّة مفعول خمره في قوله :

كأس من الرّاح العتيق ، بريحها   قبل المذاقة في الرءوس تسور (3)

ويرى مهلهل بن المزرّع أنّ هذا المعنى مسروق من قول أبي البيداء الرّياحي : (4)

نبيذ اذا حاف الذّباب بدنّه   تصرّع أو خرّ الذّباب وقيذا

وقال أيضا انّ الأصمعي أنشد بيتا في هذا المعنى أفاد منه النّواسي وهو :

شربنا شرابا يسكر الطير ان رأت   زجاجته فوق الأكفّ تدور (5)

---

1) سرقات أبي نواس 71 - 72

2) الدّيوان 213

3) نفسه 21

4) سرقات أبي نواس 72

5) نفسه 72

نلاحظ تشابها بين معنى هذا البيت ومعنى أبي البيداء الرّياحي ، الاّ أن بيت أبي نواس يتميّز عنهما ، فملى أنّ النّواسي بالغ في وصف شرابه بالقوة ، الاّ أنّه لم يكلّف نفسه اللّجوء الى تأثير الخمر في الذّباب أو الطير . الاّ أنّ المبالغة في هذين المعنيين مبالغة مقبولة ، أضفت على البيتين جمالا في الصورة ، وساهمت في تعميق المعنى . ولا نجد في بيت أبي نواس مايثبت أنّه أفاد من البيتين لأنّ معناه يتميّز عنهما ، وان كانت هذه المعاني كلّها تشترك في وصف شدّة تأثير الخمر .

ويبدو لي أنّ معنى بيت أبي نواس ، انّما هو يشبه معنى الأعشى الذي قال أنّ خمره تنشّي الشارب قبل أن يذوقها .

لقد تقدّمت الاشارة الى تأثير الخمر في مشية السكران الذي " قد يعييه مطلق القيام فيحبو على الأرض زحفا "، كطفل صغير[1] قال أبو نواس في ندمان له في حالة سكر :

وحاول نحو الكأس مشيا ، فلم يطق من الضعف ، حتّى جاء مختبطا يحبو[2]

ووصف تأثير الخمر في لسان الشّارب بقوله :

تدع الفتى فكأنّما بلسانه منها خرس[3]

ويتّهمه ابن المعزّ بسرقة هذا المعنى من أبي الهندي في قوله :

شرابا يهرب الذّبان منه ويلثغ حين يشربه الفصيح[4]

ونستبعد أن يكون أبو نواس ـ ان قال فعلا هذا البيت ـ قد أفاد من معنى أبي الهندي ، ذلك لأنّ هذا الأخير جعل المخمور كأنّ به لثغة لثقل لسانه على الكلام . بينما قال أبو نواس أنّ الخمر تصيب شاربها بالخرس . وقد ورد هذا المعنى عندمسلم

1) ألحان الحان 140
2) الدّيوان 10
3) لم يرد ذكر هذا البيت في ديوان الشاعر حتى في الابيات المشكوك في نسبتها اليه .
و ورد قوله : تختال ألوانا اذا ماصفقت في الكأس تخرس من لسان الناطق
4) سرقات أبي نواس 77 .

بن الوليد في قوله بأنّ ألسنة الشرب خرس من شدّة تأثير الخمر ، ومع ذلك لا يمكن اتّهام أبي نواس بسرقة هذا المعنى لأنّه شائع يتبادر بسهولة الى الذّهن عند سماع كلام مخمور أثقلت الخمر لسانه على الكلام .

وقال أبو نواس كأنّ الشارب أعجمي لثقل لسانه على الكلام :

اذا ذاقها شرّابها بجلوابها بألسنهم شكرا فهم عرب ، عجم (1)

وهذا معنى يحتاج الى بعد النّظر ولا يدركه الجميع ، ولم يتّهم النّواسي بسرقته وان كان في حقيقة الأمر قد اكتفى بتجديد صياغته فقد ورد عنه أشجع في قوله بأنّ الخمر تثني الفصيح الى لسان الأعجم . وأحسن النّواسي اعادة صياغة المعنى ، وجاء بيته أخفّ وأجمل من بيت أشجع .

و وصف أبو نواس تأثير الخمر في عين شاربها فقال بأنها تكسبها احمرارا :

فاذا ما سلسلوها أخذت العين احمرارا (2)

كما ينتابها من سورة الخمر مايشبه الوسن قال أبو نواس :

ثمّ لمّا شربوها أخذت الرّقاد (3)

وجاءت معانيه دون معنى بشار الذي قال فيه بأنّ طرف المخمور نائم وهو في حالة يقظة كما تقدم .

كما وصف تأثيرها في أجفان الشّارب ، التي تصاب بالانكسار من سورة الخمر ، فقال انّها لا تبصر لشدّة وهجها وتألّقها .

فكأنّما أجفان شاربها مطروقة بتلألؤ النّجم (4)

---

1) الدّيوان 104

2) نفسه 65

3) نفسه 64

4) نفسه 178 .

وقال أبو نواس أنّ المخمور لا يملك قدرة التّمييز بين أيّام الأسبوع ولا بين اللّيل والنّهار .

تتراك المرء اذا ما ذاقها يرخي الازارا
ويرى الجمعة كالسّبت ، وكاللّيل النّهارا (1)

كما أشار أبو نواس الى تأثير الخمر في صوت الشّارب ، فقال بأنّها تضعفه (2) كما قال بأنّ الشارب يهذي (3) ويغنّي (4) عندما تصدمه حميّا الكأس ، فيضيّع مافي حوزته من أسرار .

فتهتك أستار الضّمير من الحشا وتبدي من الأسرار كلّ حبيس (5)

ويصف النّواسي ندمانا ثملا يعاني من صداع السّكر ، فيحمل نفسه على سماع الغناء فلا يقوى على ذلك ، كما لا يطاوعه لسانه على النّطق ، فكأنّه يعاني من سكرات الموت .

ومائل الرّأس نشوان ، شدوت له " ودّع لميس وداع الصّارم اللّاحي "
فعالج النّفس كي يحيا ليفهمه وقال " أحسنت ! " قولا غير افصاح
فكاد أو لم يكد أن يستفيق له والنّفس في بحر سكر عبّ ، طفّاح (6)

نلاحظ أنّ الشاعر توخّى الدّقة في وصف المخمور ، بينما اكتفى غيره بمجرّد الاشارة الى أنّ الخمر تصرع شاربيها - ونستثني هنا مقطوعة أبي الهندي التي تقدم الحديث عنها .

ووصف الشعراء السكران الذي صرعته الخمر بالميّت ، وقال أبو نواس في هذا المعنى (7) كما وصف المخمور بأنّه ميّت امتدّ أجله .

---

1) الدّيوان 122
2) ينظر نفسه 223
3) ينظر نفسه 156
4) ينظر نفسه 125
5) نفسه 90 ، وله أيضا في هذا المعنى ينظر ديوانه : 2
6) نفسه 109
7) ينظر نفسه 83 ، 204

قد دبّت الخمر سرّا في مفاصله فمات سكرا ، ولكن حاله الأجل[1] .

كما وصف المخمور بأنّه يموت أو يبعث كلّ مساء .

وله بدور الكأس كلّ عشيّة حالان ، موت تارة ، ونشور[2]

كما يصف المخمور الذي يكون في حالة بين الحياة والموت من السّكر

بأنّ روحه حيّة في جسد ميّت .

أميتت بلذّات الكئوس نفوسهم فأنفسهم أحيا ، وأجسادهم موتى[3]

لقد اهتمّ أبو نواس بوصف تأثير الخمر ، وذلك لأنّه خبرها ، وجرّب سورتها ، وخمارها . وكان يفيد من معاني غيره ، وخاصّة الأعشى الذي اخذ عنه وصف الخمر بالدّاء والدّواء . كما أفاد من الأخطل في جعل الخمر تميت الشّارب ثمّ تبعثه . كما أنّه أفاد من معاني غيرهما من الشّعراء .

وعلى أنّ معانيه في وصف تأثير الخمر لم تكن كلّها من ابداعه ، الاّ أنّه أحسن اعادة صياغتها واخراجها في صورة جديدة ، كجعلها سلاحا للهموم ، أو مفتاحا لقفل البخيل .

وكان يتوخّى الدّقّة في الوصف ، كوصفه الشّارب الذي صرعته الخمر فأردته قتيلا وما هو بقتيل . فأصبح يصارع السّكر للتّمكّن من الكلام والقيام من مكانه .

كما استطاع النّواسي أن يتفنّن الى معاني خفية لايدركها الاّ من خبر الشّراب ، كاشارته الى أنّ الخمر تبعث الدّفء في جسم الشّارب المقرور .

ويشير أبو نواس في خمرياته أحيانا الى الأوقات التي يجلس فيها الى الخمر ، ويبدو من اشاراته تلك أنّه كثيرا ما كان يهبّ من نومه ليباكر بالصّبوح[4] . وقد

---

1) الدّيوان : 115

2) نفسه 21

3) نفسه 119

4) ينظر ديوانه 85 ، 214 ، 220 ، 226 .

يسابق الشاعر انبلاج الصّبح بالدّعوة الى الشراب .

قد دتك الصّبح سدول الدّجى فانحسرت أثوابه الجون
فاصبح ندماك سخاميّة أتى لها في دنّها حين (1)

كما أنّه يقوم لخمره سحرا ، مستعجلا ساقيته بتقديم الصّبوح ، حيث يناديها بقوله :

يا ابنة الشّيخ اصبحينا ما الذي تنتظرينا (2)

ونلاحظ أنّ الشّاعر في هذا البيت لم يبتعد عن معنى عمرو بن كلثوم التّغلبي في ندائه لساقيته في مطلع معلّقته . وان كان يستنكر من الساقية مماطلتها في تقديم الصبوح .

ونجد الشاعر أحيانا يدعو سقاته الى تقديم الصبوح قبل صياح الدّجاج ، كما جاء في قوله :

اسقني واللّيل داج قبل أصوات الدّجاج (3)

ويستطيب أبو نواس الجلوس الى الصبوح مع ندامى كرام في مجلس بين أحضان الطبيعة حيث الأزهار والكروم والجداول (4) ، كما يستحسن شاعرنا مجالس الصّبوح بالدّير ، وخاصّة في يوم ربيعي (5) .

وتفيدنا خمريات أبي نواس أنّه كان يعتبر صياح الدّيك دعوة الى الصّبوح ، لا يتخلّف عنها الّا الأشحاء . حيث يقول :

---

1) الدّيوان 213
2) نفسه 31
3) نفسه 53
4) ينظر ديوانه 193
5) ينظر نفسه 82 .

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا   وأملّه ديك الصّباح صياحا
أوفى على شعف الجدار بسدفة   غردا يصفّق بالجناح جناحا
بادر صبوحك بالصّبوح ، ولا تكن   كمسوّفين غدوا عليك شحاحا (1)

ونلاحظ تشابها بين هذه الأبيات وماجاء به ديك الجنّ في وصف الدّيك من خلال حديثه عن الصّبوح - كما مرّ بنا - ، فمن الجائز أن يكون أبو نواس قد اطّلع على أبيات ديك الجن . وأفاد منها . ونجد أنّ ديك الجنّ قد استوفى وصفه للدّيك ، بينما اكتفى أبو نواس بالاشارة الى أنّ الدّيك يدعو القوم الكرام الى الصبوح فيعتلي الأماكن المرتفعة وينادي مصفّقا بجناحيه .

وقد يقوم أبو نواس الى الصبوح على نواقيس الكنيسة ، فدقات النّاقوس تجعله يحنّ الى احتساء الخمر .

آذنك النّاقوس بالفجر   وغرّد الرّاهب في العصر
وحنّ مخمور الى خمرة   وجاءك الفيث على قدر (2)

ويرى أبو نواس أنّ الصبوح فوائد جمة ، فهو يذهب بالهموم ، ويبعث النّشاط في شاربه .

ناديته والظلام منسدل   وغرّة الصّبح بعد لم تبن
قم ياخليلي الى المدام لكي   تطرد عنّا عساكر الحزن . (3)

وكثيرا ما يصف أبو نواس تسلّله الى حانوت الخمّار ليلا يقوده اليه قبس الخمر الذي يلمع في دجون اللّيل كالبرق (4) . كما أنّ الشاعر قد يستدلّ على حانوت الخمر ليلا بطيبها (5) .

---

1) الديوان 1 - 2
2) نفسه 32
3) نفسه 137 وله أيضا في هذا المعنى ينظر ديوانه : 44 ، 73 ، 144 ، 173 ، 180 .
4) ينظر ديوانه : 77
5) ينظر نفسه : 83

ويصف النّواسي مجلس الخمر الذّي يعقد ليلا ،فلا يرى في الظلام الحالك سوى بريق الكؤوس ،وهي تتلألأ كالسّرج .

كأنّ كاساتنا ،واللّيل معتكر سرج توقّد في محراب شمّاس (1)

ويصرّح أبو نواس بأنّه وصحبه عند ما يمنعهم الصوم من الشّرب نهارا فانّهم يعقدون لها المجالس ليلا حتّى طلوع الفجر (2) .

وهكذا يقضي الشاعر ليله في شرب ولهو حتّى الصّباح (3) ،وقد يدوم مجلسه اليوم واللّيل حتّى الصّباح كما يبدو من هذه الأبيات :

في مجلس مشرف على شجر يضحك تفّاحه الى الزهر

— — —

فلم نزل يومنا ،وليلتنا نقرا على السّطح بالقّنابير

حتّى رأينا السّواد منحسرا ودارت الشّمس في المقاصير (4)

وقد يصل الشّاعر أحيانا صبوحه بغبوقه كما جاء في قوله :

ليس للهمّ دواء كاغتباق ، واصطباح

فلعمري مايداوى الهمّ بالماء القراح (5)

ويبدو لنا أنّ مراد الشاعر كان هو احتساء الخمر دون تفريق بين الصّبوح والغبوق ،فقد كان يلذّ للنّواسي الخمر أيا كان الأوان من فصول السّنة ،كذلك كان يلذّ له النّهل منها والعلّ أيا كانت السّاعة من النّهار أو اللّيل . فاذا مدّ اللّيل رواقه على الكون ،وهدأت الحركة وانقطعت الجلبة وساد السّكون ،وأدكت السّماء مصابيحها من زهر النّجوم ،حلا له الشرب على لمح النّجوم تغمز له بعيونها ،

---

1) الدّيوان 159

2) ينظر نفسه 204

3) ينظر نفسه : 77 ،127 ،135 136 .

4) الديوان : 146

5) نفسه : 130

وعلى ضوء الشموع والسّرج يرقص له لهبها ، حتّى لتحسبه يستكره المنادمة في غير الفلس ... ولكنّك لا تقلب من خمرياته صفحات ، الاّ ألفيته صبّا بالمعاقرة في سائر الأوقات ، أيا كان موقع هذه الأوقات في اللّيل أو في النّهار ، أو فيما بينهما من ساعات السّدفة المبهمة التي يختلط فيها النور بالظلمة ." (1)

نلاحظ أنّ معاني أبي نواس فيما يخصّ تحديد أوقات الشّرب كانت - في الغالب - معاني عامة مشتركة بين الشّعراء ، كذكر مباكرة الخمر ، واستعجال السّاقي أو السّاقية بتقديم الصّبوح ، واعتبار صوت الدّيك منبّها لاصطباح الخمر ، وكذا وصل الصبوح بالغبوق .

ونلاحظ من خلال خمريات النّواسي ، واشاراته - أحيانا - الى أوقات الشّرب ، أنّه كان قليل الاهتمام بتحديد أوقات الشّرب . وقد رأيناه - كما تقدّم - يجمع بين الصّبوح والغبوق ولا يرى لأحدهما فضلا على الآخر . كما ذكر أنّه كان يقضي اللّيل يتعاطى كؤوس المدام حتّى الصّباح ، وربّما استهلّ يومه مصطبحا وظلّ على حالته تلك يومه وليله ، فالمهمّ عند أبي نواس هو احتساء الخمر ، فهو لا يميّز بين أوقاتها .

ولعلّ الشّاعر كان مشغولا عن تحديد وقت شربها بوصف مجلسها وتأثيرها والتّغنّي بلمعانها وابيها . فهو مدمن على شربها يتعاطاها كلّما أتيحت له الفرصة دون تمييز بين أوقات شربها .

ونلاحظ أنّ الشعراء - بما فيهم أبو نواس - لم يتغنّوا بالقيل ، أو الجاشرية ، أو التّخيّة ، ولعلّ الجاشرية والتّخيّة ألفاظ غير شعرية ، فلم يشأ أن يتطرّق اليها الشّعراء في قصائدهم .

---

1) ألحان الحان : 118 - 119 .

ويصف النّواسي مجلس الخمر الذّي يعقد ليلا ، فلا يرى في الظلام الحالك سوى بريق الكؤوس ، وهي تتلألأ كالسّرج .

(1)

كأنّ كاساتنا ، واللّيل معتكر ... سرج توقّد في محراب شمّاس

ويصرّح أبو نواس بأنّه وصحبه عند ما يمنعهم الصوم من الشّرب نهارا فانّهم يعقدون لها المجالس ليلا حتّى طلوع الفجر .(2)

وهكذا يقضي الشاعر ليله في شرب ولهو حتّى الصّباح (3) ، وقد يدوم مجلسه اليوم واللّيل حتّى الصّباح كما يبدو من هذه الأبيات :

في مجلس مشرف على شجر ... يضحك تفّاحه الى الخضر

— — —

فلم نزل يومنا ، وليلتنا ... نقرا على السّطح بالنّنابير

(4)

حتّى رأينا السّواد منحسرا ... ودارت الشّمس في المقاصير

وقد يصل الشّاعر أحيانا صبوحه بغبوقه كما جاء في قوله :

ليس للهمّ دواء ... كاغتباق ، واصطباح

(5)

فلعمري ما يداوى الـ ... ـهمّ بالماء القراح

ويبدو لنا أنّ مراد الشاعر كان هو احتساء الخمر دون تفريق بين الصّبوح والغبوق ، فقد كان يلذّ للنّواسي الخمر أيا كان الأوان من فصول السّنة ، كذلك كان يلذّ له النّهل منها والعلّ أيا كانت السّاعة من النّهار أو اللّيل . فاذا مدّ اللّيل رواقه على الكون ، وهدأت الحركة وانقطعت الجلبة وساد السّكون ، وأذكت السّماء مصابيحها من زهر النّجوم ، حلا له الشرب على لمح النّجوم تغمز له بعيونها ،

---

1) الدّيوان 159

2) ينظر نفسه 204

3) ينظر نفسه : 77 ، 127 ، 135 136 .

4) الديوان : 146

5) نفسه : 130

الباب الثاني

شرب الخمر

الخمـــر والسـاقـــي :

درأب أصحاب الخمر على أن يتّخذوا لهم ساقيا أو ساقية عند كلّ مجلـــس يناولهم كؤوس المدام . ولا يعهد بمهمّة السّقي الاّ للجارية الحسناء أو الغـلام المليح ،فقد ورد في أوصاف السّاقي - غلا ماكان أم جاريـة - أنّ وجهه بدر ،وقدّه قضيب ،فهو لا يمشي الاّ متثنّيا بميس بقدّه . بل انّه جمع الحسن كلّـه .

وعلى الساقي أن يقوم بمهمّة سقي النّدمان أحسن قيام ،وأن يكون متفطّنـا يفهم مراد الشّارب من مجرّد اشارته ،(1) وعليه أن يدير الكأس من اليمين الى اليســار وكان اذا قام بمهمته تقدم الى " ربّ المجلس في أدب ولطف يسقيه ،ثم دار بعده على حلقة الحاضرين يسقيهـم . والسّاقي في دورته بالكأس يجريها على اليمين ،الاّ اذا شاء ربّ المجلس أن تجري يسارا كرامة لبعض من على يساره من الجالسين . ولم تزل هذه عادة العرب في جاهليتهـم واسلامهـم .(2)

كما أنّه من آداب السّقي ، على مدير الكأس" قبل المناولة أن يستأذن في المزج وعدمه .فمن القوم من يشرب الرّاح صرفا ،ومنهم من يختار الممزوج قليلا أو كثيـرا . فان كان الساقي عارفا بأخلاق القوم عامل كلا منهم بما يلائم طباعه من غير ســؤال . كما أنّ من واجبه في كلّ حال مراعاة الانصاف واصابة المزاج . ومن هذا جميعه يتبيّن أنّ السّاقي لا يكون ساقيا حتّى يحذق الصّناعـة .(3)

ويبدو لنا من خلال الخمريات الجاهلية تركيز الشعراء على جمال الساقي وأناقته ، ومن ذلك قول عدي بن زيد العبّادي في وصف ساقيـه :

---

1) ينظر أدب النّدماء 40 - 41
2) ألحان الحسان 251 - 252
3) نفســه 266 .

أطيب الطيب طيب أمّ علـــيّ مســك فأر وعنبر مفتــــــوق
خلطته بـآخــر وبـبـــان فهـو أحـوى على اليدين شريـــق
زانهـا وارد الفدائر جثـــل وأسيـل على الجبـين عبيـــق
قدّمته على سلاف كمين الدّ يـك صفى سلافهـا الــــــــراووق (1)

كما يبالغ السّاقي في أخذ زينته عند المجلس ،فيتحلّى كالجارية بوضع أقراط في أذنيه ،قال حسان بن ثابت الأنصاري : (2)

يسعى عليّ بكأسها متنطّـــف فيعلّـني منهـا ولولـم أنهـــل

وللأعشى أيضا في السّاقي ،يصفه بالخفة والنّشاط (3)

يطوف بها ساق علينا متـوّم خفيـــف دفيق مايزال مفـدّمـا

ويفيدنا عبدة بن الطّبيب أنّ السّاقي يشدّ وسطه بحزام يتمنطق بـه : (4)

يسعى به منصف عجلان منتطـق فـوق الخوان وفي الصّاع التّوابيـل

وقد يكون مراد السّاقي من تمنطقه هذا ،اظهار جمال قدّه ،في تأكيد نحافة خصره . وان كان الزّنار في الحقيقة هو الذي يشيع استعماله عند النّصارى (5). وقد كانت الحانات في الجزيرة العربية يديرها خمّارون من أقوام مختلفة (6). ونادرا ما يكون السّاقي من فتيات العرب .

---

1) الديوان 73 - 79
2) الديوان 367
3) الديوان 200 وله أيضا في هذا المعنى :
يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقلّص أسفل السّربال معتمل
4) المفضّليات 292 .
5) من المراسيم التي أصدرها الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز على النّصارى ،منعهم من تقلّد مناصب في الدّولة ،ومن لبس العمامة ،ومن الركوب على السّرج بل على الاكاف وأن لا يحدثوا كنيسة ولا ديرا ولا صومعة وألا يرفعوا أصواتهم في الصّلاة ،وأن يتميّزوا عن المسلمين بجزّ نواصيهم وشدّ أوساطهم بالزّنانير (عن تاريخ العرب لفليب حتّى 2 : 302)
6) ينظر القيان والغناء في العصر الجاهلي : 62 - 63 .

وذلك لأنّ الأديرة المنتشرة بصفة خاصة في منطقة الحيرة - التي هي من مراكز المسيحية بالعراق - يديرها رهبان نصارى ، وكان من التقاليد المتّفق عليها أن يستضيف النّصارى من يمرّ بأديرتهم من المسلمين ، فكان غلمان الدّير وجواريه يقومون بخدمة الضيوف فيسقونهم الخمر التي تعتبر لديهم من أسرار القربان المقدّس ومراسمه . (1) وغالبا ماكان الشّعراء يتردّدون على هذه الأديرة .

ونفيد من خلال وصف حسّان بن ثابت للسّاقي أنّه كان أعجميا ، وذلك حين يصفه "بالأحمر" في قوله : (2)

يسعى بها أحمر ذو برنس   مختلق الذّفرى شديد الحزام

ويشير عمرو بن كلثوم الى ادارة الكأس من اليمين الى اليسار حيث يقول : (3)

صبنت الكأس عنّا أمّ عمرو   وكان الكأس مجراها اليمينا

فمدير الكأس في الجاهلية ، جارية حسناء تتضوّع منها رائحة ذكية هي خليط من المسك والعنبر ، أو فتى - في غالب الأمر - أعجمي لا يقلّ عن الجارية جمالا وأناقة ، فهو يتطيّب مثلها ، ويتحلّى بلؤلؤتين في أذنيه ، كما يشدّ وسطه بحزام ، وهو خفيف يجيد سقي النّدمان .

واذا انتقلنا الى العصر الاسلامي وتصفّحنا الشعر الخمري الذي قيل في هذه الفترة ، فانّنا نجده لا يخلو من الاشارة الى السّاقي . ويطالعنا القطامي وهو يتغنّى بطول قامة ساقيه في قوله : (4)

فشعشع بالأزاوة شرمحيّ   وليس بنا ولو جهد انتظار

كما نجده يتغنّى بسحر نظرة ساقيته التي تباكره بكأس المدام (5)

وقد تباكرني الصّهباء ترفعها   التي لِسنة أطرافها شمل

---

1) ينظر حياة الشّعر في الكوفة 222 - 223 .
2) الدّيوان 437
3) شرح المعلّقات السّبع 127
4) الديوان 139
5) نفسه 29

وما كان شعراء الخمر في العصر الأموي ليهملوا وصف الساقي في شعرهم الخمري . فهذا الأخطل يذكر أنه شرب الخمر من يد ساقية قروية .[1] كما جاء في خمرياته بأنّ ساقيا أشقر اللّون متنطّفا ناوله خمرا ، ولعلّ هذا الساقي من أولاد الرّوم .

. . . .

أوراح ذي نطف يظّل متوّجا للشّرب أصهب قالص الشّربال ،[2]

وإذا وصف يزيد بن معاوية ندماءه بالنّجوم ، فانّه يشبّه السّاقي بالبدر ،[3] ويطلب نابغة بني شيبان من ساقيه أن يمدح الكأس ومديرها ، ولعلّه يدعوه الى الغناء لاطراب الشرب .

أيّها الساقي سقتك مزنة من ربيع ذي أهاضيب وطش
امدح الكأس ومن أعملها واهج قوما قتلونا بالعطش[4]

ويبالغ السّاقي في انتقاء ملابس الخزّ كما نفيد من قول أبي الهندي .

خفيفا مليحا في قميص مقلّص وجبّة خزّ لم تشدّ زرورها[5]

كما كان يعتني بتصفيف شعره ، وتزيين خصلاته بحلي من ذهب وياقوت ولآلئ ، قال أبو الهندي أنّ مجلسه جمع بين جارية وغلام :

عندنا صنّاجة رقّاصة وغلام كلّما شئنا زمر
حسن المرنين ذو قصّابة زانه شذر وياقوت ودرّ .[6]

ونلاحظ من هذا أنّ السّاقي في العصر الأموي أصبح يبالغ في اتّخاذ زينته عند مجلس الخمر . أمّا أوصاف السّاقي بصفة عامّة فهي نفسها التي وردت عند الشعراء الجاهليين ، فالسّاقي جارية حسناء فاتنة ، أو فتى أعجمي أصهب يشبه البدر حسنا .

---

1) ينظر ديوانه 1 : 85
2) الدّيوان 4 : 324
3) ينظر حلبة الكميت : 139
4) الأغاني 7 : 107
5) طبقات الشّعراء 141
6) نفسه 140

ويتخلّل القصائد الخمرية العبّاسية حديث عن مدير الكأس ، ساقيا كان أم ساقية . ولعلّ حظّ السّاقي كان أوفر من حظّ السّاقية ، وذلك لشيوع ظاهرة الغزل بالمذكر في ذلك العصر ، فقد أضفوا على السّاقي نفس الأوصاف التي يمتدحون بها السّاقية لا يميّز وصفه عنها الاّ صيغة المذكر . فقد كانوا " يستحبّون في السّاقي أن يكون حدث السّن ، بارع الحسن ، رشيقا كالظبي النّافر ، مخطف الخصر ، محطوط المتن ، يتثنّى في مشيته ، ناعم الاهاب ، أبيض بلون العاج ، كالبدر غرّته ، وكالّليل طرّته ، قد كسّو شعره على جبينه واوات ، وعقرب سوالفه المطرورة بالعنبر على صدغيه كالنّونين ، أحور مكحول الجفن ، غنج اللّحظ ، في عينيه فتور ، أغنّ الصّوت ذا لثغة ، رخيم الكلام ، حسن الدّلّ ، خنث الشّمائل ، مخضب البنان ، يلبس القرطق أو الدّرّاج أو القباء من الدّيباج ، معصوب الرّأس بتاج من الرّياحين ، مقلّد العنق بقلائد الياسمين ، مقرطق وعلى المتن منهما وردتا آذريون ".(1)

ونلاحظ من خلال الخمريات العبّاسية اهتمام الشّعراء بقدّ السّاقية الميّاس ، وهي تتهادى في رشاقة لتناول الشرب كؤوس الخمر ، فمن ذلك قول ديك الجنّ :

وتمايلت فضحكت من أردافها ... عجبا ولكنّي بكيت لخصرها (2)

ويذهب مسلم بن الوليد الى تشبيه ساقيته الهيفاء بالرّئم .

وساقية كالرّئم هيفاء طفلة ... بعيدة مهوى القرط مفعمة الحجل (3)

كما تغنّى الشّعراء بسحر طرف السّاقية ، قال مسلم :

ودارت علينا الكأس من كفّ طفلة ... مبتّلة حوراء كالرّشأ الطّفل (4)

بل انّه لم يغفل الاشارة الى أسنان ساقيته ، فشبّهها بأوراق الأقحوان :

---

1) ألحان الحسان 267
2) الدّيوان 55
3) الدّيوان 36
4) نفسه 34

اذا ما اشتهينا الأقحوان تبسّمت لنا عن ثنايا لا قصار ولا ثعل (1)

وقال ديك الجنّ في طعم ريقها :

تسقيك كأس مدامة من كفّها وردية ومدامة من ثغرها (2)

ولحماد عجرد في حسن صوتها :

عندنا دهقانة حسانة ذات همم

جمعت ما شئت من حسن ومن دلّ رخيم (3)

وقال في جمال بنانها :

وبنان كالمداري وثنايا كالنّجوم (4)

ويرى ديك الجنّ بأنّ ساقيته جمعت الحسن كلّه .

انظر الى شمس القصور وبدرها والى خزاماها وبهجة زهرها

لم تبل عينك أبيضا في أسود جمع الجمال كوجهها في شعرها (5)

نلاحظ أنّ وصف الشّعراء للسّاقية لا يختلف في شيء عن وصف الحبيبة من ذكر مفاتنها ووصف جمالها . بل انّ الشعراء لم يميّزوا بين وصف السّاقي والسّاقية - وخاصة في العصر العبّاسي - فقد تغنّوا بحسنه وركّزوا على جمال قدّه ورشاقة قوامه ، فشبّهوه بالغزال كما جاء في قول ديك الجنّ :

وغرير يقضي بحكمين : في الرّاح بجور ، وفي الهوى بمحال

للنّقا ردفه وللخوط ماحلّ لينا وجيده للغزال (6)

---

1) الدّيوان 35
2) الديوان 55
3) الأغاني 14 : 322
4) نفسه
5) الديوان 54 - 55
6) نفسه 92

كما تفننوا بجمال طرفه ووصفوه بالحور على حد قول أبي الشيص :

يطوف علينا بها أحور يداه من الكأس مخضوبتان (1)

وشبه مسلم بن الوليد عيون الساقي بعيون الغزال (2) ، وقال بأن مفعول عيني الساقي لا يقل عن مفعول الكأس التي يديرهنا .

يسقيك بالعينين كأس صبابة ويعيدها من كفه جريالا

ولنا به كأسا هوى كلتاهما توهي القوى وتفتر الاوصالا (3)

بل ان الساقي - حسب رأي مسلم بن الوليد - يسكر بخمره ويسحر بطرفه .

اذا ما أدار الكأس شتى بطرفه فعاطاهم خمرا وعاطاهم سحرا (4)

ولأبي الشيص يصف جفون الساقي بالذبول والانكسار .

سقاني بها - والليل قد شاب رأسه - غزال بحناء الزجاجة مختضب

لطيف الحشى عبل الشوى مدمج القرى - مريض جفون العين في طرفه قبب (5)

ولم يهمل ديك الجن الاشارة الى حمرة خدود مدير كأسه ، فقال أنه يعتصر خمره منها :

وردية يحملها شادن كأنها من خده تعصر (6)

وما أغفل شعراء الخمر صدغ الساقي المعقوب ، قال ديك الجن يشبهه بحروف القاف :

كأن قافا أديرت فوق وجنته واختط كاتبها من فوقها ألفا (7)

---

1) الاغاني : 16 : 323 . وله أيضا في هذا المعنى :

ولو شئت عاطاني الزجاجة أحور طويل قناة الصلب منخزل العصب

2) ينظر ديوانه : 162 .

3) الديوان : 162

4) نفسه : 43

5) طبقات الشعراء 81 - 82

6) الديوان : 51

7) نفسه : 70

ومن محاسن الساقي التي عدّدها ديك الجنّ ، جمال أسنانه التي تضاهي الجوهر في بياضه وجماله ، قال في ذلك :

مهفهف لم يبتسم ضاحكا منذ كان ، الّا نبذ الجوهر (1)

ويتغنّى مسلم بن الوليد بجمال كفّ السّاقي وهو يدير كؤوس المدام ، فيقول فيه :

ياأملح النّاس كفّا حين يمزجها وحين يأخذها صرفا ويعطيها
قد قمت منها على حدّ يلا يمها فهاكذا فأدرها بيننا ايها (2)

ويفيدنا مطيع بن اياس بأنّ ساقيه يتطيّب بالخلوق .

عندي الملاهي جميعا حديثه وعتيقه
وقرطقيّ شهيّ يفوح منه خلوقه (3)

ويستحبّ في السّاقي - زيادة على الجمال والأناقة - أن يكون حسن الصوت حتّى يطرب الشرب . قال بشار بن بدر يمدح السّاقي الذي يتفانى في خدمة الشّرب .

فارغ اللّبّ للنّديم لنا اشغله شغلنا الاّشا ألفيته غرّيدا
ضمّن الكأس ذا السّماح ولا يسوّ ني جليسا ولا يصافي الحبيبا (4)

وكان شعراء الخمر يعمدون الى الظبي والقفر يشبّهون بهما السّاقي لتأكيد حسنه وجماله . قال أشجع السلمي :

وسعى بها الظبي الغرير يزيدها طيبا ويغشمها اذا لم تغشم (5)

---

1) الدّيوان 51
2) الدّيوان 171
3) شعراء عبّاسيون 35
4) الدّيوان 2 : 137
5) الأغاني 18 : 152

ولديك الجن يصف جمال السّاقي والتفاتته وتثنّيه في مشيته : (1)

فقام مختلفاً ، كالبدر مطلعاً والظبي ملتفتاً والغصن منعطفا

وقال مسلم بن الوليد في هذا المعنى :

ودار بها ظبي من الإنس ناعم تمرود عيون الشّرب جانبه شزرا

فحثّ منطق الرّاح حتّى كأنّما قفا أثر المنقاء أو ساير الخضرا (2)

كما شبّه ساقيه بالقمر في قوله :

وقلت حين أدار الكأس لي قمر الآن حين تعاطى القوس باريها (3)

. . . .

ويجمع السّاقي بين الجمال وحسن الأخلاق . قال مسلم :

يسعى بها مخطف الاحشاء مختلق قد تمّ في حسن تركيب وفي أدب (4)

ونلاحظ من وصف السّقاة والسّاقيات أنّ العبّاسيين أصبحوا لا يفرّقون بين الغلام والجارية التي أصبحت تتّخذ لها زي الرّجل ، وتقلّده في قصّ الشّعر وتصفيفه ، كما أصبح الغلام يبالغ في تأنّقه ، وتصفيف شعره ، ويستعمل أنواع الطّيب ، ويتثنّى في مشيته ، فلا نكاد نلمح فرقا بين الجارية والغلام كما يبدو من قول ديك الجنّ يصف ساقيا وساقية :

أفديكما من حاملي قدحين قمرين في غصنين في دعصين

روض منعّمة ومهضوم الحشا للنّاظرين منى وقرة عين

قامت مذكّرة وقام مؤنثا فتناهبا الألحاظ بالنّظرين

صبّا عليّ الرّاح ان هلاكنا قد صبّ نعمته على الثّقلين (5)

---

1) الدّيوان 70
2) الدّيوان 42 - 43
3) نفسه 170
4) نفسه 166
5) الدّيوان 109

ويبدو لنا ممّا تقدّم أن حديث الشّعراء العبّاسيّين عن الساقية لا يعدو التّعرّض الى مفاتنها وكأنّ الشّاعر بصدد التّغزّل في متيّمته كما أنّ وصف الساقي لا يختلف عن وصف السّاقية في شيء ، فقد عمدوا الى الحديث عن جماله بالتّفصيل حيث تغنّوا بحمرة خدوده كما امتدحوا فيه صدغه المعقرب ، وقدّه الميّاس ، وعيونه الحوراء ، وأسنانه التي تضاهي الجوهر في بياضها وحسن ترصيفها . وبهذا فانّ اهتمامهم بالساقي يفوق وصف السّاقية .

كما نفيد مبالغة السّاقي في تأنّقه والعناية بجماله ، فهو يلبس الخزّ ، ويزيّن خصلات شعره بالحليّ واللآلئ ، ويحشو صدغيه بالمسك ، وغالبا ما يتمتّع السّاقي بصوت حسن ، فيقوم باطراب الشرب علاوة على سقيهم . ولم تعد مهمّة السّاقي تنحصر في سقي الشرب واطرابهم ، بل انّه أصبح وسيلة للمتعة واللّهو ، ممّا شجّع على فساد الأخلاق في هذا العصر .

واذا نحن تصفّحنا خمريات أبي نواس وتتبّعنا وصفه لسقاة الخمر فانّنا نجده لا يخرج على قاعدة غيره من الشّعراء العبّاسيّين في التّغنّي بمفاتن السّاقية ، ولا يختلف وصفه للسّاقية - هو أيضا - عن الغزل . ولا يعادل وصفه للسّاقية ، وصف السّاقي الذي أطنب في مدح حسنه ، وركز بصفة خاصّة على جمال قوامه ، وسحر نظرته .

لقد تطرق أبو نواس في معظم قصائده الخمرية الى الى وصف السّاقيات ،(1) والذي يغلب على صفتهنّ استواء جسومهنّ وضمور الحشى وعدم الاسترخاء " .(2)

قال في جمال قوام السّاقية :

---

1) ينظر ديوانه 9 ، 27 ، 54 ، 66 ، 72 ، 87 ، 94 ، 117 ، 191 ...

2) ألحان الحان 234 .

من كفّ ساقية ،ناهيك ساقيةً في حسن قدّ ،وفي ظرف ،وفي أدب (1)

كما أشار الى تمايل الجارية بقدّها الممشوق عند المشي :

قالت وقد جعلت تمايل لي كتمايل الماشي على الدّقّ (2)

وركّز النّواسي أيضا على جمال طرف الساقية ،فوصفها بالحور في قوله :

فاشرب سلافا كمين الدّيك صافيةً من كف ساقيةٍ كالرّيم ، حوراء (3)

فالنّواسي ينتشي بعيون ساقيته كما ينتشي بكؤوس الشّراب ،قال يصف تأثيرها :

تسقيك من عينها خمرا ومن يدها خمرا فمالك من سكرين من بدّ (4)

ويعدّ ابن المزرّع هذا البيت من سرقات أبي نواس ،ويقول أنّه أخذه من بشار في قوله :

حوراء ان نظرت اليك سقتك بالعينين خمرا (5)

ولا يستبعد أن يكون أبو نواس قد أفاد من معنى بشار ونقله من الغزل الى الخمريات. كما يجوز أن يكون قد اعتمد معنى بيتي مسلم بن الوليد في وصفه تأثير عيون السّاقي .

ويذهب النّواسي الى التأكيد بأنّه الوحيد من بين النّدماء الذي ينعم بنوعين من السّكر .

لي نشوتان ،وللنّدمان واحدة شيءٌ خصصت به من بينهم وحدي (6)

كما وصف أبو نواس عيون ساقيته بالسّعة .

من كف ساقيةٍ مقرطقة ناهيك من حسن ،ومن ظرف
نظرت بعيني جؤذر خرق وتلفّتت بسوالف الخشف (7)

---

1) الديوان 72
2) نفسه 66
3) نفسه 34
4) نفسه 27
5) سرقات أبي نواس 94
6) الديوان 27
7) نفسه 66

وأشار الى انكسار جفونها حيث قال :

فطب بحديث عن نديم مساعد   وساقية سن المراهق للحلم

ضعيفة كر الطرف ، تحسب أنها   حديثة عهد بالافاقة من سقم (1)

وتغنى أبو نواس بحسن صوت الساقية - وكان أكثر الساقيات ممن يحسن الغناء - فقال بأنها تبكي الندامى وتتركهم صرعى من شدة الطرب .

فقال : هات واسمعنا على طرب   " ودع هريرة ان الركب مرتحل "

فأحسنت فيه ، لم تخرم مواقعه   والكأس في يدها ، في جوفها خلل

ثم استهشت الى صوت تلحنه   " انا محيوك ، فاسلم أيها الطلل "

فما تمالكت عيني أن تبادرها   دمعي ، وعاودها من دلها خبل

وقال أحسنت هل تدعين .؟ قلت لها " منشكوسة لبق ، هذا هو المثل "

فطار وجدا بها ، والخمر يأخذها   وقال : " هاتي ، فأنت العيش والأمل "

" ان العيون التي في طرفها مرض"   فرجعته بلحن وقعه ثمل

فخر محتبيا مما ترادفه   منها ، وقلت لها " أحسنت ياقبل " (2)

وكان أبو نواس - كالمتغزل بحبيبته - لا يغفل مواطن الحسن في ساقيته ، فها هو يتغنى بجمال كفها . (3)

(4)

تسقيك من كف لها رطبة   كأنها فلقة جمار

وما كان وصف أبي نواس للساقية يقتصر على حسنها الذي حباها به الله ، بل انه أفاد نابزي الساقيات اللاتي كن يرتدين أثوابا اشتهرت بها الفارسيات ، وهي ملابس تلتصق بالجسم لتبرز محاسنه ، وتعرف بالقرطق . كما يفيد نا بأن الساقية كانت تهتم بتصفيف شعرها ، فتعقرب صدغيها .

---

1) الديوان 87

2)

3) نفسه 116 - 117

3) ينظر نفسه 67

4) نفسه 54

في قرطق زانه تخرسنها   قد عقربت صدغها مداريها

كلّلها الله ثمّ قال لها   لما استتمّت في حسنها " ايها ! "

لوقيل للحسن صف محاسنها   ما اسطاع ضعفا بذاك يحكيها (1)

وكثيرا مايصف الشاعر ساقيته بأنّها قد جمعت الحسن كلّه (2).

ويختم الشاعر - في الغالب - حديثه عن الساقية بذكر عيشه معها، وما يسود مجالس الخمر من لهو ومجون.

ولا يختلف وصف الساقي عن وصف الساقية عند أبي نواس - أيضا - اذ نجده يعدّد محاسنه، فيتغنّى بقدّه الميّاس، ويصفه بضمور البطن ورقّة الخصر (3) كما جاء في قوله:

يسعى اليك بها أخو هيف   عذب الشمائل، طيّب اللثم (4)

وكثيرا ماكان النّواسي يشبّه ساقيه الأهيف بالغصن (5)، ونجده يعمد الى المبالغة في وصف قدّه الرّشيق حين يجعل هذا السّاقي يكاد ينعقد لرشاقة قوامه، الا أنّ هذه المبالغة مقبولة، تضفي على المعنى طرافة.

فقام كالغصن قد شدّت مناطقه   ظبي، يكاد من التّهييف ينعقد (6)

وهذا السّاقي الرّشيق القدّ لا يمشي الاّ متثنّيا (7).

يتثنّى كأنّه غصن بان   ميّلته الرّياح بالأسحار (8).

واهتمّ أبو نواس بجمال طرف السّاقي فوصفه بالفتور.

يسقيكها أحور العينين، ذو صدع   مشمّر، بمزاج الراح قد حذقا (9)

---

1) الدّيوان 191
2) ينظر نفسه : 8 ، 66

3) ينظر ديوانه : 121 ، 129 ، 139 ، 178.
4) نفسه : 178
5) ينظر نفسه : 46 ، 79 ، 103 ، 111 ، 135 ، 171 ، 187.
6) نفسه : 79
7) ينظر نفسه : 111 ، 177 ، 189.
8) نفسه : 184
9) نفسه 90

كما وصف تأثير نظرته ، فقال أنه اذا وافاك بالكأس فكأنما هو يسقيك خمرا بعينيه قبل يديه .

يسقيك بالعينين خمرا اذا ناغاك بالكأس باعجال (1)

وقال يصف انكسار جفونه :

صحيح مريض الجفن ، مدن ، مباعد يميت ويحيي بالوصال وبالهجر (2)

ونلاحظ لدى الشاعر اهتماما مبالغا بعيون الساقي (3):

كأنّ في لحظ عين مازجها اذا اجتلاها ، بريق أسياف (4)

ونلاحظ أنّ أبا نواس يعمد الى التّدقيق والتّفصيل في وصف ملامح وجه الساقي ـ أكثر من وصف السّاقية ـ فيشير الى جبينه وحاجبيه في قوله :

الذي بالجمال زيّنه اللّه ، وحسن الجبين والحاجبين (5)

كما شبّه خدوده بالورد . (6)

وبديع الحسن قد فاق الرّشا حسنا ولينا

تحسب الورد بخدّيه يحاكي الياسمينا (7)

وهذا المعنى متداول بين الشّعراء في غرض الغزل ، أفاده شعراء الخمر في وصفهم للسّاقي .

ويعمد أبو نواس أيضا الى تشبيه خدود الساقي بالجلنار لحمرته .

تحكي لنا الجلّنار وجنته اذا علاها تورّد الخجل (8)

---

1) الدّيوان 143
2) نفسه 139
3) ينظر نفسه 119 ، 177
4) الدّيوان 148
5) نفسه 136
6) ينظر نفسه : 111 ، 178 ، 184
7) نفسه 138
8) نفسه 147 .

كما اهتمّ الشاعر بصدغي السّاقي (1)، فوصفهما بأنّهما طويلان (2) ومعقربان، فكأنّهما خطّا بالقلم.

(3)
كأنّ صدغيه في سواد هما خطّا على العارضين بالقلم

كما شبّههما بحرف النّون لتعقربهما.

(4)
له عقربا صدغ، على ورد خدّه كأنّهما نونان من كفّ ماشق

وما أهمل شعراء الخمر في العصر العبّاسي كفّ السّاقي التي تناولهم كؤوس المدام، - كما مرّ بنا - ولأبي نواس في نعومة بنان ساقيه: (5)

وغزال يديرها ببنان ناعمات يزيدها الغمزلينا

ويرتفع أبو نواس بهذا المعنى فيجعل يد الساقي تبلغ من اللّين درجة كبيرة، بحيث أنّ مجرّد لمسها للكأس يكاد يدميها.

(6)
بكفّ، تكاد الكأس تدمي بنانها اذا أزعج التّحريك منها سكونها

وما أغفل أبو نواس أن يتغنّى بخال يزين خدّ ساقيه فقال فيه:

(7)
خال به في خدّه واضح وا بأبي ذلك من خال!

ويفيدنا أبو نواس من خلال وصف السّاقي ببعض الملابس التي كان يرتديها السقاة، فقد ورد ذكره للقميص والقباء (8) كما جاء في قوله:

---

1) ينظر ديوانه: 32، 133
2) ينظر نفسه: 136، 220
3) نفسه: 189
4) نفسه: 171
5) نفسه: 30
6) نفسه: 138
7) نفسه: 143
8) والقباء ثوب يلبس فوق الثّياب، وقيل يلبس فوق القميص ويتمنطق عليه، (محيط المحيط، مادة: قبو).

أشتهي الساقيين ،لكنّ قلبي مستهام بأصفر السّاقيين

ليس باللّابس القميص ،ولكن ذي القباء المعقرب الصّدغين (1)

كما ذكر بأنّ ساقيه يلبس الدّوّاج . (2)

يديرها خنث في لهوه ،د مث من نسل آذين ،ذو قرط ودوّاج (3)

وجاء في وصف أبي نواس أن السّاقي قد شدّت مناطقه . (4) وقد يتمنطق السّاقي بالزّنار

كما جاء في قول أبي نواس :

ياعاقد الزّنار في الخصر ، بحرمة الحانة والفهر

لا تسقني ان كنت بي عالما الّا التي أضمرت في صدري (5)

وكثيرا ما يشير شاعرنا الى الزّنار ،فقد كان له و " أمثاله ولع شديد بالزّنار

المفروض على النّصارى شدّه الى أوساطهم فلم يكن شيء يروقهم ويعجبهم منظره

في المزنّر مثل ما يبدو من دقّة خصره ،وقطع الزّنار بين خصره وردفه . (6)

وقد يتحلّى السّاقي بقطع من اللّؤلؤ كما جاء في قول أبي نواس :

يسعى عليهم بالكأس ذو نطف أحذاه ظبي الصّريمة اللبسا (7)

ويفيدنا النّواسي أيضا بأنّ ساقيه يتزيّن بأزهار الياسمين والورد .

بيدي ساق عليه حلّة من ياسمين

وعلى الأذنين منه وردتا آذريون (8)

كما نفيد من خمريات أبي نواس أنّ السّاقي كان يتطيّب

عند المجلس ،حيث يطلي صدغه بالعنبر .

---

1) الدّيوان 136

2) والدّواج ،اللّحاف الذي يلبس (محيط المحيط ،مادة : د و ج) .

3) الدّيوان 43

4) مفردها منطقه ،وهي ثوب يشدّ على الوسط ويرخى أعلاه على أسفله .

5) الدّيوان 82 .

6) ألحان الحان 71

7) الدّيوان 51

8) نفسه 70

قد عقربت رابية صدغه　　فالصدغ بالعنبر مطرور (1)

وكغيره من الشعراء العباسيين، تغنى أبو نواس بحسن صوت الساقي (2)، ويبدو أنه كان يستحسن صوت الساقي الأغن. (3)

نأخذها من كف ذي غنة　　كأنما خط بتمثال (4)

ويعمد الساقي الى الغناء في المجلس ليطرب الشرب ويستحثهم على الشرب، كما جاء في قول أبي نواس:

غنى على طرب يرجعه　　ليحث كأس معاود الحبس

" ياخير من وخدت بأرجله　　نجب الركاب بمهمه حلس" (5)

ونلاحظ عند أبي نواس ـ من خلال حديثه عن الغناء في المجلس ـ ظاهرة تضمين قصائده أبيات، أو أشطار أبيات غيره، مما يكسب القصيدة جمالا، لترصيعها بمطالع معلقة أو قصيدة مشهورة، أو بيت متداول يجري معناه مجرى الحكمة أو المثل.

وكثيرا ما يصف أبو نواس ساقيه بأنه جمع الحسن كله (6)، فيشبهه حينا بالظبي (7)، وحينا آخر بالبدر، وعلى أن تشبيه الوسيم بالبدر معنى متداول بين الشعراء منذ القديم، (8) الا أن النواسي يضفي عليه من روحه، فيخرجه في صورة جديدة حيث يقول:

يدير علينا الشمس والبدر حولها　　فيامن رأى شمسا يدور بها البدر (9)

بل ان البدر المنير لا يضاهي جمال الساقي الذي أكمل الله خلقه.

ما البدر أحسن منه حين تنظره　　سبحان ربي، لقد سواه اذ خلقا (10)

---

1) الديوان 15
2) ينظر نفسه 75، 111
3) ينظر ديوانه 22، 99، 189، 196، 32.
4) نفسه 143
5) نفسه 216
6) ينظر نفسه : 65، 75، 76، 99، 177، 216
7) ينظر نفسه : 30، 79، 83، 133، 138، 171، 220.
8) ينظر نفسه : 44، 129، 140، 134، 183.
9) نفسه : 145
10) نفسه : 90.

كما شبّه أبو نواس ساقيه الوسيم بالشّمس ، كما ورد في قوله :(1)

بكف أغنّ ، مختضب بنانا مذال الصّدغ ، مضفور القرون

كأنّ الشمس مقبلة علينا تمشّى في قلائد ياسمين (2)

وإذا كانت مهمّة السّاقي خدمة النّدامى ، فإن على هؤلاء الامتثال لأوامره

وعدم ردّها كما يبدو من قول أبي نواس .

لا تستخفّ بساقينا لعزّته ولا يردّ عليه حكمه أحد (3)

ويستملح أبو نواس خجل ساقيه ، فيلجأ إلى مداعبته لاخجاله .

وناعم قام يسقيني ، فقلت له : " نفسي الفداء . . لمن هذا ؟ " فقال : " لكا "

فقلت : بالشّكر من عينيك آخذه فصدّ من خجل منّي وما ضحكا

ماقلت ماقلته إلا لأخجله ولو أعدت عليه مثله لبكى (4)

ولا يتحرّج النّواسي من ذكر لهوه مع السّاقي كما جاء في قوله :

أشرب من كفّه شمولا ، ومن فيه رضابا يجري على برد (5)

وغالبا ما يختتم أبو نواس قصيدته الخمرية بالتّعرض لما يسود مجالس الخمر

من لهو ومجون مع السّاقي ويصف حالة الشرب الذين تتركهم الخمر صرعى كالأموات .(6)

وطاف بالكأس لنا شادن يدميه مسّ الكفّ من لينه

فلم نزل نسقى ، ونلهو به ونأخذ القصف بأفانينه

---

1) ينظر ديوانه : 48 ، 195

2) نفسه 32

3) نفسه 80

4) نفسه 89

5) نفسه 52

6) ينظر نفسه : 11 ، 19 ، 22 ، 30 ، 70 ، 76 ، 103 ، 106 ، 117 ، 136 ، 138 ، 147 ، 155 ، 178 ، 184 ، 189 .

حتّى غدا السّكران من سكره كالميت في بعض أحايينه (1)

انّنا لا نكاد نلمح فرقا بين وصف أبي نواس لكلّ من السّقاة والسّاقيات ، اذ أنّه يصف ساقيه الغلام بحسن القدّ ، والحور ، والنّعومة والخفر ، و "كلّ هذه الأوصاف انّما يصحّ أن تقال في المرأة ، ولكنّها عند أبي نواس ملامح يتشابه فيها كلا الجنسين" (2) ، كما أنّ وصفه لساقيات الحان لم يعد مايقال في باب الغزل في الجاريات الحسان ، ثمّ انّه عند وصفه السّاقي "يخلع عليه صفات الانثى فيتغزل به كما بالجواري القيان" (3).

وكثيرا مايشير أبو نواس من خلال حديثه عن السّقاة والسّاقيات الى أديانهم ، فهو يهوى الخمر ويستطيب تناولها من أيدي النّصارى الذين يحذقون صنعها ويقدّسونها ، كما يبدو من قوله :

يسقيكها من بني العباد رشا منتسب عيده الى الأحد
اذا بني الماء فوقها حببا صلّب فوق الجبين بالزّبد (4)

ويصرّح الشاعر بأنّه عشق الخمر وشغف بها ، وخاصة عندما يتناولها من يد ساقية يهودية حوراء .

اشرب في ظلّة خمّار عندي من اللّذات ياجاري
لا سيما عند يهودية حوراء مثل القمر السّاري (5)

وقد يكون السّاقي من جنس عربي ، ويبدو أنّ الشّاعر لا ينعم بمجلسه في هذه الحالة ، وذلك لأنّه لا ينال وطره من السّاقي "ولعلّ في هذا اشارة صريحة منه الى أنّ غلمان العرب لا ينزلون هذا المنزل فهو يصفه معترفا بأنّ نواله صعب ، لأنّه ذو نخوة ناشىء بين الأعاريب" (6).

---

1) الدّيوان 83
2) مجلة الأديب سنة 1960 ، 38 : 27 السّقاة والسّاقيات في خمريات أبي نواس مصطفى الشّهابي
3) نفسه : 28
4) الدّيوان : 52
5) نفسه : 54 . ورد في الدّيوان اللّذت وسقط حرف الألف.
6) مجلة الأديب سنة 1960 ، 38 : 27 السّقاة والسّاقيات في خمريات أبي نواس مصطفى الشهابي .

يسعى بها مثل قرن الشّمس ذو كفل   يشفي الضّجيج صفي ظلم وتشنيب
كأنّه كلّما حاولت نائلـــه   ذو نخوة نا شيء بين الأعاريب (1)
يسطو عليّ بحسن لست أنكره   يامن رأى حملا يسطو على ذيب!

نلاحظ أنّ مدير الكأس عند أبي نواس ـ غلاما كان أم جارية ـ أصبح يبالغ في الاعتناء بهندامه، فالملابس من خزّ، والحلي من ذهب ولآلىء ترصّع بها خصلات شعره، والأصداغ تعقرب وتحشى بالطّيب من فأر ومسك. هذا الى جانب جمال مدير الكأس، الذي يريده الشّاعر أهيف يميس بقدّه عند سقي الشرب، ولا يمشي الاّ متثنّيا، وأحور كالرّشأ، يسقي النّدامى خمرا بيده وأخرى بلحظه، بل انّ ساقي أبي نواس يفوق البدر حسنا، ونجد الشّاعر يطنب في تغنّيه بجمال السّاقي أكثر من السّاقية، حيث يعمد الى التّفصيل في وصفه، فيذكر حمرة خده وجمال جبينه وحاجبيه، كما أنّه لا يهمل الخال الذي يرصّع خدّه.

وان كانت هذه المعاني قد وردت عند شعراء الخمر العبّاسيّين بصفة عامّة، فانّنا نجد أبا نواس يفوقهم في التّركيز على جمال ساقيه، كما يعمد الى وصف هذا الجمال بالتّفصيل.

فبعد أن كان السّاقي يوصف في القديم ـ بطول القامة والخفّة، أو أنّه رومي أصهب يتنطّف ويتطيّب عند مجلس الخمر، أصبح شعراء بني العبّاس يركّزون على مفاتن السّاقي ـ أكثر من السّاقية ـ، فيتبارون في ايجاد صورة مثلى تصف حسنه وجماله، وذلك لأنّه أصبح وسيلة للمتعة واللّهو.

ولعلّ في وصف السّاقي في الخمريات العبّاسية صورة تعكس وتؤكّد ظاهرة الشّذوذ الجنسي التي شاعت في ذلك العصر، وعرفت بصفة خاصة عند زمرة الشّعراء المجان الذين يتزعّمهم أبو نواس.

الدّيوان : 76 .

الخمــــر والنّــدمـــــان

نديم الرجل هو جليسه الذي يعاقر معه الخمر ، والجمع نُدماء ، ونَدمان جمعه ندامى ونِدام .(1)

و " انّمــا قيل لمشارب الرّجـل نديمه من النّدامة ، لأنّ معاقر الكأس اذا سكر تكلّم بما يندم عليه ، وفعل مايندم عليه ، فقيل لمن شاربه نادمه ، لأنّه فعل مثـل فعله ، والمفاعلـة تكون من اثنين ، كما تقول ضاربة وشاتمه ، ثم اشتقّ من ذلك نديم ، كما يقال جالسه فهو جليس ، وقاعده فهو قعيــد ".(2)

بينما هناك من يقول انّ النّديم يندم على فــراق جليســـه .(3)

وعلى كلّ فالتعريفــات متّفقــان علـى علاقة النّديــم بالنّـــدم .

وغالبا مايكون للنّديم عند نديمه مكانة خاصّة ، قال أحد الشّعراء أنّ النديم أقــرب الى المــرء مــن أخيــه من الرّضاعـــة :

ألم تعلما أنّ النّديمين ماصفـــا ... وداد هما أو أنصفـــا أخـــــوان

وأنّ رضاع الكأس أوجـــب حـرمـــة ... وحــقّاً علينــا من رضـــاع لبـــــان (4)

و " كان كلّ واحد من أكابر قريش وجلّتهم له نديم لا يستبدل به ، ولا يفرّق بينهما الاّ المـوت " ،(5) فاذا حضر أحدهما الموت ، فانّ نديمه يحزن عليه بقية عمره ، وقد قيلت أشعار في رثاء النّديم والتّحسّر على فقدانه .(6)

---

1) لسان العرب ، مادة : ندم
2) الأشـربـــة 15
3) ينظر أدب الندمـــاء 3
4) المختار من قطب السرور 42
5) نفســــه 94 .
6) ينظر

وكانت للملوك والخلفاء والوزراء والأمراء في القديم " مجالس منادمة ... ولهذه المجالس شرائط صعبه ومسالك ضيقة على النّدماء "حيث يشترط في النّديم شروطا نادرا ما تجتمع في الشخص الواحد ، اذ " لم تكن الملوك تتّخذ نديما الاّ جامعا لمحاسن الأخلاق ، وأفاضل الآداب ، وظرائف الملح ، وغرائب النّكت ، حتّى انّه يحتاج أن يكون له مع شرف الملوك تواضع العبيد ، ومع عفاف النّساك مجون الفتّاك ، ومع وقار الشّيوخ مزاح الأحداث ، لأنّه مضطرّ الى كلّ واحدة من هذه الخلال في حال لا يحسن به غيرها ، ويحتاج أن يجتمع له من قوة الخاطر ، مايفهم به ضمير الرئيس الذي ينادمه على حسب ما يبلوه من خلائقه ، ويعلمه من معاني لفظه واشارته ، ولا يكمل ذلك للنّديم حتّى يكون له جمال ومروءة ، فأمّا جماله فنظافة ثوبه ، وطيب رائحته ، وفصاحة لسانه ، وأمّا مروءته فكثرة حيائه مع انبساطه ، ووقار مجلسه مع طلاقة وجهه".(2)

وأورد صاحب حلبة الكميت هذه الشّروط التي من الأفضل توفّرها في النّديم حتّى يكون محبوبا لدى جلسائه فقال : " وينبغي له أن يكون حسن البزة نبيل الهمّة نظيف الكفّ نقيّ الظفر متعاهدا لتقليمه ، وتخليل أصابعه وغسل يديه ومعصميه وتسريح لحيته عطر البشرة نظيف الوجه والشارب والأنف نقيّ الجبين مستعملا للسّواك نظيف الثّياب خصوصا عمامته لأنّ العين كثيرا ماتقع عليها مسبول الذّيول وأطراف الأكمام نظيف المخفى من الملبس كالقلنسوة والسّراويل والتّكّة والخفّ والمنديل والكمّ متطيّبا بالبخور والغالية والرّوائح على الشّعر والثياب ، فاذا كملت فيه هذه الخصال كان محبوبا الى القلوب سهلا على الأرواح والا كان مستثقلا في العيون بغيضا في النّفوس ..." (3).

" وعلى النّديم أن يجمع الى الصّبر على مضض الجوع احتمال كظّة الازدياد على الشبع " (4) ذلك لأنّه يجب أن ينادم جليسه ويؤاكله .

---

1) ألحان الحان 254
2) المختار من قطب السرور 136
3) حلبة الكميت 25
4) أدب الندماء 10

ويرتدي النّديم حلّة رسمية في المجالس التي يعقدها الملوك وعلية القوم ، وتعرف بثياب المنادمة " وهي غلائل رقاق من المصبغات الزّاهية الألوان من حمر وصفر ، وتكون عليها أحيانا ملاءة تقوم قياما من شدّة الصقال "(1). ولا يسمح للنّديم بتغييرها الّا اذا خلع عليه جليسه ثيابا ، فيستحسن في هذه الحالة أن يبقى بها حتّى نهاية المجلس ، وأن لا يحضر بها مجلسا آخر (2).

ثمّ هناك شروط تضبط سيرة ندماء الملك في المجلس وتقيّد حريتهم " فعلى كلّ نديم أن يجلس في مرتبته ، جاثيا على ركبته ، لا يظهر شيء من قدمه ، من غير اتّكاء ولا استناد الى جدار أو مخدة ، مع حسن أدب وسكون ، فلا يعبث بشوب ولا خاتم ولا لحية . وعليه كلّما نهض الرّئيس أن ينهض لنهوضه ويجلس لجلوسه . وألا يدنو الّا اذا استدناه ، ولا يبتدئه بكلام ولا يستعيده منه . واذا سأله الرئيس نهض قائما على قدميه وأجاب بأوجز عبارة وألطف اشارة ، ثم لا يجلس حتّى يأذن له . وينبغي أن يكون ذهنه واصغاؤه ومجاميع قلبه كلّها مع الرّئيس ، لا يتشاغل عنه ولا يلتفت الى غيره .

ومهما يكن ما بين يديه من الرّياحين والأزهار ، فينبغي ترك الاكثار من شمّها أو من تناول غيرها من الشّمامات ، أو العبث بالفاكهة . ويحسن منه الاقلال من التّنقل على الشّراب . وليس له بحال من الأحوال أن يستحث الشّراب ، أو يقترح صوتا على مغن أو مغنية . وكان لكلّ خليفة أو ملك أمارة يعلم منها ندماؤه أنّه يريد قيامهم فينصرفون " (3).

وان يصدر عن النّديم ما يسيء الى السّلطان في مجلس الشّراب ، فانّ ذلك يعرّضه للعقاب (4).

---

1) ألحان الحان 251
2) ينظر أدب النّدماء 45
3) ألحان الحان 254 - 255
4) ينظر أدب الندماء 47

هذا في مجالس الملوك ، أمّا مجالس العامّة فيبتعد فيها عن كلّ هذا التّصنّع مع النّديم ، اللّهمّ الاّ ما يقتضيه الأمر من احترامه والتّسامح معه .

أمّا ما يخصّ عدد الشّرب ، فيسمّون " الاثنين منشارا ويكرهونهما وكان الثّلاثة اتمّ مجلسا لأن الاثنين ينهض أحدهما لبعض شأنه فيجمّ الآخر وينفرد وربّما عرض له الفكر فلا يكون لحسبه من تخلّفه في مؤانسة وليس كذلك أمر الثلاثة وعندي الأربعة أحسن لأنّ الثّلاثة اذا اشتغل الاثنان بالحديث لا يعرف الثّالث سببه وابتداءه تحشّم لا محالة ويمقت نفسه والأربعة يتكافأون (1) ، فهم أركان المجلس " (2) . وقال بعضهم : " من زاد في النّدماء على أربعة فقد فوّت على نفسه السّرور وضيّعه " (3) .

ويتخلّل المقطوعات الخمرية الجاهلية حديث عن النّديم أو الشّرب ، والتّغنّي بكرم أخلاقهم وآدابهم .

ويذكر امرؤ القيس أنّه نادم الملك قيصر ، فيفتخر بذلك ، كما أنّه ركب الدّابة المخصّصة لنقل البريد ، ويبدو من قوله أنّه كان مكرما مشرفا بذلك . (4)

ونادمت قيصر في ملكه فأوجهني وركبت البريدا

كما يفخر زهير بن الجناب - على كبر سنّه - بمنادمة الملوك فيقول :

ونادمت الملوك من آل عمرو وبعدهم بني ماء السماء (5)
وحقّ لمن أتت مائتان عاما عليه أن يملّ من الثّواء

ولعلّ سبب هذا الفخر هو أن الملك لا ينتقي الاّ من توفّرت فيه مجموعة من الخلال لمنادمته - كما مرّ بنا - ، كما أنّ نديم الملك يكون مقرّبا اليه .

---

1) ورد في النّص يتكافؤن

2) أدب النّدماء 25

3) حلبة الكميت 32

4) الديوان 88

5) المختار من قطب السرور 109

أمّا فيما يخصّ الصّفات التي يحبذونها في النّديم ، والتي عدّدها الشّعراء عند مدح النّدماء ، فهي عموما الصّفات التي كان يفخر بها الرّجل الجاهلي ، بل هي الصّفات التي تبعثها الخمر في الشّارب ـ حسب زعمهم ـ من كرم ، وشجاعة ، وتسامح... .

فهذا الأعشى يذكر أنه يباكر خمره مع نخبة من النّدماء الكرام .

وأدكن عاتق جحل سبحل صبحت براحه شربا كراما (1)

فندماء الأعشى كرام يبذلون مالهم في الخمر والطرب .

واذا الدّنّ شربنا صفوه أمروا عمرا فناجوه بدن

بمتاليف أهانوا مالهم لغناء وللعب وأذن (2)

ويؤكّد حسّان بن ثابت كرم ندمائه . فيقول :

ربّ لهو شهدته أمّ عمرو بين بيض نواعم في الرّياط

مع ندامى بيض الوجوه كرام نبّهوا بعد خفقة الأشراط

لكميت كأنّها دم جوف عتّقت من سلافة الأنباط (3)

فاحتواها فتى يهين لها الما ل ونادمت صالح بن علاط

ويمدح أحد ندمائه بشدّة الكرم ، ويقول عنه أنّه وافقه ، فلم يندم على اتّخاذه نديما له :

وندمان صدق تمطر الخير كفّه اذا راح فيّاض العشيّات خضرما

وصلت به ركني و وافق شيمتي ولم أك عضّا في النّدامى ملوّما (4)

وقد يبلغ الكرم بنديم حسّان بن ثابت ما يجعله يهب ندماءه قيانه تكريما لهم ، ثمّ يستدرك الشاعر أن الكرم من شيم نديمه .

---

1) الدّيوان 135

2) نفسه 2‹8

3) الدّيوان 290 - 291

4) نفسه 226.

طفن بالكأس بين شرب كـرام   مهّدوا حرّ صالح الأنمـاط
(1)
ساعة ثمّ قال هنّ بـسـد اد   بينكم غير سمعة الاختلاط

ومن صفات النّديم التي تغنّى بها الشّعراء الجاهليون ، الشّجاعة ، قال عدي بن زيد العبادي متغنّيا بندمائه :

وفتية كالسّيوف أحضرهم   لا عاجز فيهم ولا وكل
بيض مطاعيم في الشّتاء و ان   أخلف نوء عن وبله وبلوا
لا يتأرّون في المضيق و ان   نادى المنادي أن انزلوا نزلوا
لا بدّ في كرّة الفوارس أن   يترك لهم في معرك بطل
(2)
معفّر الخدّ فيه جائفة   جيّاشة ما تردّها الفتل

والى جانب الكرم والشجاعة ، تغنّى شعراء الخمر في العصر الجاهلي بسماحة النّديم ، قال الأعشى :

وشاهدنا بالمعافر حقبة   وفهد سماح لم تشبه المواعد
(3)
وقيسا بأعلى حضرموت نجمته   فنعم أبو الأضياف واللّيل راكد

ويتغنّى عديّ بن زيد بجمال نديمه ووسامته من خلال حديثه عن الخمر .

(5)   (4)
فاستباها أشمّ خرق كريم   أريحيّ غمند ر غرنيق

ونفيد من زهير بن أبي سلمى أنّ النّدمان كانوا يأخذون زينتهم عند مجلس الخمر فيتطيّبون ويرتدون البرود الطويلة .

---

1) الدّيوان 292
2) الدّيوان 98
3) الدّيوان 240 . وله أيضا في ندمائه الذين لا حقد بينهم :
وفتيان صدق لا ضغائن بينهم   وقد جعلوني فيسحاها مكرّما
4) (ورد في الهامش لعلّ كلمة غمندر مصحّفة عن غميدر ، وهي صفة للغلام النّاعم) .
5) الدّيوان 77 .

وقد أغدو وعلى ثبة كرام نشاوى واجدين لما نشاء
لهم راح وراووق ومسك تعلّ به جلودهم وماء
يجرّون البرود وقد تمشّت حميّا الكأس فيهم والغناء (1)

كما يستحبّ في النّديم أن يحسن اغتنام ملذات الحياة ، فهذا لبيد بن ربيعة ينصح بمنادمة النّديم الذي يحسن معاملة جليسه ، والشّرب الذين يغتنمون ملذات الحياة .

وان تشرب فنعم أخو النّدامى كريم ماجد حلو النّدام
وفتيان يرون المجد غنما صبرت لحقّهم ليل التّمام (2)

وقال عبدة بن الطّبيب يمدح نديما له بأنّه يمتاز بالجدّية ساعة الجدّ ، كما أنّه يحسن اللهو واغتنام الملذات .

خرق يجدّ اذا ما الأمر جدّ به مخالط اللّهو واللّذّات ضلّيل (3)

وعلى أنّ اغتنام الملذات صفة محمودة في النّديم ، الاّ أنّ هذا لا يعني السماح له بالعربدة في المجلس كما قد يفهم من ذلك . فمن الخصال المحمودة المحبّذة في النديم ، تجنّب العربدة كما نفيد من قول الأعشى في مدح ندمائه :

وهم ماهم اذا عزّت الخمر وقامت زقاقهم والحقاق
فاذا جادت الدّجى وضعوا القدح وجنّ التّلاع والآفاق
لم يزدهم سفاهة شربة الكأس ولا اللّهو بينهم والسّباق (4)

ومن الصّفات التي نسبها الشّعراء الجاهليون الى ندمائهم ، بياض الوجه ، ولعلّهم يشيرون بذلك الى شرف النّديم ، فجبهته تتألّق بياضا لأنّه لم يلحق به

1) الدّيوان 11
2) الدّيوان 132
3) المفضليات 290
4) الديوان 143

عار ، كما أنّه مشهور بين قومه كالفرس الأغر لأنّه هو الذي يهبّ لنجدتهم ، قال الأعشى :

وندامى بيض الوجوه كأنّ الشّرب منهم مصابيح أفناق
فيهم الخصب والسّماحة والنّجدة فيهم والخاطب المصلاق
وأبيّون ما يسامون ضيما ومكيثون والحلوم وثاق
وترى مجلسا يغصّ به المحراب كالأسد والثّياب رقاق (1)

ويشبّه طرفة بن العبد ندماءه بالنّجوم لبياضهم في قوله :

ندامايّ بيض كالنّجوم ، وقينة تروح علينا بين برد ومجسد (2)

ويردّ حسّان بن ثابت على عاذلته على الخمر أنّ مايشدّه الى مجالس الشّراب هو حبّه لحديث الندمان وسماع الغناء ، كما يذكر أنّه لا يسيء الى نديمه على السكر .

تقول شعثاء لو تفيق من الكأس لألفيت مثري العدد
أهوى حديث النّدمان في فلق الصّبح وصوت المسامر الغرد
يأبى لي السّيف واللّسان وقوم لم يضاموا كلبدة الأسد
لا أخدش الخدش بالنّديم ولا يخشى جليسي اذا انتشيت يدي
ولا نديمي الغثّ البخيل ولا يخاف جاري ماعشت من وبد (3)

وتباهى الشّمراء بتسامحهم مع النّديم وكثيرا ما أكّدوا تعلّقهم بندمائهم . قال امرؤ القيس :

وأخي اخاء ، ذي محافظة ، سمح الخليقة ماجد الأصل

---

1) الديوان 144
2) الديوان 30
3) الديوان 168

حلو ، اذا ماجئت، قال : ألا في الرّحب أنت ، ومنزل السّهل
نازعته كأس الصّبوح ، ولم أجهل مجدّة عذرة السرّ جل
انّي بحبلك واصل حبلي ، وبريش نبلك رائش نبلي
مالم أجدك على هدى أثر ، يقرو مقصّك قائف ، قبلي
وشمائلي ماقد علمت وما نبحت كلابك طارقا مثلي (1)

ويتحسّر الجاهلي على فراق نديمه . ويحزن عليه أكثر من حزنه على ذويه وأهله . ذلك لأنّه هو الذي يختار النّديم الذي يوافق طبعه ويأنس به في المجالس .

فهذا عبيد بن الأبرص يذكر بأسى أهله الصّالحين ، ويخصّ من بينهم ندمائه ، وكيف لا يذكرهم وهم من خيرة قومه .

تذكرت أهلي الصّالحين بملحوب، فقلبي عليهم هالك جدّ مغلوب
— — —
شهدت بفتيان كرام عليهم حباء لمن ينتابهم غير محجوب
وخرق من الفتيان أكرم مصدقا من السيف قد آخيت ليس بمذروب
فأصبح منّي كلّ ذلك قد مضى فأيّ فتى في النّاس ليس بمكذوب (2)

وعند ما حبس عبد يغوث الحارثي ، فانّه لم يذكر الاّ نداما ه رغم كثرة أهله وولده ، وماله ، فقال يصف حنينه اليهم وحسرته على فراقهم ، ويذكر أسماء هم .

فياراكبا امّا عرضت فبلّغن نداماي من نجران أن لا تلاقيا
أبا حرب والأيهمين كلاهما وقيسا بأعلى حضرموت اليمانيا (3)

1) الدّيوان 153
2) الدّيوان 37 - 38
3) المختار من قطب السّرور 98

ويذكر الرّبيع بن ضبع الفزاري ندماءه بأسى وهو في أخريات أيّامه فيقول :

ألا يا لقومي قد تبدّد اخواني ندامايَ في شرب الخمور واخواني (1)

ومثله قول النّابغة الجعدي الذي كان لا يتحسّر الّا على ذهاب ندمائه ، ويذكر أنّه فقد طعم العيش بفقدانهم .

تذكّرت شيئا قد مضى لسبيله ومن حاجة المحزون أن يتذكّرا
نداماي عند المنذر بن محرّق أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا
يردّ علينا كأسه وشواءه مناصفة والشرعبيّ المحبّرا
وراحا عراقيا وريطا يمانيا ومعتبطا من مسك دارين أذفرا
أولئك اخواني مضوا لسبيلهم وأصبحت أرجو بعدهم أن أعمّرا (2)

ويبلغ الأسى بمهلهل بن ربيعة بعد فقدان نداماه مايجعله يزهد في الحياة بعدهم ،فيقول :

ما أرجي بالعيش بعد ندامى قد أراهم سقوا بكأس حلاق (3)

نلاحظ ممّا تقدّم أنّ الشّباب الميسور في البيئة الجاهلية لم يكن يلجأ الى الخمر هروبا من المشاكل والهموم ، بل كان يتعاطاها كونها متعة من متع حياته القاسية. فهو يعقد لها المجالس ،وينتقي لها ندماء من سادة القوم ،ويستمتع في المجلس بحسن حديث نديمه الكريم ،الوسيم ،واذا حدث وفقده ،فانّه يبكيه . ويحزن لفراقه، ويرثيه . شعرا ان كانت له ملكة شعرية .

1) المختار من قطب السرور 99

2) نفسه 98

3) نفسه 99 .

كما نلاحظ أنّ الصّفات التي امتدح بها النّديم عموما هي الكرم والشّجاعة والتّسامح ، وهي من صفات المروءة التي ترفع شأن الانسان في الجاهلية . والمروءة عند الجاهليّين هي بمثابة الدّين عند المسلمين .(1)

ويعتبر مدح النّديم والتّغنّي بصفاته الفاضلة مدحا للذّات بطريقة غير مباشرة ، وذلك لأنّ النّديم ندّ لنديمه ، فالشارب يختار الشخص الذي يوافق طباعه لمنادمته ، ويرى أحد الدّارسين ، أنّ الأعشى عند مدحه لنديمه كان لا يقصد في حقيقة الأمر شخصا آخر غيره ، بل انّه كان يفتخر بنفسه .(3) ولهذا تباهى الشّعراء بمنادمة الملوك ، فالشاعر يعني بقوله أنّ الملك أعجب به دون غيره ، فانتقاه لما يمتاز به من صفات حميدة وشخصية فذّة ، فرشّحه لمنادمته . وبذلك فانّه يصبح من المقرّبين لديه .

واذا انتقلنا الى العصر الاسلامي فانّنا نجد ربيعة بن المقروم يصف ندمانه بأنّهم فتيان صدق كما تقدّم مع الأعشى .

(4)
وفتيان صدق قد صبحت سلافة اذا الدّيك في جنح من الليل ثوّبا

ويفخر حارثة بن بدر بمنادمة فتيان كرام من بكر بن وائل ، هم من أشراف قومهم ، يمتازون بالكرم والشّجاعة ، وهم أصحاب مجد وجوههم مشرقة تتلألأ في المجالس .

---

1) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 574

2) ايليا حاوي

3) ينظر فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب : 45 - 46 .

4) المختار من قطب السّرور 128 .

وأسحم ملآن جررت لفتية كرام أبوهم خير بكر بن وائل

وأطولهم كفًّا وأصدقهم حيا وأكرمهم عند اختلاف المناصل

من المرشديين الذين اذا انتدوا رأيت نديًّا جوّهم غير خامل

فمالهم زين لهم ووجوههم تزين الذي يأتونه في المحافل

فسقيا ورعيا لابن عمرو بن مرثد سليمان ذي المجد التليد الحلاحل (1)

وللمجير السلولي في قوله أنّه متسامح مع النّديم لا يلومه ولا يعذله على سوء تصرّفه عند السّكر .

أصحب الصاحب ماصاحبني وأكفّ اللّوم عنه والعذل

واذا أتلف شيئا لم أقل أبدا ياصاح ماكان فعل (2)

بل انّ حارثة بن بدر يرى أنّ مسامحة النديم من حقّه عليه ، ومن آداب المنادمة ، يقول :

وان سبّني جهلا نديمي لم أزد على : اشرب سقاك الله طيبة النّشر

أرى ذاك حقّا واجبا لمنادمي اذا قال لي غير الجميل من السكر (3)

نلاحظ ممّا تقدم أنّ الصّفات المحبذة في النّديم تتمثل في الشجاعة والكرم والرزانة وكرم الأصل ، وهي ذاتها الصّفات التي راعاها الجاهليون عند اختيار ندمائهم . كما أنّهم عدّوا التّسامح واجبا على النّديم مع نديمه .

واذا تصفّحنا الخمريات الأموية ، فانّنا نجد المودّة تجمع بين النّدماء ، ويفخر شعراء الخمر في هذا العصر أيضا بأنّهم يختارون ندماءهم من أشراف القوم وساداتهم . فهذا ابن أرطأة يمدح نديمه الوليد بن عقبة بن أبي معيط بكرم نسبه حيث يقول :

---

1) الأغاني 23 : 471 - 472 .
2) نفسه 13 : 60 - 61
3) نفسه 23 : 498 .

اصبح نديمك من صهباء صافية   حتّى يروح كريما ناعم البال
واشرب هديت أبا وهب مجاهرة   واختل فانّك من قوم أولي خال
أنت الجواد أبا وهب اذا جمدت   أيدي الرجال بما تحويه من مال
لولا رجاؤك قد شمّرت مرتحلا   عنسا تعاقب تخويدا بارقال (1)

وقال أبو جلدة اليشكري يصف حنينه الى يوم شرب فيه مع نديم كريم من بني يشكر بتستر احدى مدن خوزستان .

ألا ربّ يوم لي ببست وليلة   ولا مثل أيّامي المواضي بتستر
غنيت بها أسقي سلاف مدامة   كريم المحيّا من عرانين يشكر (2)

نلاحظ ـ ممّا تقدّم ـ اهتمام الشعراء بنسب النّديم ،كما أنّهم يمتدحون فيه صفة الجود ،قال الأخطل : (3)

وشارب مربح بالكأس نادمني   لا بالحصور ولا فيها بسوّار

---

1) الأغاني 2 : 223
وقال أبو جلدة اليشكري في نديمه سليمان بن عمرو البكري يتغنّى بجوده وكرم نسبه :

اذا كنت مرتادا نديما مكرما   نماه سراة من سراة بني بكر
فلا تعد ذا العليا سليمان عامدا   تجد ماجدا بالجود منشرح الصدر
كريما على علاته يبذل النّدى   ويشرب بها صهباء طيّبة النّشر

ويفخر الوليد بن يزيد بندماء له من بني أميّة فيصفهم بأنّهم أهل مجد وحسب .

في فتية من بني أميّة أهل المجد والمأثرات والحسب
مافي الورى مثلهم ولا بهم   مثلي ولا منتم بمثل أبي

وتغنّى الأقيشر أيضا بنسب نديم له يدعى قدامة بن جعدة (ينظر الأغاني 11 : 252) .

بل يذهب الى التّأكيد بأنّه لا يشرب الخمر الاّ مع أشراف القوم فعلا ونسبا .

لا أشربن أبدا راحا مسارقة   الاّ مع الغرّ أبناء البطاريق .

2) الأغاني 11 : 310
3) الدّيوان 2 : 116 .

وكان للشمردل نديم كريم يدعى ديكل ، فقال أنه يفضل منادمة ديكل على منادمة الملوك لما امتاز به من كرم جعله لا يطيل المكاس في شراء الناقة التي يأكلون ، ولما امتاز به من خفة يد في انضاجها .

شربت ونادمت الملوك فلم أجد　　على الكأس ندمانا لها مثل ديكل
أقل مكاسا في جزور وان غلت　　وأسرع انضاجا وانزال مرجل
ترى البازل الكوماء فوق خوانه　　مفصلة أعضاؤها لم تفصل (1)

والى جانب هذه الخلال اشترط شعراء الخمر الأمويون في النديم الرزانة في المجلس ، فمدحوا في النديم اعراضه عن أعراض الناس بالبهتان ، ولعلهم انما ألحوا على نزاهة الحديث ، لأن في السكر من لغو الحديث ما لا نفع فيه . قال ابن أرطأة في نديم له :

لا تعدميني نديما ماجدا أنفا　　لا قائلا قاذفا خلقا ببهتان (2)
أغر راووقه ملآن صافية　　تنفي القذى عن جبين غير خزيان

ويذكر الأخطل أن نديمه لا يأتي ما يلام عليه عند الشرب .

واذا تعاورت الزجاجة لم يكن　　عند الشراب بفاحش متقلب (3)

ويشير الى شهامته وكرمه مع ندمائه فيقول :

ولقد غدوت على الندمان لا حصر　　يخشى أذاه ولا مستبطئا زمر
طلق اليدين كبشر أو أبي حنش　　لا واغل حين تلقاه ولا حطر (4)

وللوليد بن يزيد يصف علاقته الطيبة مع ندمائه ، فهم يكنون له الود والمحبة ، وهو كريم يجود عليهم بماله .

---

1) الأغاني　13 : 358
2) نفسه　2 : 221
3) الديوان　1 : 28
4) نفسه　3 : 251

سقيت أبا كامل من الأصفر البابلي
وسقيتها معبدا وكلّ فتى فاضل
لي المحض من ودّهم ويغمرهم نائلي (1)

وفيما يروى عن أبي جلدة اليشكري ، أنّه كان ينادم ابن عمّ له من بكر بن وائل فحدث مرّة أن سكر ابن عمّه هذا ، فعربد عليه ، وشتمه ، فمازاد اليشكري على أن سقاه وسامحه ، وقال معبّرا عن ذلك :

أبى لي أن ألحى نديمي اذا انتشى وقال كلاما سيّئا لي على السكر
وقاري وعلمي بالشّراب وأهله وما نادم القوم الكرام كذي الحجر
فلست بلاح لي نديما بزلّة ولا هفوة كانت ونحن على الخمر
عركت بجنبي قول خدني وصاحبي ونحن على صهباء طيّبة النّشر
فلمّا تمادى قلت خذها عريقة فانّك من قوم جحاجحة زهر
فمازلت أسقيه وأشرب مثل ما سقيت أخي حتّى بدا وضح الفجر
وأيقنت أنّ السّكر طار بلبّه فأغرق في شتمي وقال وما يدري
ولاك لسانا كان اذ كان صاحيا يقلّبه في كلّ فنّ من الشّعر (2)

ومن آداب المنادمة حسب رأي يزيد بن معاوية ، عدم ايقاظ النّديم ، وعدم الالحاح عليه في شرب فضلة الكأس . يقول في ذلك :

وانّ نديمي غير شكّ مكرّم عليّ وعندي من هواه الذي أرضى
ولست لمن قد نام عندي بموقظ ولا مسمع يقظان شيئا من الأذى
ولست له في فضلة الكأس قائلا ليشربها شكرا بحسن وقد أبى
ولكن أفدّيه وأكرم وجهه وأشرب ما أبقى وأسقيه ما اشتهى (3)

ويكون الندمان كاخوان أشقّاء ، طباعهم وميولهم واحدة ، أمّا النّديم الثّقيل فينفرون منه .

---

1) الدّيوان 60
2) الأغاني 11 : 309
3) حلبة الكميت 40

وقد كان لأبي جلدة اليشكري نديمان شقيقان وكان لهما شقيق ثالث يدعى ثعلبة ، وكان ثقيلا بخيلا يؤذيهم ويضايقهم في المجالس ، فضجر منه أبو جلدة وقال فيه :

أحبّ على لذاذتها شقيقا ... وأبغض مثل ثعلبة الثّقيل
له غمّ على الجلساء مؤذ ... نوافله اذا شربوا قليل (1)

وحسب رأي يزيد بن معاوية ، أنّ الكأس كالأخوّة تجمع وتؤلّف بين الشّرب كما نفيد من قوله :

أقول لصحب ضمت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنّم
خذوا ماصفا من عيشنا قبل فوته ... فكلّ وان طال المدى يتصرّم (2)

وتتمثّل لذّة الحياة عند يزيد بن معاوية في احتساء كؤوس المدام ، ومحادثة النّدامى . يقول :

هما ماهما لم يبق شئ سواهما ... حديث صديق أو عتيق رحيق ،
وانّي من اللّذات دهري لقانع ... بحلو حديث أو بمرّ عتيق (3)

لقد ظل شعراء الخمر في العصر الأموي يتفنّون بصفات النّديم التي أشاد بها الشّعراء الجاهليون والاسلاميون في خمرياتهم ، كالكرم ، والتّسامح ، غير أنّنا نلاحظ اهتمامهم بنسب النّديم أكثر من سابقيهم ، ولعلّ مرجع ذلك الى ماساد المجتمع آنذاك من اختلاط الأجناس وعلى أنّ الاسلام عمل على محو الفوارق بين النّاس ، الا أنّ الأمويّ ظل يتعصّب لجنسه ولأصله .

---

1) الأغاني 11 : 295 - 296 .
2) المختار من قطب السرور 354
3) حلبة الكميت 122 .

كما نفيد اهتمام شعراء الخمر في هذا العصر بآداب المنادمة من احترام النّديم، والتّسامح معه، وعدم ايقاظه عند نومه في المجلس، وعدم الالحاح عليه في شرب فضلة الكأس .

ويبدو لنا أنّ الشعراء العبّاسيّين - كأسلافهم - ظلّوا يمتدحون في النّديم الأخلاق الفاضلة من كرم وشجاعة وتسامح مع النّدماء، كما أنّهم أولوا اهتماما لنسب النّديم، قال مسلم متحدّثا عن ندمائه .

وسادة سراة ما فيهم مسود
كلّهم جليد مافيهم حريد (1)

كما تغنّى بشار (2) ومطيع بن اياس (3) بنسب ندمائهم .

ونلاحظ أنّ الاهتمام بالنّسب ظلّ سائدا عند العرب حتّى في العصر العبّاسي، فحتّى بشار الفارسي الأصل يفخر بأنّه من قريش العجم (4) .

ونفيد من هذا، الأهمية التي كانوا يولونها للأنساب في العصر العبّاسي، ولهذا راح شعراء الخمر يفخرون بكرم نسب النّديم .

وقد شاع عن أصحاب الخمر في العصر العبّاسي البذل والعطاء في مجالس الخمر، فلا " يستأثر أحدهم على صاحبه بما احتوت يداه من مال أو غيره، وانّما كان كلّ ما عندهم شركة بينهم، حتّى الجواري

---

1) الدّيوان 157

2) ينظر ديوانه 3 : 138

3) ينظر الأغاني 13 : 321

4) ينظر ديوانه 4 : 179 .

والغلمان في بعض الأحيان (1) .

وتغنّى مسلم بن الوليد بشجاعة ندمانه ، وأدبهم في قوله :

ومهذّب بين أكارم لأكارم ... أدباء حازوا نجدة وكمالا (2)

وأكد الشاعر كثيرا هذا المعنى ليظهر لنا أنه لا يجالس إلاّ الشجعان الذين يهبون لنصرة من يستنجد بهم (3) .

ولعلّه من الطبيعي - فيما يبدو لي - أن يفتخر الشاعر بمنادمة الشرب الكرام الشجعان ، فالنديم كالصديق يتمّ اختياره من طرف مشاربه ، لهذا فهو ينتقي من الندمان من يتّسم بالبذل وكرم النسب ، والشجاعة ، فليس بعد " استجادة الشراب وتهيئة آلته وزينة مجلسه مايهتمّ له صاحب المجلس ويحتفي به مثل اختياره لنديمه أو لندمائه على الشراب (4) .

---

1) ألحان الحان : 6

قال حماد عجرد يشيد بكرم نديمه في قوله :

ربّ يوم بغساء ... ليس عندي بذميم

قد قرعت العيش فيه ... مع ندمان كريم

ولبشار في هذا المعنى قوله :

ونديم نادمته عامريّ ... تزيد عين الندى أو يزيدا

2) الديوان 160

3) ينظر ديوانه 107 ، 189

4) ألحان الحان 252 .

والى جانب اهتمام شعراء الخمر في العصر العبّاسي بالصّفات الحميدة للنديـــم - التي تقدمت الاشارة اليها من كرم النسب والجود والشجاعة - نلاحظ لدى الشّعراء اهتماما بالغا بجمال النّديم ووسامته ، فاقوا فيه غيرهم من الشعراء . فهذا أشجــع السّلمي يتغنّى بوسامة ندمانه في قولــه :

ولقد طعنت اللّيل في أعجــازه بالكأس بـــين غطارف كالأنجــــم

يتمايلون على النعيم كأنّهـــــم قضــب من الهندي لم تتثلّم (1)

ولمسلم بن الوليد في وصف ندمائــــــه : (2)

فاذا نظرت رأيت قوما ســادة ونجابــة ومهابـــة وجمــــالا

كما امتدح الشعراء العبّاسيون في النّديـم حسن الحديث ، وميلـه الى الفكاهــة والطرب ، كما نلاحظ من قــول بشــــار .

ويوم في ذرى جشم بن بكر نعمت به وندمانــي زيـــــاد

اذا ما شئت غنّاني كريـــــم لــه حسب وليـس لــه تــــلاد

يصبّ لسانه ظرفا علينـــا كما تساقط النّطف الـبّـداد (3)

واهتم الشعراء أيضا بأدب الشرب ، فاستحسنوا أن يتبادل النّدماء التّحيّة ، وأن يتعاطوا كؤوس الخمر . قال العبّاس بن الأحنف يصف سيرة ندمائه في المجلس :

فتيان صدق كلّهم قولــــه : حيّاكم اللــه وخـذ ذا وهــــات (4)

ونفيد من احدى قصائد مسلم بن الوليد أنّه كان يسهر على خدمة ندمائه ، فهو الذي يوزّع عليهم الكؤوس ، ويخاطبهم بقولــه : (5)

خذاها فأمّا أنت فاشرب وهاتها لأسقيهــا هذا محقّقة بكـــرا

---

1) الأغانـــي 18 : 157

2) الدّيـوان 161

3) الدّيـوان 3 : 54 وله أيضا في هذا المعنى ينظر ديوانه 4 : 208

4) الدّيـوان 84 .

5) الديـوان 39 .

ومن آداب المنادمة أيضا أن يشارك الشارب نديمه في احتساء الرّاح ، وأن لا يفرده بها فيشربها لوحده ، قال مسلم :

لا أوحش الخمر من شخص ويمنعه ولا أوحّد بالصهباء ندماني (1)

كما يحسن للشرب الذين يراعون آداب المنادمة اجتناب العربدة عند انتشائهم ، قال مسلم في ندمائه عند انتهاء المجلس .

حتّى انتشوا وأقاموا مجلسهم محمود

من قال مثل هذا فانّه سعيد

هذا الخلود عقيب لو دام لي الخلود (2)

وتتخلّل الخمريات العبّاسية مراث في النّدماء ، فلا يذكر المرء نديمه الكريم الذي اختطفه الموت الاّ بالحسرة والأسى ، قال بشار بن برد في نديم له :

الق * حربا * فحيّه ثمّ سله عن القدح

أقريب مزاره أم مع النّجم قد طمح

ان يكن في السّماء أعرضت عنه ولم ألح

قد وفى لي المفضل بن عباد وما بلح

و وزنّاه بالكرام فساوى وقد رجح (3)

فله الفضل حيثكما ن على من وأى وشح

وتزخر خمريات بشار بالبكاء على فراق النّدماء الأخلاء (4) ، وتبدو عاطفة الشاعر صادقة ، فهو لا يفتأ يذكر ندمانه الذين أودى بهم الدهر ، ثمّ يدعو بالشراب ليسلو فقدانهم ، فهو لا يملك دواء لأساه عندما تهيج به الذّكرى غير خمره .

---

1) الديوان 100

2) نفسه 158

3) الدّيوان 2 : 92

4) ينظر ديوانه : 3 : 142 ، 4 : 106 - 107 ، 4 ، 193 .

فاشرب على موت اخوان رزئتهم   بباب المنيّة باب غير مسدود (1)

ويذكر مطيع بن اياس أنّه يعقد مجالس المشرب واللهو والمرح ، مع فتيان من سادة القوم ، الاّ أنّ ذلك كلّه لا يعوّض عليه نديما افتقده ، يقول :

كم ليلة بالكرخ قد بتّها   جذلان في بستان صبّاح

في مجلس تنفح أرواحه   ياطيبها من ريح أرواح

في فتية بيض بها ليل ما   ان لهم في الناس من لاح

لم يهنني ذلك لفقد امرىء   أبيض مثل البدر وضّاح

كأنّما يشرق من وجهه   اذا بدا للسي ضوء مصباح (2)

وممّا يروى عن مطيع بن اياس أيضا أنّه كان مرة في مجلس شراب بدير كعب ، فتذكّر ندمانا أخلاء له افتقدهم ، فعبّر عن أساه لذكراهم ، وذكر أسماءهم في هذه المقطوعة وعلّقها في حائط الدّير .

طربة ماطربت في دير كعب   كدت أقضي من طربتي فيه نحبي

وتذكّرت اخوتي وندامى   فهاج البكاء تذكار صحبي

حين غابوا وشتّت الدهر شملي   ونأوا بين شرق أرض وغرب

وهم ماهم بحسبي لا أبغي   بديلا بهم لعمرك حسبي

الملحة الخير منهم وأبو المنذر خلّي وما لك ذاك تربي (3)

وقال أشجع السّلمي في تجاور قبري الوليد وزبيد ، وقد كانا نديمين .

مررت على عظام أبي زبيد   وقد لاحت ببلقعة صلود

وكان له الوليد نديم صدق   فنادم قبره قبر الوليد (4)

---

1) الديوان 3 : 143 . وله أيضا في هذا المعنى قوله :
فاشرب على تلف الأحبّة انّنا   جزور المنيّة ظاعنين وحقّطا

2) الأغاني 13 : 321

3) شعراء عباسيون 36

4) المختار من قطب السرور 306 .

وقد يحدث أن يرحل الشاعر من مكان الى آخر، فيبتعد عن ندمائه الذين ألف مجالستهم على الخمر، فيشعر بالغربة بين ندمائه الجدد لاختلاف طباعهم عن طباعه، فيتحسّر على فراق ندمائه الذين ألفهم، ويصف حنينه الى مجالستهم، ويروى عن حمّاد عجرد أنّه لمّا خرج الى البصرة، عاشر جماعة من أدبائها، الاّ أنّه لم يستطب منادمتهم، فقال يصف شوقه الى ندمائه الذين يرتاح اليهم، والذين منهم حمّاد الرّاوية ويحيى بن زياد، ويخصّ منهم مطيعا بن إيّاس .

لست والله بناس لمدايح بن اياس
ذاك انسان له فضل عن كلّ أناس
غرس الله له في كبدي أحلى غراس
فاذا ما الكاس دارت واحتساها من أحاسي
كان ذكرانا مطيعا عند ها ريحان كاسي (1)

نلاحظ ممّا تقدّم أنّ شعراء الخمر في العصر العبّاسي أبدوا اهتماما بالغا بوسامة النّديم فاقتوافيه متقدّميهم الذين أشاروا في بعض الأحيان الى أنّ ندماءهم جمعوا بين جمال الوجه، وحسن الأخلاق .

كما نفيد من خمرياتهم أنّهم التزموا بآداب المنادمة كخدمة النّديم وسقيه، وعدم افراده بالكأس، وتجنّب الاساءة اليه، ويبدوا أنّ مجالس الخمر كان يسودها الوئام، فلا يسمع فيها الاّ تبادل التحايا بين الشّرب، ولا يرى فيها الاّ الأيدي الممتدّة لاستلام الكؤوس أو تقديمها، ولهذا كان يصعب على النّديم أن يفارق الشرب الذين تجمعه بهم أخوّة الكأس، فكان يصف شوقه اليهم عند الابتعاد عنهم، ويبكيهم متحسّرا على فراقهم اذا أودى الموت بهم، وتتخلّل الخمريات العبّاسية مراث مؤثّرة في النّدماء .

---

1) الأغاني 13 : 320 .

ونلاحظ من خلال خمريات أبي نواس اهتماما كبيرا بالنّديم فقد كانت لذة الشاعر تكتمل عند ما يشرب خمره " مع نفر يكونون جمالا في عينيه أو غناء في أذنيه أو سرورا في قلبه ".(1)

وكمتقدّميه من شعراء الخمر، نجده يعمد الى الفخر بكرم أصل نديمه كما جاء في قوله :

(2)
نازعها ساده غطارفة كأنّهم من شقيقة شقّوا

وقال يفخر بنديم له من خزاعة :

وندمان صدق من خزاعة في الذّرا أغرّ، كضوء الصّبح، حلو الشّمائل
يهين رقاب المال في كلّ لذّة وليس بسمّاع لقول العواذل
(3)
كريم، مطير الكفّ، يهتزّ للنّدى كما اهتزّ سيف في أكفّ الصياقل

ويبدو أنّ صفة كرم النّسب كانت أوفر حظّا - عند أبي نواس - من غيرها من الخلال الحميدة التي امتدح بها النّديم .(4) ولعلّ مرجع ذلك الى أنّ مجالس الخمر في العصر العبّاسي كان يسودها التّفاخر بالنّسب، فكان الشاعر يعاني من ذلك، فراح يؤكّد كرم نسب ندمائه، ويدّعي أنّهم جميعا من خيرة القوم، لا يوجد بينهم لئيم .

(5)
على شباب ما فيهم خرق ولا سفيه، ولا أخو زلل

كما اهتمّ النواسي بكرم نديمه .

(6)
وشارب مربح بالكأس نادمني لا بالحصور، ولا فيها بسوّار

ولشدّة تعلّق الشّاعر بالخمر، فانّه ينزّهها عن اللّئيم، ولا يرشّح لشربها الّا الكريم من النّاس .

---

1) أبو نواس لعمر فروخ 121 - 122
2) الديوان 53
3) نفسه 185
4) ينظر ديوانه 50، 55، 75، 102، 130، 132، 147، 169، 211 .
5) الدّيوان 147
6) نفسه 150

ولا تسق المدام فتى لئيما فلست أحل هذي للئيم
لأن الكرم من كرم وجود وماء الكرم للرجل الكريم (1)

بل ان النواسي يجعل خمره تتوسل اليه راجية منه أن لا يختار لها من الندمان الا العربي الكريم الذي يبذل فيها ماله بسخاء ولا يقطب وجهه ان شمها ، ولا يكون حدثا صغيرا ، ولا بعيدا عن الأدب .

لا تمكني من العربيد ، يشربني ولا اللئيم الذي ان شمني قطبا
ولا المجوس ، فان النار ربهم ولا اليهود ، ولا من يعبد الصلبا
ولا السفال الذي لا يستفيق ، ولا غر الشباب ، ولا من يجهل الأدبا
ولا الأراذل ، الا من يوقرني من السقاة . . ولكن اسقني العربا
ياقهوة حرمت الا على رجل أثرى ، فأتلف فيها المال والنشبا (2)

وأشار أبو نواس الى شجاعة ندمانه في قوله :

فقمنا بها في فتية خضعت لهم رقاب صناديد الكماة البطارق (3)

واضافة الى كل هذه الصفات ، فان ندماء النواسي يمتازون بحسن الأدب وكرم الاخلاق . قال يصفهم :

وفتية لا المراء يشملهم زكوا فعالا معا ، ومنتسبا
شبوا على أدبة كأصورة المسك مباحا ، تترى ومنتهبا (4)

كما يمتاز ندماء أبي نواس بحسن الحديث ، فقد جاء في وصفه لمجلسهم :

يامجلسا ضم فتيانا غطارفة حازوا البشاشة والانعام والكرما
وجوههم فيه ريحان لمجلسهم ولفظهم لؤلؤ في سلكه نظما (5)

---

1) الديوان 144
2) نفسه 92
3) نفسه 171
4) نفسه 50
5) نفسه 225 .

ويمدح نديماً له بحلاوة نكته وملحه فيقول فيه :

وعاطها أحمداً تماط فتى تقصر عن وصف حسنه المدح (1)
يشوقني وجهه اليها كما يدعوك حتى تقهقه الملح

وما كانت كل هذه الصفات لتجعل النواسي يغفل عن وصف ندمائه بجمال الوجه ووسامته، وكذا التأنق في الملبس. وعلى أن الشعراء العباسيين تغنوا بجمال النديم - كما تقدم - الا أننا نجد النواسي يبالغ في التغني بنعومة النديم ورشاقته وتثنيه في مشيته، فجاءت أبياته في وصف جمال النديم لا تختلف في شيء عن المقطوعات الغزلية التي يشيد فيها الشاعر بجمال فاتنته، يقول أبو نواس :

وفتية كنجوم الليل أوجههم من كل أغيد للغماء فراج (2)
أنضاء كأس، اذا ما الليل جنهم ساقتهم نحوها شوقا بازعاج

ويذهب الى تشبيه نديمه ببلقيس حسن يقول :

نازعتها واضح الخدين، معتدلا يحكي ببهجته للناس بلقيسا (3)
مقرطق، خرسنوه في حداثته لم يغد والله في مرو ولا طوسا !

ويستن أبو نواس للندماء قواعد يعدها من آداب المنادمة، فيذكر أنه لا يسقي نديمه الا بعد أن يتفداه.

حتى اذا ما بدا سهيل وحان من ليلنا ارتحال
نبهت طلق اليدين، سمحا يمطر من كفه النوال

— — —

(4)
فقالت : خذها فدتك نفسي فكل شيء له زوال

---

1) الديوان 44
2) نفسه 48
3) نفسه 203
4) نفسه 129 - 130

ويصف ما تحمله هذه التّفدية من مودّة واخلاص للنّديم فيقول :

رفعت له النّداء بقم فخذها وقد أخذت مطالعها النّجوم
بتفدية تذال النّفس فيها وتمتهن الخؤولة والعموم (1)

ومن آداب المنادمة أيضا، عند أبي نواس، عدم الالحاح على النّديم في شرب الخمر، وفهم مراده من مجرّد اشارته، قال يصف معاملته لنديمه :

ولست بقائل لنديم صدق وقد أخذ النّعاس بمقلتيه
تناولها، والاّ لم أذقها فيأخذها، وقد ثقلت عليه
ولكنّي أدير الكأس عنه وأصرفها بغمزة حاجبيه
وأحبسها الى أن يشتهيها وآخذها برفق من يديه
فهذا ما حييت له، وانّي أبرّ لمثله من والديه (2)

وحسب رأي الشّاعر أنّ في الكأس ما يشغل الشرب، فيطالبهم بجعل حديثهم كلّه عن الخمر، ويبدو لنا من هذا تعلّق الشّاعر بخمره .

نفس المدامة أطيب الأنفاس أهلا بمن يحميه عن أنجاس
فاذا خلوت بشربها في مجلس فاكفف لسانك عن عيوب النّاس
في الكأس مشغلة، وفي لذّاتها فاجعل حديثك كلّه في الكاس (3)

ويدعو الشّاعر الى ترك التّفاخر بالنّسب في مجلس الخمر، ويذكر أنّه لهذا السّبب يفضّل منادمة الفرس على العرب، بعد أن كان يفخر بمنادمة ذوي الحسب من العرب .

راح الشّقيّ على الربوع يهيم والرّاح في راحتي، وردت أهيم
بمزمز ممن غدوا بسدفة ليلة واللّيل ملتبس الظّلام، بتهيم

— — —

1) الديوان 55
2) نفسه 120
3) نفسه 221

نادمتهم ، أرتاض في آدابهم   فالفرس عادي سكرهم محسوم
ولفارس الأحرار أنفس أنفس   وفخارهم في عشرة معدوم

— — —

وإذا أنادم عصبة عربيّة   بدرت إلى ذكر الفخار تميم
وعدت إلى قيس ، وعدّت قوسها   سبيت تميم ، وجمعهم مهزوم
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم   سرّاً ، فمنطق شربهم مفهوم
لا يندبون على النّديم إذا انتشوا   ولهم إذا العرب اعتدت تسليم
وجميعهم لي حين أقعد بينهم   بتذلّل ، وتهيّب موسوم (1)

ولعلّ في هذا تدعيم لما تقدّمت الإشارة إليه ، من أنّ الشّاعر كان يتضايق لما يسود مجلس الخمر من فخر بالنّسب ، لذا يدعو إلى ترك التّباهي بالأنساب أمام النّديم .

ويستحب حسب ذوق أبي نواس شرب كلّ ما في كأس الخمر وأن لا تبقى فيها فضلة ، ويسنّ هو وندماؤه سنّة لطيفة في مجلسهم ، حيث يتّفقون على أنّ من ردّ فضلة في كأسه تصبّ على رأسه . قال أبو نواس :

وماجد في الفرع من هاشم   إذا انتمى طار بعبّاسه
نازعته القهوة في فتية   كلّهم زين لجلّاسه
سنّتهم في شربها بينهم   من ردّها صبّت على راسه
إذا حساها بعضهم لم يدع   ما يغمر الذرّة في كاسه (2)

والنّدماء الذين يلتزمون بآداب المنادمة ، ويراعون حقّ النّديم يسود مجلسهم الوئام والمحبّة ، وهذا ما يدعو إليه أبو نواس ، قال يفخر ببعض ندمائه :

هذا لذاك ، كما هذا وذاك لذا   فالشمل منتظم ، والحبل متّصل (3)

كما أنّ الشرب الذين يراعون آداب المنادمة ، ويجتمعون على الخمر يعتبرهم أبو نواس إخوانا من الرّضاعة .

---

1) الديوان 193 - 194
2) نفسه 107 .
3) نفسه 84 .

والقوم اخوان صدق بينهم نسب ... من المودّة مايرقى له نسب
تراضعوا درّة الصّهباء بينهم ... وأوجبوا لنديم الكأس ما يجب (1)

بل انّ النّديم حسب رأي أبي نواس ينسب لنديمه، ولهذا يجب أن يحسن اختياره، فلا ينادم لئيما ولا سيء خلق قال أبو نواس ناصحا شارب الخمر :

ولا تجعل نديمك في شراب ... سخيف العقل ،أو دنس الأديم
ونادم إن شربت أخا معال ... فانّ الشّرب يجمل بالقروم
وانّ المرء يصحب كلّ جيل ... وينسب في المدام الى النّديم (2)

ويرى النّواسي في شرب الخمر ألذّ متعة، الاّ أنّ هذه اللّذة لا تكتمل الاّ مع ندماء يراعون آداب المنادمة أخلاقهم فاضلة ،لهذا على النّديم حسن اختيار نديمه .

فالرّاح طيّبة ،وليس تمامها ... الاّ بطيب خلائق الجلاّس (3)

والشارب اللّبيب عند أبي نواس هو من أحسن اختيار ندمائه على الخمر .

صفو التّعاشر في مجانبة الأذى ... وعلى اللّبيب تخيّر الجلاّس (4)

ويفضّل الشاعر الانفراد بالخمر عند عدم وجود نديم مخلص ،فذلك - في رأيه - أفضل من منادمة اللّئيم .

خلوت بالرّاح أناجيها ... آخذ منها ،وأعاطيها
نادمتها اذ لم أجلد مسعدا ... أرضاه أن يشركني فيها (5)

وعدّ مهلهل بن يموت بن المزرّع هذا البيت من المسروق من شعر أبي نواس ، وقال أنّه سرق معناه من أبي الهندي في قوله :

يدي لا تعاف الكأس أنما بشربها ... ولكن تعاف الكأس مع دنس وغد
على مثلها مثلي يكون مساعدي ... فان لم أجد مثلي خلوت بها وحدي (6)

---

1) الديوان 192
2) نفسه 144
3) نفسه 105
4) نفسه 221
5) نفسه 114
6) سرقات أبي نواس 81 .

مع افادته من معنى أبي الهندي ، فانّ أبا نواس أجاد في الصّياغة ، ويمكن أن نقول أنّه تمكّن من تجاوز معنى أبي الهندي والاضافة اليه ، ذلك لأنّه لم يكتف بالاشارة الى انفراده بالخمر ، وانّما قال أنّه ينادمها ، فهو يجعل منها شرابه الذي ينعش ، كما يتّخذ منها نديما له يجالسه ويناجيه .

ويضيف مهلهل بن المورّع أنّ النّواسي أفاد من معنى أبي الهندي أيضا في قوله :

ردّا عليّ الكأس ، انّكما لا تدريان الكأس ما تجدي
ان كنتما لا تشربان معي خوف العقاب شربتها وحدي (1)

وعلى أنّ تقليده كان واضحا فيما تقدّم ، الاّ أنّ هذين البيتين لا تبدو فيهما افادته من معنى أبي الهندي ، ذلك لأنّ أبا الهندي يشير من خلالهما الى تحدّيه لندمانه الذين يمتنعون عن شرب الخمر خوف العقاب ، فيذكر أنّه لا يتحرّج من شربها بمفرده ، وأنّه لن يتركها اقتداء بندمانه الذين أصبحوا يمتنعون عن احتسائها .

وكثيرا ما كان الشّاعر يتحسّر على فراق ندمائه ، اذا حدث وفرّق بينهم الدّهر .
قال يصف الفاجعة التي حلّت به عند ما رحل عنه ندماؤه فانشعبوا .

عفا المصلّى ، وأقوت الكثب مني ، فالمربدان ، فاللّبب
فالمسجد الجامع المروءة والـ دّين عفا ، فالصّحن ، فالرّحب
منازل قد عمرتها يفعا حتّى بدا في عذاري الشّهب
في فتية كالسّيوف ، هزّهم شرخ شباب ، وزانهم أدب
ثمّ أراب الزّمان ، فاقتسموا أيدي سبا في البلاد ، فانشعبوا
لن يخلف الدّهر مثلهم أبدا علي .. هيهات شأنهم عجب
لمّا تيقنت أنّ روحتهم ليس لها ما حييت منقلب
أبليت صبرا لم يبله أحد وا قتسمتني مآرب شعب

---

1) الدّيوان 182 .

(1)

كذاك انّي اذا رزئت أخـا   فليس بيني، وبينه نسب

وامتدح أبو نواس ندماءه بتماديهم في اللهو، وعلى أنّ غيره من شعراء البيئة العبّاسية امتدحوا جرأة النّديم على اللهو في مجلس الخمر، الّا أنّ النّواسي يتجاوز ذلك، فيجعل من العبث والمجون صفة محمودة في ندمائه حيث يقول :

وفتية كمصابيح الدّجا غرر   شمّ الأنوف، من الصّيد المصاليت (2)
صالوا على الدّهر باللّهو الذي وصلوا   فليس حبلهم منه بمبتوت

وقال يحثّ ندماءه على اللّهو :

واخترت اخوة صدق   من خير هذي المهاد
شريف ابن شريف   جواد ابن جواد
فقلت لذّوا، بنفسي   أفديكم وفؤادي
والهوا نهارا وليلا   الى نداء المنادي (3)
ونقّروا اللّيل عنكم   بلذّة وسهاد

ولا يتحرّج أبو نواس من وصف مجونه في المجلس مع نديمه، فهو لا يفرّق بين النّديم وامرأة يتغزّل بها كما نلاحظ من قوله :

نبّه نديمي يوسفا   يسقيك خمرا قرقفا
غضّا تثنّى، أهيفا   أنحل جسمي دنفا
كغرّة البدر اذا الـ   شّهر بدا منتصّفا
حتّى اذا دار الكرى   في مقلتيه وغفا (4)
قبّلته عشرا على   عشر، وعشرا سلفا !

واذا ينقضي الشّاعر العبّاسي يمدح نديمه بصفات وردت عند أسلافه من شعراء الخمر، كالجود والشجاعة وكرم الأخلاق ... فانّه أصبح يمتدح فيه أيضا ميله الى اللهو، وجرأته على التّهتّك والمجون دون تستّر أو حياء .

---

1) الدّيوان 3 - 4
2) نفسه 33
3) نفسه 154 .
4) نفسه 176

ونلاحظ أن النديم يفتقد شخصيته كصديق شهم - في العصر العباسي - وبصفة خاصة عند أبي نواس الذي اهتم بجمال النديم أكثر من اهتمامه بشهامته ومروءته . فلهو يحرص على التغني بوسامته وجمال قده ، وتثنيه في مشيته ، في حين يكتفي بالاشارة الى شجاعته ، وجوده . فلم يعد النديم في العصر العباسي ، ذلك المرء الشهم الكريم ، أو الصديق الحميم ، وانما هو خل تشترط فيه صفات الجمال والاناقة ، لانه أصبح هدفا للمتعة واللهو . وما هذه الظاهرة الا صورة لمظاهر اللهو التي شاعت في المجتمع العباسي ، والتي انتشرت بصفة خاصة في مجالس الخمر .

وتجاوز أبو نواس ما ورد عند غيره من الشعراء في آداب المنادمة ، ومعاملة النديم في مجلس الخمر ، فقد وضع شروطا للمنادمة ضبطها في شعره ، فكأنه يقيد حرية الشارب الذي عليه أن يجعل حديثه كله عن الخمر ، وأن لا ينشغل بأعراض الناس ، وأن يترك التفاخر بالنسب في حضرة النديم ومن آداب المنادمة أن يحتسي الشارب كل ما في الكأس من خمر ولا يترك فضلة ، كما يطالبه بأن يكون في خدمة النديم ، يتفقده عند التسقي ، ولا يلح عليه في الشرب فيكلفه مالا ترغب فيه نفسه . ويدعو الشارب أيضا أن يكون فطنا يراعي أدنى اشارة من نديمه ليسقيه أو ليحبس الكأس عنه .

ونلاحظ من هذه الشروط التي يفرضها أبو نواس على الشارب مدى تعلق الشاعر بالخمر ، وتقديسه لها ، ويبدو ذلك في الحاحه على احترام النديم ، والتفاني في خدمته ، فالنديم - حسب رأي الشاعر - ينسب لنديمه ، والندمان اخوان تجمعهم مودة الكأس .

الخمر والعاذل

من البديهي جدّا أن نقول : ان الجاهلي شرب الخمر وتعلق بها ، الاّ أنّ هذا لا يعني أنّها كانت محبذة في المجتمع الجاهلي كلّه . بل كان هناك من رأى في شربها تمرّدا على القيم الأخلاقية ، لما يعتري شارب الخمر من تهتك وعربدة ، فذمّها البعض وتخلّى عن شربها باعتبار أنّها تسفّه الحليم ، وتذهب بعقل المرء وماله[1] ، فهذا طرفة بن العبد يشبّه نفسه بالبعير الأجرب لمّا تركه قومه ونبذوه بسبب ادمانه الخمر ، وقال في ذلك :

وما زال تشرابي الخمور ، ولذّتي ، وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي
الى أن تحامتني العشيرة كلّها ، وأفردت افراد البعير المعبّد[2]

وكانت النّساء - عموما - هنّ اللّواتي يلحين شارب الخمر في البيئة الجاهلية ، لما يبذّره من مال مقابل الحصول على شرابه ، واذا كان التّاجر لا يهب خمره التي يجلبها من أماكن نائية بأيسر ثمن ، ثمّ هناك ما يبذله الشارب من مال ، وهو في حالة سكر ، حتّى اذا صحا ، جعل تصرّفه هذا عطاء ونوالا ، وراح يفتخر بخمره التي تجعل منه جوادا كريما يبذل ماكان في حوزته . فقد ارتكب البعض المخالفات والمعاصي للانفاق على متع الحياة وملذّاتها ، والتي في مقدّمتها الخمر[3] .

ونحن لا نشكّ في أنّ كلام العاذلة كان له صداه في نفوس المدمنين على الخمر ، فقد بلغت من التّأثير فيهم ، ماجعل شعراء الخمر يفردون لها أبياتا للرّدّ عليها ، وبهذا ت تضمنت الخمريات أشعارا في الرّدّ على العواذل ، يثبت أصحابها - من خلالها - تعلّقهم

---

1) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 671 - 672 .

2) الدّيوان 31

3) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 665 .

بالخمر ،وعدم اكتراثهم بلنوم من يلحونهم على شرابهم ،ويرمون العاذل أنه لا يجاري الصدق في قوله ،وأنه يصدر أحكامه عن جهل وغواية .

الا أننا نلاحظ أن الأشعار التي جاءت في الرد على العاذل ،كانت ـ في مجملها ـ توهم بعدم اكتراث قائلها ـ كما قد يتبادر الى الذهن ـ الا أننا لا نشك في أن هذا اللوم كان سببا في صراع نفسي يعيشه الشارب ،حين يلحوه عاذله على شرابه ،باسطا أمامه مضار هذا الشراب الذي تعلق به ،وأصبح يتمسك بالحياة من أجله .

وللتخفيف من وطأة هذا الصراع النفسي ،كان الشاعر يتصدى لعاذله ، محاولا اقناع نفسه قبل غيرها أن عاذله على غير صواب ،وأنه يلحوه جهلا .

وغالبا ماكان أصحاب الخمر يبادرون بالصبوح لاستباق العواذل . كما جاء في قول متمم بن نويرة : (1)

ولقد سبقت العاذلات بشربة ريا وراووق عظوم مترع

فهو يسابق ملامة عاذلاته باحتساء باطية كبيرة من الخمر ،لأنه بشربه ،يتقي العواذل ويصدهم ، كما جاء في أبيات للبيد ضمن مدحه لبني عامر .

بنو عامر من خير حي علمتهم ولو نطق الأعداء زورا وباطلا
كرام اذا ناب التجار ألذة مخاريق لا يرجون للخمر واغلا (2)
اذا شربوا صدوا العواذل عنهم وكانوا قديما يسكتون العواذلا

ودأب أصحاب الخمر على تعاطيها كلما نال منهم العواذل باللوم والتجريح ،وكانوا يبادرون بها قبل قيام العواذل ،ذلك لأن الشارب بعد الانتشاء ،لا يتأثر بما يصدر عن عاذله ،فبعد أن تلعب سورة الخمر بعقله ،لا يبالي بكلام مخاطبه ،أهو مدح أم ذم

وللحارث بن ظالم في هذا المعنى قوله :

---

1) المفضليات 74

2) الديوان 25

علّلاني بلذّتـي قينتـيّا   قبل أن تبكر الهموم عليّا
قبل أن تبكر العواذل انّي   كنت قد ما لقولهنّ عصيّا
من سلاف كأنّها دم جوف   في زجاج تخالها رازقيّا (1)
ما أبالي اذا اصطبحت ثلاثا   أرشيدا دعونني أم غويّا

ويتحدّث عمرو بن قميئة عن نديم صبحه سحرا ، وكان هذا النّديم يتّقي بصبوحه شرّ عاذلاته خوفا من رميهنّ له بالغواية ظلما وهو النّديم السّمح الكريم الحسب والنّسب ، كما يراه الشاعر .

وندمان كريم الجدّ سمح   صبحت بسحرة كأسا سبيّا
يحاذر أن تباكرعاذلات   فينبأ أنّه أضحى غويّا (2)

أمّا الأفوه الأودي فيعكس الوضع ، ويلحو عاذلته داعيا ايّاها الى ترك اللّوم ، لأنّها لن تجني من ورائه فائدة ، فالرّجل متمسّك بشرابه ، يؤكّد أنّ السّعادة لديه تكمن في الجمع بين الشرب والطرب ، وأنّ اللّحظات التي يؤثرها من عمره هي التي يجلس فيها الى نديمه ينازعه أثناءها كؤوس المدام ، تلك الكؤوس التي تجعله في نعيم دائم ، لكلّ هذا يجد في طاعة العاذلة مضرّة لنفسه ، فهو يرغب في الانشغال عن الهموم ، ويرفض الانصياع للعاذلة محاولة تبرير تعلّقه بشرابه ، اقناعا منه لنفسه ، ولغيره ، فيذكر أنّه يقبل على خمره بدافع الكرم ، كما أنّه لا يفقد حلمه ـ عند الشّرب ـ ولا يهتك ستار الحشمة والوقار ، فيصدر عنه ما يسيء النّديم ، يقول الأودي :

دعي عنك الملامة واستفيقي   فلست عن المدامة بالمفيق
أأترك نشوة وسماع عزف   وندمانا ينازعني رحيقي ؟
وأنفذ خاليا بنجي همّ   يروح ويغتدي عند الشّروق

---

1) المختار من قطب السرور 116
2) الديوان 63 .

وما أنا ان أطمتك فاعلميه لنفسي بالنّصيح ولا الشّفيق
سأشربها على كرم وحلم وأترك ما [illegible] به رفيقي (1)

كما يعمد القلمّس بن الفياض الى تبرير موقفه من الخمر أمام العاذل ،فهو حين يشربها لا يأتي محرما ،فأسباب اللّذة في حياته نفدت جميعا ،لهذا يعمد الى هذا الرّحيق ليروّي الحشاشة الباقية من روحه ،كما يدعو الشاعر عاذله الى ترك التّفنيد في شرب الخمر في قوله :

نهاني امرؤعن لذّتي أن أنا لها فقلت : دع التفنيد في الشرب للخمر
فلست على ماكان منّي براكب حراما ولا غير الجميل مدى الدّهر
تقضّت لذاذاتي فلم تبق لذّة سوى شربها صهباء طيّبة النّشر
أروّي بها نفسي فتحيا بشربها ولا أشتهي شرب النّبيذ متن الخمر (2)

كما يعمد عبيد بن الأبرص الى ايجاد الدّوافع والأسباب ،مبرّرا تعلّقه بشرابه حتّى يتّقي ملامة عاذلته ،فمن ذلك أنّه انسان غير معصوم من الوقوع في الزّلاّت ،والنّفس الانسانية غير مستقرّة على حال ،فهي تدفعه الى الصّلاح حينا والى الفساد حينا آخر، كما أنّ عبيدا يشرب الخمر لأنّ أيام شبابه ولّت ،ولم يحسن اغتنامها ،ومما أنّه يدرك بيقين أنّه - لا محالة - هالك ،وسيكون مآله - ان عاجلا أو آجلا - حفرة يدفن فيها ،فلم لا يبادر بلذّة الشراب قبل أن يفوت الأوان ؟ قال عبيد :

هبّت تلوم وليست ساعة اللاّحي هلاّ انتظرت بهذا اللوم اصباحي
قاتلها الله تلحاني وقد علمت أنّ لنفسي افسادي واصلاحي
كان الشّباب يلهينا ويعجبنا فما وهبنا ولا بعنا بأرباح
ان أشرب الخمر أو أرزأ لها ثمنا فلا محالة يوما أنّني صاحي
ولا محالة من قبر بمحنية وكفن كسراة الثّور وضاح (3)

---

1) المختار من قطب السرور 116 - 117 .
2) نفسه 115
3) الديوان 52 .

وربّما بلغت العاذلة من الشّارب حدّ التّجريح ، وأثارت كوامن غيظه ،فجعلته يردّ عليها ثائرا ساخطا كما نلاحظ في أبيات عبيد بن الأبرص السّالفة الذّكر ،حيث يستهلّ قصيدته داعيا على عاذلته مستنكرا صنيعها في مماكرتها بعذله ،وقد عانى الأعشى من ملامة العذّال ،فردّ عليهم زاجرا ايّاهم ،موضّحا عدم اهتمامه بنصائحهم ، مشيدا بندمائه الشّباب الغرّ الكرام الذين لا يأبهون لما يصدر عن العواذل الحسّاد ، لأنّهم ليسوا سوى كلاب تنبح كما ورد عند الأعشى حينما ضاق بالعواذل ،فشبّه ملامتهم بالنّباح الذي لا يعود على الكلب بنفع ،فسرعان مايهدأ رفقا بنفسه ،قال يصف ندماءه :

في شباب كمصابيح الدّجى ظاهر النّعمة فيهم والفرح

رجح الأحلام في مجلسهم كلّما كلب من النّاس نبح (1)

ويقول حسان بن ثابت أنّ عاذلته تخبره بأنّه لو أقلع عن شرب الخمر لأصبح غنيّا .

تقول شعثاء لو تفيق من الكأس لألفيت مثري العدد (2)

كان شارب المدام في الجاهلية يتلقّى الملامة في شرب الخمر باعتبار أنّها تجلب المضرّة لشاربها ،وكان ينظر اليها - عموما - أنّها نوع من التّمرد على القيم الاجتماعية . غير أنّ شارب الخمر غالبا ماكان يعرض عمّا يقدّم اليه من نصائح ،زاعما أنّه يتعاطاها بدافع الكرم ،وأنّه لا يتعدّى في شربها حدود العفّة والوقار .

وجاء الاسلام ،ولم تبق الأوضاع على ماكانت عليه ،اذ جاء الدين الجديد بتحريم الخمر ،وأصبح شاربها يتّهم بالمروق عن الدّين ويقام عليه الحدّ ،وكان معتنقو الدين

1) الديوان 163

2) الدّيوان 168

الجديد يحاربون شارب الخمر ، معتمدين في ذلك الآيات التي دعت الى ترك الخمر ، ونهت عن شربها .

الا أنهم ماكانوا ليفلحوا في صد البعض عن تعاطيها بعد أن رأوا منهم [illegible] في نفوسهم ، فكان شعراء الخمر يردون على عاذليهم في شربها بأقسى العبارة ، وجارح اللفظ ، متهمينهم بالجهل ، كما ورد عند حارثة بن بدر حين قال مخاطبا عاذله :

وأنت حليم تزجر الناس عن هوى نفوسهم جهلا وحلمك عازب
فحلمك عنه لا تذله وخلني وشأني واركب كل ما أنت راكب (1)

ويرجع الشاعر سبب تمادي العاذل في لومه الى عدم ادراكه لكنه هذا الشراب ولحقيقته ، ويقسم مؤكدا أن لا ثيه لو ذاق شرابه ، لاستطابه وعدل عن لومه ، بل انه سيتعلق به العمر كله ، والشاعر متأكد من نتيجة ما يذهب اليه ، فينصح عاذله أن يجرب ، ويذوق طعم هذه الخمر الطيبة الرائحة قائلا :

يعيب علي الراح من لو يذوقها لجن بها حتى يغيب في القبر

— — —

وبالله أولي صادقا لو شربتها لأقصرت عن عذلي وملت الى عذري
وان شئت جربها وذقها عتيقة لها أرج كالمسك محمودة الخبر (2)

ويبدو تأثر حارثة بن بدر بالبيئة الاسلامية ، حين يقسم بالله ، الا أنه توسل الى القسم ليبين تعلقه بشرابه ، وأنه لن يتخلى عن شرابه مهما عذله الأحرار من الناس ، فالخمر هي أطيب لذة في حياته ، يقول :

فوالله ما أنفك بالراح مهترا ولو لام فيها كل حر موفق
ولكن قلبي مستهام يحبها وحب القيان رأي كل محمق
أحب التي لا أملك الدهر بغضها وذلك فعل معجب كل أخرق

---

1) الأغاني 23 : 459 - 460 .
2) نفسه 23 : 486 .

سأشربها صرفا واسقي صحابتي وأطلب غرّات الغزال المنطّق

ولا أنتهي عنها مدى الدّهر تاركا منى النّفس منها بالكلام المنمّق (1)

ويترك حارثة لعاذله الاختيار في تحديد موقفه من الخمر ،فله أن يذمها ويمدحها كما شاء ،فالشاعر في الحالتين معا يستطيب شرابه ويتمسك به ،قال مستنكرا من عاذله ذمّ هذا الشراب الذي يريح صاحبه ويبعث فيه النشوة :

فعبها أو امدحها فانّا نحبّها صراحا كما أغراك ربّك بالهجر

علام تذمّ الرّاح والرّاح كاسمها تريح الفتى من همّه آخر الدّهر (2)

هكذا كان حارثة يصّد عاذليه ،مصرّحا بعدم اكتراثه لما يصدر عنهم من لوم ،الاّ أنّنا - أحيانا - نلاحظ في ردّه على عاذليه ،نوعا من الشّعور بالذّنب ،فيلجأ الى تبرير تعلّقه بهذا الشراب ،للتّخلّص من الصّراع النّفسي الذي يعاني منه بدافع تعلّقه بالخمر من جهة ،ومن جهة أخرى مايقاسيه من تأنيب الضّمير نتيجة لوم العواذل والعذّال الذين ما انفكّوا يعاتبونه على شرب الخمر التي أمر الله بتركها . فيرجع الشاعر سبب شربه الى عادة الادمان التي طبعت عليها نفسه ،كما يتغنّى بكرمه ويفخر بما يبذله من أموال مقابل الحصول على شرابه ،معرّضا ببخل عاذله الذي يلحوه في خمره .

أأترك لذاتي وآتي هواكم ألا ليس مثلي يابن قيس يخالب

— — —

فانّي امرؤ عوّدت نفسي عادة وكلّ امرىء ما اعتاد لا شك طالب

أجود بمالي ماحييت سماحة وأنت بخيل يجتويك المصاحب (3)

ويفضّل حارثة عيشه على عيش العاذل الذي يكتفي بشرب الماء ،ويباهي بشرابه قائلا :

---

1) الأغاني 23 : 493 - 494 .
2) نفسه 23 : 486 .
3) نفسه 23 : 459 - 460 .

(1)
كذا العيش لا عيش ابن قيس وصحبه   من الشرب للماء القراح المصرّد

وغالبا ما كان حارثة يردّ على عاذليه مسفّها أقوالهم ، متّهما اياهم بالجهل والبخل والسّفاهة والنّفاق ، وقد يعجب القارئ حين يصادق الشاعر يدعو عاذله الى لومه ، ولا غرابة في ذلك ، فابن بدر تغريه الملامة ، يقول :

(2)
فلمني فانّ اللّوم فيها يزيدني   غراما بها انّ الملامة قد تغري

وكان العاذل على شرب الخمر في العصر الاسلامي يتلقّى الشتم والزّجر مقابل ما يقدّمه من نصائح لشارب الخمر ، كما يبدو من قول ابن زنيم وهو أحد عاذلي حارثة بن بدر - قال مخاطبا حارثة :

(3)
فربّ نصيح الجيب ردّ انتصاحه   عليه بلا ذنب وعوجل بالشتم

ولم يكتف شعراء الخمر في هذا العصر بتعنيف العاذل ، اذ لم يسلم الدّين الاسلامي هو الآخر من اقذاعهم ، باعتبار أنّ العذل يدخل في باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، فقد كان أصحاب الخمر يجاهرون بمعاقرة ماحرّم من الشراب ، متحدّين بذلك عاذليهم ، وتعاليم الدّين الجديد . (4)

ولا شكّ أنّ القطامي قد أفاد من أسلافه مسابقة العواذل الى الصّبوح . حيث يقول :

(5)
أفرّ اذا أصبحت من كلّ عاذل   وأمسي وقد هانت عليّ العواذل

فالشاعر لا يذكر مسابقة العواذل بشراب الصّبوح ، وانّما يكتفي بالقول أنّه يتلافى عواذله صباحا ، أمّا في المساء ، فلا يكترث لما يصدر عنهم ، بعد تعاطيه كؤوس المدام مع ندمائه ، فانّه - عندها - لا يحسب حسابا للائميه ، لأنّ نشوة الخمر تجعله في

---

1) الأغاني 23 : 459
2) نفسه 23 : 486
3) نفسه
4) ينظر ديوان أبي محجن الثقفي 86
5) المختار من قطب السرور 40

سعادة دائمة ،لا تتأثر لما قد يصدر عن الغير .

لقد استطاع العرب بفضل الفتوحات أن يطّلعوا على حضارة الأمم المجاورة من فرس وروم ،فأعجبوا بتأنّق هؤلاء في اقامة مجالس الشراب .

وما كان الخلفاء المسلمون منذ العصر الأموي ليسلموا من تأثير هذه الدّول ،بل انّهم شجّعوا عليه لجريهم وراء تقليد ملوك هذه الدّول ،ولما اتخذوه من ترف وبذخ ، فأصبحوا يعقدون للخمر مجالس ،ويتّخذون لهم ندماء من وجهاء الرّعية .

فكان نتيجة ذلك ،أن ازداد تعلّق النّاس بالخمر ،وأصبحوا يثورون ضدّ كلّ من أراد أن يحول بينهم وبين شرابهم . وهذا خليفتهم الوليد بن يزيد يرى أنّ من يلوم على شرب الخمر انّما هو جاهل وحاسد ،قال متغنّيا بندمائه :

سقيت أبا كامل من الأصفر البابلي
وسقّيتها معبدا وكلّ فتى فاضل
لي المحض من ودّهم ويغمرهم نائلي
فما لامني فيهم سوى حاسد جاهل (1)

وهذا الخليفة يزيد بن معاوية يتحدّى والده الذي كان ينهاه عن شرب الخمر، فيردّ عليه بقوله :

أمن شربة من ماء كرم شربتها غضبت عليّ الآن طاب لي السّكر
سأشرب فاغضب لا رضيت كلاهما حبيب الى قلبي عقوقك والخمر (2)

فالخليفة يذكر أنّ غضب والده عليه يزيده تعلّقا بالخمر لا لأنّ الخمر لذيذة عنده فحسب،

---

1) الدّيوان 60
وقال أبو الهندي في هذا المعنى يردّ على عاذليه على الخمر :
آصبب على كبدك من بردها انّي أرى النّاس يموتونا
ودع أناسا كرهوا شربها ليسوا بما في الخمر يدرونا
لو شربوها فانتشوا مرّة لأصبحوا بالخمر يهذونا

2) حلبة الكميت 97 .

ولكن باعتبارها معصية تغضب الله ، ومن هنا كان يجمع الى استمتاعه بشربها استمتاعه بعقوق والده .

وكان ذلك فاتحة استخفاف الناس بالدين ، فها هو الأقيشر يحدّر لائميه من عذلنه ، مجاهرا بخلاعته واستخفافه بأمر الدين الاسلامي ونواهيه ، حيث يقول مخاطبا أحد عاذليه :

فانّ أبا معرض اذ حسا   من الرّاح كأسا على المنبر
خطيب لبيب أبو معرض   فصار خليعا على المكبر
أحلّ الحرام أبو معرض   فان لم في الخمر لم يصبر
يجلّ اللّئام ويلحى الكرام   وان أقصروا عنه لم يقصر (1)

واذا كان الأخطل لم يخرج عن طوق الأعشى كثيرا حين عدّ كلام عاذليه هرير كلاب (2) فانّ الأقيشر ينقل لنا صورة طريفة هي من صميم حضارة الدولة الاسلامية الفتيّة حين يتعجّب من الشّرطة التي تحول بينه وبين شرابه مادام قد اقتناه من ماله الحلال ، وكان الشاعر قد أوهم الشرطة أنّه يتناول لبن لقحة بقوله :

انما لقحتنا باطية   فاذا ما مزجت كانت عجب
لبن أصفر صاف لونه   ينزع الباسور من عجب الذّنب
انّما نشرب من أموالنا   فسلوا الشّرطيّ ما هذا الغضب (3)

وجاء زمن بني العبّاس ، وأولع النّاس بالشّراب وتهافتوا عليه ، وانتشرت مجالس الخمر وما يرافقها من مجون وتهتّك ، وأصبحت ظاهرة شائعة في المجتمع ، فبات من المعلوم أن يتصدّى أصحاب هذه المجالس لكلّ من حاول انتقاد تصرّفاتهم ، فزجروا كلّ من حاول الوقوف في وجه هذا التّيّار الماجن .

---

1) الأغاني 11 : 257
2) ينظر ديوانه 1 : 27
3) الأغاني 11 : 241 .

فهذا مسلم بن الوليد يذكر أيامه حين كان يلهو فيها بشرب الرّاح التي تذهب بكلّ أحزانه ، حيث كان عذاله كثيرين ، الاّ أنّه كان يقابل نواهيهم ونصائحهم بالعصيان ، قال في ذلك :

(1)

أيام للعذل اكثار ومعصية والرّاح تسرع في عقلي وأحزاني

ويتحدّث الشاعر عن الطّريق التي خطّطها هو وصحبه في حياتهم ، ويصفها بالغرابة لما فيها من مجون ، فيعلن أنّهم لا يقبلون فيها لوما ولا زجرا .

(2)

سلكنا سبيلا للصّبا أجنبيّة ضمنّا لها أن نعصي اللّوم والزّجرا

واذا كان الشاعر العبّاسي يتظاهر بعدم الاكتراث لما يصدر عن عاذليه ، فانّ بشارا يستطيب شرابه حين يخلو له الجوّ من الحسّاد والوشاة .

(3)

قد نام واش وغاب ذو حسد فاشرب هنيئا خلا لك الجوّ

أمّا ديك الجنّ فيردّ ببساطة على العذال ، ويعلن استحالة التّوبة عمّا هو فيه ، مادام يناوله الكأس ساق يشبه البدر حسنا ، وحول مغنّون مهرة يطربونه بأعذب الأصوات .

يقولون : تب والكأس في كفّ أغيد وصوت المثاني والمثالث عال

(4)

فقلت لهم : لو كنت أضمرت توبة وعاينت هذا في المنام بدا لي

فالشاعر يثبت أنّه لا يمكن أن يتوب على شرب الخمر ، لأنّه لا يستطيع أن يفارق هذا النعيم .

---

1) الديوان 100 .
2) الديوان 44
3) الديوان 4 : 249
4) الديوان 88

ولا يشكّ أحدنا في أنّ أبا نواس أدمن الخمر وتعلّق بها الى حدّ العبادة ،بل انّه قدّسها ،كما أنّنا لا نشكّ في أنّه كان يعلن مجونه وتهتّكه ،ويعربد في المجالس التي كانت تعقد للخمر ،لكلّ هذا ماكان أبو نواس ليسلم من ألسنة العذّال ،وبات من المعلوم لدينا ،أنّ النّواسي لن يشرح صدره لنصائح لائميه على " شقيقة روحه " .

وكان أبو نواس يباكر بشرابه اتّقاء من عواذله على الخمر حيث يقول :

سبقت بشربها لوم الأداني ... مع الوصفاء في السّلب الرّقاق (1)

لقد أفاد أبو نواس من سابقيه معنى تفادي عاذله على الخمر بالصّبوح ،الاّ أنّه يخبرنا بأنّ هذا العاذل من سفلة النّاس وأحطّهم قدرا ،فهو لا يملك مالا ولا كرامة تخوّلانه لشرب الخمر ،لذا يعمد الى عذل شاربها . كما طوّر أبو نواس هذا المعنى حين دعا الشارب أن ينزّه صبوحه عن قول العواذل ،فكأنّه دنس لمجلس الخمر ،

قال أبو نواس : (2)

نزّه صبوحك عن مقال العذّل ... ما العيش الاّ في الرّحيق السّلسل

كما يدعو أبو نواس صاحبه الى عصيان العاذل الذي يصدر أحكامه في الخمر عن جهل ،ويعلن أنّ نعمة العيش لا ينعم بها الاّ الفاتك الماجن ،قال مخاطبا صاحبه :

بادر صبوحك ،وانعم أيّها الرجل ... واعص الذين بجهل في الهوى عذلوا

واخلع عذارك ،أضحك كلّ ذي طرب ... واعدل بنفسك فيهم أينما عدلوا

نال السرور ،وخفض العيش في دعة ... وفاز بالطّيّبات الماجن الهزل (3)

ويلاحظ أنّ الشّاعر جمع في هذه المقطوعة معاني تداولها الشّعراء من قدمائنا [illegible]

---

1) الديوان 56
2) نفسه 128
3) نفسه 84

ومعاصرين له وهي الدّعوة الى عصيان العاذل ، ورميه بالجهل ، أمّا المعنى الأخير في مقطوعة أبي نواس ، فقد ورد عند سلم الخاسر في قوله :

(1)
من راقب النّاس مات غمّـا وفاز باللّذّة الجسور

وسلم الخاسر أخذه هو أيضا عن بشار في قوله :

(2)
من راقب النّاس لم يظفر بحاجته وفاز بالطّيّبات الفاتك اللّهج

لقد استطاع أبو نواس أن يجمع بين معنيين في البيت الذي يستهلّ به قصيدته ، وذلك في حثّ الشارب على الصبوح ، ودفعه الى عصيان العاذل الجاهل ، وذلك في صياغة حسنة . أمّا بيته الأخير ، فلم يبلغ فيه جودة بيت بشار ، ونلاحظ أنّه اكتفى باعادة الشّطر الثاني ، وتعويض " الفاتك اللّهج " بعبارتي " الماجن الهزل " ، كما جاء بيته دون بيت سلم الخاسر الذي يجري مجرى المثل لخفّته ، وبعد مرماه ، وشمول تجربته .

ويذكر أبو نواس لوم عاذليه الذين يكرّون به ، جادّين في صدّه عن شرابه ، لكنّه يؤكّد أنّه لا فائدة ترجى من وراء كلّ ذلك ، يقول :

يا خليليّ اشربـاهـا واحسرا فيها القناعا
(3)
بكّر اللاّئم ينهـانـي فأغرى ما استطاعا

فالشاعر لم يقف عند الشّكوى من العذال الذين يبكرون بلومه ، بل تجاوز ذلك ، فهو يبلغ من الثّقة بالنّفس والهيام بالشراب ما يجعله يتحدّى لائمه ، مهما بكّروا بلومه ، والشّاعر بهذا يطور المعنى الذي ورد عند الشعراء منذ العصر الجاهلي ، والذي يتمثّل في مسابقة العاذلين بشراب الصبوح .

---

1) شعراء عبّاسيون 104
2) الديوان 2 : 56 .
3) الدّيوان 125

كما يستنكر أبو نواس عتاب عاذلته على الصّبوح ، وجهلها بطبيعة نفسه التي تهوى الرّاح ، ومجالسة النّدامى :

تعاتبني على شرب اصطباح ... و وصل اللّيل من غلق الصّباح (1)

وما علمت بأنّي أريحيّ ... أحبّ من النّدامى ذا ارتياح

وهو هنا مثل عبيد بن الأبرص في ردّه على عاذلته التي هبّت للومه ، فدعا عليها مستنكرا تجاهلها لحاله ، فهو يفسد مرّة ويصلح أخرى . وجاء عتاب أبي نواس أخفّ من عتاب عبيد بن الأبرص ، يفيدنا بعدم اكتراث صاحبه لما صدر عن عاذلته ، فهو مقتنع ومرتاح لتصرّفاته .

ويرجع صد من الخمر عذل لائمه على الخمر الى الجهل بمزايا هذا الشراب ، وما يفيد به الشارب ، قال أبو نواس :

لا تعذلا في الرّاح انكما ... في غفلة عن كنه ما تسدي (2)

فعاذله لا يدرك مثله سرّ هذا الشراب ، وفوائده ، فهو قد خبره ، وأدرك كنهه والشاعر في قوله هذا يقترب من حارثة بن بدر الذي يرمي عاذله بجهل حقيقة الخمر .

وارتفع أبو نواس بهذا المعنى فقال :

اله بالبيض الملاح ... وقينات ، وراح

لا يصدّنّك لاح ... عن سكرك صاح (3)

فكأنّه قد أبدع هذا المعنى ، فالشاعر هنا يدعو شارب الخمر الى عدم الاكتراث لما يصدر عن عاذله ، لأنّ هذا العاذل لا يدرك تلك النّشوة التي تبعثها الخمر في شاربيها ، وذلك النّشاط الذي يعتريهم عند الشّرب ، كلّ هذا لا يشعر به العاذل لأنّه في حالة صحو . وهذا هو السبب الذي حمله على عذل شارب الخمر .

---

1) الديوان 169
2) نفسه 182
3) نفسه 130

واتّهـام العاذل بالجهل لصدّه ،وتفادي لومه ،معنى قديم تداوله الشعراء ،وأفاد منه أبو نواس ،فجعل عاذله يتّصف بالجهل ،لا لكونه يجهل سرّ هذا الشراب ،بل لكونه يلحو شخصا هو متأكّد من عصيانه له ،وعدم قدرته على التّأثير فيه ،وردّه عمّا هو فيه ، فأبو نواس استطاع أن يفيد من هذا المعنى ويطوّره ،فأخرجه في صياغة جديدة جعلت المعنى يبدو طريفا ،وذلك حين قال مخاطبا عاذله على الخمر :

عاذلي في المدام لا أرضيكا   انّ جهلا ملام من يعصيكا (1)

كما يرى أبو نواس أنّ لوم العاذل محمول على الحسد لذا يرفض تقبّل نصائحه ، ويشكّ فيها ،فيعود ليؤكّد له تعلّقه بشرابه حين يقول :

عاذلي في المدام غير نصيح   لا تلمني على شقيقة روحي
لا تلمني على التي فتنتني   وأرتني القبيح غير قبيح (2)

ونلمس في قول أبي نواس هنا نوعا من اللّين الممزوج بشيء يكاد يكون سخرية ،في مخاطبة العاذل ،فيطلب منه عدم الرّجوع الى لومه ،ويؤكّد له تعلّقه بخمره،بينما يعمد الشاعر أحيانا الى توعّد عاذله بالعودة الى ما أقبل عليه من نصح ولوم ،ويستنكر منه ما صدر عنه ،كما جاء في قوله :

ياعاذلي قد أتتني منك بادرة   فان تعمّدها عفوي فلا تعد
لوكان لومك نصحا كنت أقبله   لكنّ لومك محمول على الحسد (3)

فأبو نواس لا يشكّ في حسد عاذله ،لذا يرفض نصائحه ،ويعتبر ماصدر عنه من نصائح هفوة ينصحه بعدم الاقدام عليها ثانية فيتحدّى عاذله لأنّه يلومه بدافع الحسد .

---

1) الدّيوان 23

2) نفسه 24

3) نفسه 47 ومثله قوله :

فلأشربنّ بطارف وبتالد   بنت الكروم برغم أنف الحسّد

ويدعو أبو نواس عاذله على الخمر الى ترك عذله ، وترك وصف الفلاة القاحلة ، فالشاعر أصبح يعيش في بيئة غمرتها الرياض والبساتين ، والعصر العباسي عصر اللذة والمتعة ليس فيه مكان للمتغني بالفلاة ، ولا للعاذل على شرب الراح . قال مستهلا احدى قصائده :

يا أيها العاذل دع ملحاتي والوصف للموماة والفلا (1)

كما يؤكد الشاعر فشل عاذلته في مسعاها عندما تدعوه الى ترك شرب الخمر .

أعاذلتي اقصري عن بعض لومي فراجي توبتي عندي يخيب (2)

وهو هنا لا يقصد شخصا معينا رماه بسهام العذل ، وانما يصدر حكما عاما ، يؤكد فيه استحالة توبته عن المدام ، وخيبة كل من يأمل صده عن شرابه ،

ولم يكتف أبو نواس بدعوة عاذله الى الكف عن لومه ، بل انه يدعوه الى مشاركته في شرابه ، مؤكدا له أنه لو ذاقه ، لتعلق به العمر كله .

لا تعذلا في الراح انكما في غفلة عن كنه ما تسدي
لو نلتما ما نلت ما مزجت الا بدمعكما من الوجد (3)

ولعل الشاعر هنا قد أفاد من حارثة بن بدر ، وأبي الهندي في دعوة العاذل الى الشرب ، الا أنه جسد حالة العاذل ، وشدة أسفه عليها بأن جعله يبكي من الوجد بها .

وقد يبلغ الأمر بأبي نواس موقف التحدي كما يبدو من قوله مخاطبا عاذليه :

اردد علي المدام بالجام وسقنيها برغم لوامي (4)

ويطالعنا أبو نواس بصورة جديدة في تحدي العاذل ، اذ يدعوه الى سقيه ، وغنائه ، وفي هذا تحد للعاذل ، كما أنه يضعه موضع الاستهزاء والسخرية ، قال يخاطبه :

---

1) الديوان 165
2) نفسه 12
3) نفسه 182
4) نفسه 24

(1)
فيا أيها اللاحي اسقني ثم غنّني فانّي الى وقت الممات شقيقها

كما كان العاذل محطّ التهكّم والسّخرية ،لاكتفائه بشرب الماء ،ويعتبر هذا - عند أصحاب الخمر - ذلاّ واهانة ،قال في ذلك :

واتركن من لام فيها وأبى الأنفارا
يشرب الماء مكان الراح رغما وصغارا (2)

والشاعر في قوله هذا يقترب في المعنى من بيت حارثة بن بدر الذي احتقر فيه العاذل لاكتفائه بشرب الماء ،ولم يقف أبو نواس عند حدّ قول حارثة في تفضيل عيشه على عيش عاذله لاكتفائه بالماء شرابا ،بل انّه جعل العاذل يشرب الماء عوض الخمر ، ويعدّ ذلك ذلا وهوانا .

ويعمد أبو نواس في بعض الأحيان الى تبرير تعلّقه بخمره ،فيدّعي مثلا أن فترة شبابه قد ولّت ،وأنّه لم يحسن استغلالها ،فجمع كل ماضاع من لذّة ومرح لم يعطهما حقّهما في الشباب ،فعوّض كل ما فاته بشرب الخمر وغيره .

(3)
كفيت الصّبا من لا يهشّ الى الصّبا وجمّعت منه ما أضاع مضيع

وهذا البيت يذكّرنا ببيت لعبيد بن الأبرص قال فيه أنّه لم يحسن استغلال فترة شبابه . ومن الجائز أن يكون أبو نواس قد أفاد من معنى عبيد ،الاّ أنّه أضاف اليه ، فهو يجمع كلّ مافاته في الصّبا ليعوضه ،غير أنّ بيت عبيد يبدو أجود لسلاسته وتآلف عباراته .

وأحيانا يعمد أبو نواس الى تبرير موقفه أمام عاذلته في كونه ليس وحيدا في ارتكابه الذّنوب فيخاطبها بقوله :

(4)
تعيبين الذنوب وأيّ حرّ من الفتيان ليس له ذنوب

ويبدو أن الشاعر هنا اعتمد أيضا معنى لحارثة بن بدر حينما دعا عاذله الى

---

1) الديوان 9
2) نفسه 122
3) نفسه 7
4) نفسه 12

ترك لومه على شرب الخمر لأنّه ليس الوحيد الذي يتعاطاها . وارتفع أبو نواس بالمعنى فهو ينفي العصمة عن البشر ، ويرى أنّ أفضل النّاس لابدّ له يوما من الزّلل .

ويبرّر أبو نواس شربه الخمر أحيانا بكونه يعمد الى تسلية نفسه لأنّه يكابد ويعاني من العشق والهوى ، ويزعم أنّه يتجنّب العربدة مع ندمائه أثناء السكر .

اذا شاقك ناقوس وشجو النّاي ، والعود
وغوديت بريق الخمر مجّته العناقيد
تطرّبت الى الالف فقالوا .. أنت عربيد
وهل عربيد مكروب ، قريح القلب معمود ..! (1)

ولا يقف أبو نواس من عاذله موقف العاصي المتمرّد في بعض الأحيان ، ذلك لأنّه يجد في ملامته ما يشوّقه لشرابه ، قال واصفا تأثير عاذليه :

فما زادني اللّاحون الا لجاجة عليها ، لأنّي ما حييت رفيقها (2)

والشاعر في هذا المعنى يتبع قول حارثة بن بدر في ردّه على عاذله بأنّ اللّوم في الخمر يغريه بها .

وعلى أن النّواسي قد أفاد المعنى من غيره ، الاّ أنّه أحسن الصّياغة حين قال :

دع عنك لومي ان اللّوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الدّاء (3)

فالشّطر الأوّل من البيت يتضمّن معنى بيت حارثة الذي كان له الفضل في اثارة المعنى ، كما كان للنّواسي الفضل في اجادة صياغة البيت الذي يمتاز بجودة معناه ، ويعلق بالذهن لخفّته وسلاسة ألفاظه .

---

1) الديوان 98
2) نفسه 9 وله أيضا في هذا المعنى :

فاصطبح كأس عقار يانديمي ، واسقنيها
انّني عند ملام النّاس فيها أشتهيها

3) الدّيوان 6

ولأبي نواس معان لم يسبق اليها ، ولم يفدها من غيره ، فيما يختص علاقته بعاذله على الخمر ، وردّه عليه ، الا أن بعض هذه المعاني لم تكن نابعة من صنعة شعرية بمقدار ماهي استجابة لظروف عاشها الشاعر ، فقد سبقت الاشارة الى أنه كان يعصي عاذله ، ويتمرّد عليه ، الا أننا نجده أحيانا في موقف المنهزم ، يوهم بأنه ترك الخمر امتثالا لأمر الخليفة الأمين الذي نهاه عن شربها (1) ، كما يبدو من قوله :

أعاذل بعت الجهل حيث يباع ... وأبرزت رأسي ما عليه قناع
نهاني أمير المؤمنين عن الصبا ... وأمر أمير المؤمنين مطاع
ولهو لتأنيب الامام تركته ... وفيه لملاه منظر وسماع
وريّان من ماء الشباب كأنما ... يظمأ من ضمر الحشا ، ويجاع
قصرت عليه النفس دون مدامة ... هي اليوم حرب ، وهي أمس شياع (2)

والشاعر متأكد من أن موته لن يكون على يد الساقي أي بسبب تعاطيه الخمر ، بل انّ هذا الرحيق هو الذي يبقي على الحشاشة الباقية من روحه ، ومع ذلك فهو يترك شرابه ، تلبية لنواهي الخليفة ، قال في ذلك :

أعاذل لا أموت بكف ساق ... ولا آبى على ملك العراق
هجرت له التي عنها نهاني ... وكانت لي كممسكة الرماق (3)

كما نجده يمتنع عن شرب الخمر بعد أن استرضى الخليفة فصفح عنه ، ولكون هذا الخليفة يرفض شربها ، يمتنع عنها هو أيضا ، قال معبرا عن ذلك :

أعاذل أعتبت الامام ، وأعتبا ... وأعربت عما في الضمير ، وأعربا
وقلت لساقينا أجزها .. فلم يكن ... ليأبى أمير المؤمنين وأشربا (4)

فالشاعر يزعم أنه تخلى عن الخمر - كما تقدم - الا أنه يبدي تعلقه الشديد بها ،

1) ينظر أبو نواس لابن منظور 102
2) الديوان 12
3) نفسه 56
4) نفسه 22

من خلال تصريحه بالامتناع عن شربها ، اذ يذكر أنّه لا يستطيع ترك محادثة النّدمان ، كما أنّه ينتشي لرؤية كؤوس المدام وهي تدار على الشّرب ، فيتنسّم عبيرها الذي ينبعث منها ، فينتشر نسيما عبقا ، كما يبدو من قوله :

أيّها الرّائحان باللّوم ، لوما   لا أذوق المدام الاّ شميما
نالني بالملام فيها امام   لا أرى لي خلافه مستقيما
فاصرفاها الى سواي ، فانّي   لست الا على الحديث نديما (1)
كبر حظّي منها اذا هي دارت   أن أراها ، وأن أشمّ النّسيما

ولعلّ الشاعر كان يهدف من وراء ذلك الى اثارة عطف الخليفة ، اذ كان يصف تمزّق نفسيته بين حبّه للخمر من جهة ، ومن جهة أخرى امتثاله لأوامر الخليفة ، وجاءت معانيه طريفة ممتعة .

أمّا اذا صدرت النّواهي عن عاذل غير الخليفة ، فلا تأثير يرجى من ورائها ، بل انّ الشّاعر يعتبر اللّوم في شرب الخمر بدعة يتعجّب لها في قوله :

ولاح لحاني كي يجيء ببدعة   وتلك لعمري خطّة لا أطيقها (2)
لحاني كي لا أشرب الرّاح ، انّها   تورّث وزرا فادحا من يذوقها

فهو يرى أنّ نصحه عبث لأنّه لا سبيل الى ابعاده عن شرابه الذي تمسّك به ، بل انه أصبح من الوسائل التي تشدّه للحياة ، ولا يجادل عاذله في أنّه أدرى منه بكنه شرابه ، فيدعوه الى الكفّ عن نصحه ، لأنّه يدرك أن كليهما متمسك برأيه لا يحيد عنه ، ولا سبيل الى التّفاهم بين العاذل المتمادي في ذمّ الخمر ، والشّاعر الذي يرى الكمال كلّه في شرابه ، لهذا يدعو عاذله الى قفل باب المناقشة بقوله :

---

1) الديوان 29

2) نفسه 9

أعاذل ما على مثلي سبيل ... وعذلك في المدامة يستحيل
أعاذل لا تلمني في هواها ... فانّ عتابنا فيها يطول
كلانا يدّعي في الخمر علما ... فدعني ،لا أقول ولا تقول (1)

والشاعر يزجر عاذله لأنّه يدرك أنّ نفسه فطرت على المجون ،وأنّه عجز عن ردّها الى الصّواب كلّما حاول ذلك ،قال أبو نواس :

بكرت تبصّرني الرّشاد وشيمتي ... غير الرّشاد ،ومذهبي وخلائقي
لمّا ألحّت في العتاب زجرتها ... فتأخّرت عنّي بقلب خافق
كم رضت قلبي - فاعلمي - وزجرته ... فرأى اتّباع الرّشد غير موافق (2)

والشّاعر يدرك أنّه متماد في المجون ،ولا فائدة ترجى من لومه ،يقول :

وملحّة في العذل ،ذات نصيحة ... ترجو انابة ذي مجون مارق (3)

وهو يرى - حسب زعمه - أنّه لم يأت ما يلام عليه ،فهو رجل كريم ،الاّ أنّه فطر على اللّذة ،بل انّه اشتقّ منها ،كما يقول :

أعاذل ما على وجهي قتوم ... ولا عرضي لأوّل من يسوم
يفضّلني على الفتيان أنّي ... أبيت فلا أُلام ، ولا ألوم
أعاذل ان يكن بردا ي رثّا ... فلا يعدمك بينهما كريم
شققت من الصّبا ،واشتقّ منّي ... كما اشتقّت من الكرم الكروم (4)

ولا يقبل أبو نواس اللّوم في خمره ،فهو يدرك أنّها ستؤدّي به الى النّار ،ويعلم عاذله بأنّه يعرف مصيره ،ولكن يسخر منه :

يامن يلوم على حمراء صافية ... صرفي الجنان ،ودعني أسكن النّارا (5)

ونجد الشاعر يصرّح معترفا بتأثير كلام العاذل فيه ،الاّ أنّه يخبر هذا العاذل بأنّه غير حرّ في طاعته أو عصيانه ،يقول في ذلك :

---

1) الديوان 184
2) نفسه 219
3) نفسه 218
4) الدّيوان 55
5) نفسه 111

.../...

أعاذل انّ اللوم منك وجيع ولي امرة أعصي بها وأجمح (1)

ويبلغ الشّاعر من التّقديس لشرابه ، ما يجعله يصونه عن أعدائه الذين يلومون على شربه ، فهو يتوهّم أن العاذل يسيء الى شرابه حين يتلفّظ باسمه ، لذا يمنعه من ذكر اسم المدام مادام يذمّ شربه . وما كان ليلتفت الى هذا المعنى الطّريف الاّ من تعلّق بالخمر فعلا وعايشها ، قال أبو نواس : (2)

لا تسمّ المدام ان لمت فيها فتشين اسمها المليح بفيكا

كان شارب الخمر في العصر الجاهلي يتلقّى لوم العواذل لما يبذّره من مال ، وما يعتريه من تهتك وعربدة اثناء الشّرب . ولمّا جاء الاسلام حارب شربها وحرّمها على المسلمين ، فأصبح النّاس يصدّون عنها ويعرّضون به لمخالفته تعاليم الدّين ونواهيه ، الاّ أنّ هناك من تعاطاها متحديا فيها اللّوم والدّين .

بينما تخفّ وطأة اللّوم وحدّة العذل مع قيام الدّولة الأموية ، حيث أصبح الخلفاء يتعاطونها سرّا وجهارا ، غير معتبرين قضية تحريمها ، أو كون شربها من المعاصي . ثمّ تأتي الدّولة العبّاسية ، فتنتشر حانات الخمر ، ودور اللهو ، فلا يقبل شارب الخمر العذل فيها ، فيتحدّى عاذله في شربها .

وكان أبو نواس يعاني من لوم عاذليه على الخمر ، لتماديه في المجون أثناء الشرب ، ومجاهرته بشربها ، فكان يلين ويقسو في ردّه على عاذليه .

فأبو نواس - الذي اشتهر بشغفه بالخمر - لا يعتبر اللّوم فيها أمرا هيّنا ، فوصف العذل في الخمر بأنّه بدعة ، حيث انّه يضيق ذرعا باللّوم فيها ، فيدعو عاذله الى قفل باب النّقاش فيها . فالشاعر يدرك جيّدا أنّ عاذله لن يصدّه عن شرابه مهما قال ، بل انّ اللّوم فيها يزيده اغراء بها .

---

1) الديوان 7 .

2) نفسه 23

.../...

ويلجأ الشّاعر أحيانا الى التماس الأعذار التي تدفعه الى شربها ، كشدّة تعلّقه بها ، وأن نفسه فطرت عليها ، بل يدّعي أحيانا أنّه اشتقّ من المجون ، فلا يمكن أن يحيد عنه أبدا .

وقد يضجر الشاعر من عاذله ، فيتحدّاه مخبرا اياه بأنّه يدرك مصيره بسبب شربه الخمر ، ومع ذلك فانّه لا يملك قدرة الاقلاع عنها .

ويبدع النّواسي حين يتصدّى لعاذله ، ويمنعه من النّطق باسم الخمر على لسانه مادام يلوم على شربها فالشاعر يرى في مجرّد نطق العاذل باسم الخمر إعانة له على شربها ، ويتّخذ أحمد معنى من معاني أبي نواس الرّقيقة التي تؤكّد تعلّقه بها ، وازدراءه لمن يعذل على شربها .

الخمر والمجلس :

أقيمت للخمر مجالس في العصر الجاهلي ، وكان المراد من اقامتها شرب الخمر وما يتبعها من تسلية ولهو . فقد كان الجاهلي يفرّ من الحياة القاسية بالتجائه الى هذه المجالس يستمتع فيها بلذّة الشراب والسّماع ، وقد " كانت الخمارات منتشرة في كلّ مكان ، ولا سيما على الطرق . حيث ينزل بها المسافرون للاستراحة واستعادة النّشاط بعد تعب ونصب . وكان بمكة وبسائر القرى خمارات كذلك ، أصحابها نصارى ويهود في الغالب ." (1) وجمعت هذه الخمارات كل وسائل الترفيه ، وكان في بعضها مغنون يسهرون على اطراب الشرب . (2)

كما كانت الحانات " مبثوثة في الجزيرة العربية : وسطها وأطرافها ، قراها وبواديها . وكانت تنصب على باب الحانة راية تدلّ عليها ". (3) ويبدو أنّ هذه الحانات كانت مسرحا للقصف واللهو ، وخاصّة منطقة الحيرة لما عرفته هذه المنطقة من أسباب الحضارة والترف ، فقد انتشرت القيان بشكل ملحوظ ، " ولم تكن القيان وقفا على القصور والملوك وبيوت السادة والأشراف ، بل كن منتشرات في حانات الحيرة ، وكان يؤمّها طلاب اللّذة واللهو حيث ينعمون باحتساء الخمور وسماع الغناء ". (4)

كما انتشرت الأديرة ، وخاصّة في منطقة الحيرة بحكم كونها منطقة مسيحية ، - فقد عرف عن الأسر المالكة قبل الاسلام من ترك الوثنية الى المسيحية - . والدّير يبني أساسا للعبادة يقيم فيه الرّهبان لذا كان مقرّ الأديرة في رؤوس الجبال بعيدا عن النّاس حتّى يكون الاعتزال مساعدا على العبادة . (5) وينتقى للدّير مكان جميل وسط

---

1) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 667 .
2) ينظر نفسه :
3) القيان والغناء في العصر الجاهلي 62 - 63
4) نفسه 46
5) ينظر حياة الشعر في الكوفة 222 - 223 .

الطبيعة الخلابة ، تحف بـه البساتين والأنهار .[1] وكانت الأديرة ملجأ للمسافرين والخارجين الى الصيد وطلاب المتعة . وكان الرهبان يقومون بخدمة النازلين بالدير يطعمونهم ويسقونهم الخمر . فقد كانوا يخصصون في الدير دورا للضيافة، ثم أقيمت حانات في حدائق الأديرة ، حتى تبقى لهذه الأخيرة قداستها ، وكان يسمح للنازلين بالدير العبث واللهو .[2]

ولم تكن مجالس الخمر مقصورة على الحانات والأديرة ، فقد أقيمت للخمر مجالس في البيوت ، وفيما يروى عن الأعشى ، أن داره بمنفوحة اليمامة كانت منتدى للفتيان يمد لهم فيه الأكل والشراب واللهو .[3] وغالبا ماكانت المجالس تقام وسط البساتين والحدائق، وسط الرياحين والأزهار . واذا لم يكن المجلس بين أحضان الطبيعة ، فانهم ينثرون فيه من الورود والأزهار مايجعله يبدو وكأنه وسط روضة يانعة . ولبعض الحكماء في جمال موقع المجلس " . . . فان تهيأ أن يكون ذلك في بساتين خضرة مشرقة ، ورياض نضرة مونقة ، ومياه مطردة ، كان ذلك أكمل ، وان لم يكن ، ففي المجالس المفروشة بالورد والخلاف والآس والياسمين ، والنرجس المنثور ، وأشباه ذلك " .[4]

ويستحسن أن يتخلل المجلس حديث وغناء ، فقد وردت نصيحة للندماء بذلك، " لا تجعلوا مجلسكم حديثا كله ولا انشادا كله ، ولكن امزجوه واجعلوا له من كل شيء نصيبا " .[5]

ومن أدب الحديث أثناء المجلس ، أن لا يبالغ النديم في التبسم والقهقهة[6] ، وكل ما من شأنه أن يسيء الى النديم ، أو يزعج راحة الشرب .

---

1) يبدأ الشابشتي حديثه عن الدير بذكر موقعه ينظر كتابه الديارات .
2) ينظر حياة الشعر في الكوفة 223 .
3) ينظر القيان والغناء في العصر الجاهلي 64
4) المختار من قطب السرور 51
5) أدب الندماء 35
6) ينظر نفسه

ومن النّدمان من يفتتح بالأقداح الصّغيرة ، ثمّ الكبيرة ، بينما هناك ينصح بالافتتاح بالقدح الكبير ، ذلك لأنّه أنفع لهضم الطّعام ، وأسرع الى الاطراب ، اذا لم يكن الغناء ممتعا ، حتّى لا يصاب الشارب بالفتور . وبعد الانتشاء ، يكون النزول من الأقداح الكبيرة الى الصّغيرة (1) .

ونفيد من خلال الخمريات الجاهلية أنّ مجلس الخمر قد يقام في البيوت ، كما يبدو من قول عبيد بن الأبرص :

وبيت يفوح المسك من حجراته تسدّيته من بين سرّ ومخطوب (2)

وجاء في وصف موقع المجلس عند عبدة بن الطّبيب ، أنّه أقيم في بيت مربّع الشّكل بسطت فيه فرش تزيّنها صور الأسد والدّجاج بألوان مختلفة ، وفيه سرج منيرة .

حتّى اتّكأنا على فرش يزيّنها من جيّد الرّقم أزواج تهاويل
فيها الدّجاج وفيها الأسد مخدرة من كلّ شيء يرى فيها تماثيل (3)
في كعبة شادها بان وزيّنها فيها ذبال يضيء اللّيل مفتول

ويزيّن المجلس بالورود والأزهار والرّياحين ، وتعزف القيان أنغاما ، وتغنّي ألحانا لاطراب الشرب . قال الأعشى في ذلك :

وشاهدنا الورد والياسمين والمسمعات بقصّابها
ومزمارنا معمل دائم فأيّ الثّلاثة أزرى بها
ترى الصّنج يبكي له شجوه مخافة أن سوف يدعى بها (4)

وله أيضا يعدّد أنواع الأزهار والورود التي تحضر المجلس ، وكذلك بعض آلات الطرب التي كانوا يعزفون عليها .

---

1) ينظر أدب النّدماء 41
2) الدّيوان 37 .
3) المفضليات 190 - 191
4) الديوان 121 - 122

لنا جلّسان عندها وبنفسج ... وَسَيِسَنبر والمرزجوش مُنَمْنَما

وآس وخيري ومرو وسوسن ... اذا كان هِنزَمَن ورحت مخشّما

وشاهَسْفَرم والياسمين ونرجس ... يصبّحنا في كلّ دجن تغيّما

ومستق سينين وونّ وبربط ... يجاوبه صنج اذا ما ترنّما (1)

ويرى أحد الدّارسين (2)، أنّ الأعشى وصف مجلس الخمر الفارسي لأنّه ذكر كلمات فارسية، وذلك لأنّ الشاعر كان كثير التنقّل، وغالبا ماكان يزور فارس (3). وقد يجوز أن تكون بعض الرّياحين التي ذكرها موجودة بفارس، ولا تنبت بشبه الجزيرة العربية، أو أنّ الشاعر وصحبه اعتادوا أن يسمّوا الرّياحين وآلات العزف بأسمائها الفارسية، لأنّ مجالس الخمر كانت منتشرة عند الفرس بكثرة.

نلاحظ ممّا تقدّم أنّ الجاهلي كان يتفنّن في تزيين مجلس الخمر، وهناك من عدّ ذلك من مظاهر الحضارة التي عرفت في هذا العصر كما يبدو من هذه القولة " ومن أوضح مظاهر الترف والحضارة هذه العناية التي كانت تشيع في اعداد تلك المجالس اعدادا يقوم على تخيّر الورود والرّياحين، ونشر العطور والمسك، فيكاد القارئ لوصف هذه المجالس يلمس الذّوق الفنّي المترف يضفي عليها غلالة من السّحر والرّوعة ". (4)

وللغناء دور مهمّ في مجلس الخمر، فلا يستغنى عنه، وكثيرا مايرد ذكر القيان العازفات اللّائي يطربن الشرب في وصف مجلس الخمر. قال الأعشى :

ومسمعتان وصنّاجة تقلّب بالكفّ أوتارها

وبربطنا دائم معمل ... فقد كان يغلب إسكارها (5)

وأشار حسّان بن ثابت الى مهمّة القيان التي تتمثّل في اطراب الشّرب وسقيهم.

---

1) الديوان 201
2) جميل سعيد
3) ينظر تطور الخمريات 136
4) القيان والغناء 113
5) الدّيوان 214

ظلّ حولي قيانه عازفات … مثل أدم كوانس وعواط
طفن بالكأس بين شرب كرام … مهّدوا حرّ صالح الأنماط (1)

وأشاد طرفة بن العبد في معلّقته بحسن صوت القينة التي تطرب الشرب في المجلس .

اذا نحن قلنا : أسمعينا انبرت لنا … على رسلها مطروقة لم تشدّد
اذا رجّعت في صوتها خلت صوتها … تجاوب أظآر على ربع ردي (2)

ووصف الأعشى اعجابه بعزف القينة حيث قال :

ورادعة بالمسك صفراء عندنا … لجسّ النّدامى في يد الدّرع مفتق
اذا قلت غنّي الشّرب قامت بمزهر … يكاد اذا دارت له الكفّ ينطق (3)

ونلاحظ ممّا تقدم ملازمة الخمر للغناء في المجالس ، فقلّما نجد ذكرا لمجلس غناء الّا وجدنا معه ذكرا للنّدامى ، أو الكأس ، أو نشوة الخمر ، أو وصف السّاقي .(4)

وكان الشّعراء يغنون أشعارهم في المجالس .(5)

ويرد ضمن وصف المجلس ، الحديث عن النّدمان ، وما يتّصفون به من كرم الأخلاق ، وأنبل الصّفات ،(6) كما لا يخلو وصف مجلس الخمر من ذكر الساقي ،(7) فاذا كان الندماء هم أركان المجلس ، فانّ الساقي هو قطب هذا المجلس .

واذا كان شرب الخمر وتقديمها للنّدمان من دلائل الكرم لدى الانسان الجاهلي ، فانّنا نجده لا يبخل على هؤلاء النّدماء بتقديم الطّعام لهم ، وغالبا مايقدّم الشّواء كما نفيد من بيت الأعشى .

---

1) الديوان 291
2) الديوان 31
3) الديوان 147
4) القيان والغناء 110 .
5) ينظر الشعر والغناء 247
6) نكتفي هنا بالاشارة الى الندماء . فقد خصّص فصل للحديث عنهم فيما تقدم .
7) وخصّص أيضا فصل للسّاقي . لذا نكتفي هنا بالاشارة فقط .

(1)
وشاو اذا شئنا كميش بمسعر   وصهباء مزباد اذا ما تصفق

وجاء في وصف حاتم الطائي لندمائه الذين قصدوه وأقاموا مجلسا للخمر عنده :

(2)
فظل عفاتي مكرمين وطابخي   فريقان منهم بين شاو وقادر

ويفيدنا عمر بن أبي ربيعة بأن مجالس الخمر كانت تقام في العصر الاسلامي ، حيث يذكر أن مجلسا جمع فتيانا كراما وقينة وغلاما يطربهم وذلك في قصيدة يستهلها بمدح الرسول (ص) .

لا فخر الا قد علاه محمد ،   فاذا فخرت به فانني اشهد

دع ذا ورح بفناء خود بضة   مما نطقت به وغنى معبد

مع فتية تندى بطون أكفهم   جودا اذا هر الزمان الأنكد

(3)
يتناولون سلافة عانية   طابت تشاربها وطاب المقعد

وقال أبو محجن الثقفي يصف طربه في مجلس الخمر :

وقد تقوم على راسي مغنية   فيها اذا رفعت من صوتها غنج

(4)
ترفع الصوت أحيانا وتخفضه   كما يطن ذباب الروضة الهزج

ويفيدنا ابن أرطأة أن مجلس الخمر في العصر الأموي يقام بين أحضان الطبيعة يحف به النسرين والرياحين ، قال متحدثا عن نديمه :

(5)
أمسي أعاطيه كأسا لذ مشربها   كالمسك حفت بنسرين وريحان

ويذكر أبو جلدة اليشكري أن نديما له كان ينشد الأشعار ويغني في أحد المجالس لاطراب ندمائه ، قال من خلال حديثه عن الخمر :

---

1) الديوان 147

2) الديوان 16

3) الديوان 491

4) الديوان 70

5) الأغاني 2 : 225 .

فتلك اذا نادمت من آل مرثد عليها نديما ظل يهرف بالشمر
يغنيك تارات وطورا يكرها عليك بحياك الاله ولا يدري (1)

وقال الوليد بن يزيد يصف طربه عند ما يجمع بين الخمر والغناء في مجلس الشرب :

حبذا ليلتي بتل بونا حيث نسقى شرابنا ونغني (2)
ومررنا بنسوة عطرات وغناء وقرقف فنزلنا

ولا نستبعد أن يكون للغناء دورهم في مجالس الخمر في هذا العصر ، فقد فتحت فيه دور خاصة للمغنين والمغنيات (3) .

وأشاد أبو الهندي من خلال وصفه لمجلس الخمر بحسن عزف القينة ، فشبه نغمات عودها بهديل الحمام تارة ، وأخرى بنواح الثكلى .

وجارية في كفها عود بربط يجاوبها عند الترنم زيرها
اذا حركته الكف قلت : حمامة تجيب على أغصان أيك تصورها
تجاوب قمريا أغن مطوقا شقائقه منشورة وشكيرها (4)
اذا غردت عند الضحا عسبتها نوائح ثكلى أوجعتها قبورها

واضافة الى الغناء والعزف ، فقد تمتع الندماء في مجلس الخمر الأموي بالرقص ، حيث ترقص القينة على أنغام المزمار ، قال أبو الهندي :

حبذا الشرب بداريـن اذا بت أسقاها وقد غاب القمر
عندنا صناجة رقاصة وغلام كلما شئنا زمر
حسن العرنين ذو قصابة زانه شذر وياقوت ودر (5)

ويفيدنا الأخطل بأن الندماء ينقطعون عن الشرب للاستمتاع بالغناء ، وتناول الشواء :

---

1) الأغاني 11 : 302 - 303
2) الديوان 69 .
3) ينظر تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف 197
4) طبقات الشعراء 141
5) نفسه 139 - 140

وجاؤوا ببيسانية ذهبي بعدما يمل بها الساقي ، ألذ وأسهل

وتوقف أحيانا فيفصل بيننا غناء مغن أو شنواء مرعمل
فلذت لمرتاح وطابت لشارب وراجعني منها مراح وأخيل (1)

وبمجيء العصر العباسي أصبح أصحاب الخمر يقيمون أعراسا اللهو والشراب في أحضان الطبيعة في مجالس تجمع القيان والغلمان وتعزف فيها الأنغام والألحان .
فكثيرا ماكان مجلس الخمر يقام في البساتين تحت الأشجار كما جاء في قول مسلم بن الوليد :

في مجلس نضير يزينه الشهود
غطارف كرام بيض الوجوه صيد
من فوقهم أطيار صياحها تغريد
وتحتهم جنان نباتها نضيد (2)

واجتمع حماد الراوية ومطيع بن اياس ويحيى بن حكم الوادي في مجلس ببستان بالكوفة ، فقال مطيع يصف هذا المجلس :

خرجنا نمتطي الزهرا ونجعل سقفنا الشجرا (3)
ونشربها معتقة تخال بكأسها شررا

و اذا " كان اليوم قائظا شديد الحر عمدوا الى الرياض يتفيئون ظلالها عند ماء جار وجعلوا مجلسهم على بساط الخضرة فوق العشب المرصع بنجوم الزهر ، وتحت الشجر المفتر عن مضاحك النور " . (4)

---

1) الديوان 1 : 3 - 4
2) الديوان 158
3) الأغاني 13 : 322
4) ألحان الحان 244 - 245 .

لمسلم بن الوليد في مجلس أقيم بين الكروم ، حيث كان الشرب يتللون بأغانيهم ويحتسون عصير ثمارها .

في مجلس بين الكروم مظلل ... جعلت له أغصانهن ظلالا (1)

وشبه بشار مجلس الخمر لنضارة وروده بروضة منفردة عن الناس .

وشرب بهاليل في ليلة ... من الشهر حلوا بها صاعدا

تخال جنى الورد والرازقي ... بينهم روضة فاردا (2)

أما اذا كان المجلس ليلا ، فانهم يكثرون مع المصابيح ايقاذ الشموع . (3)

قال مطيع بن اياس في صبوح اصطبحه في بيت ببغداد :

ويوم ببغداد نعمنا صباحه ... على وجه حوراء المدامع تطرب

ببيت ترى فيه الزجاج كأنه ... نجوم الدجى بين الندامى تقلب (4)

وللعباس بن الأحنف يصف نشاط السقاة وحسن أدب الشرب في مجلس خمر .

يديرون أكؤسا من فضة ... وما يفترون وما يمترونا

فخفت على ذاك أيدي السقاة ... وطابت به أنفس الشاربينا

ونحن على حسن آدابنا ... نديرالكؤوس علينا يمينا

اذا ما أمرت على أولين ... من الشاربين أتت آخرينا (5)

ونلاحظ من خلال وصف المجلس في الخمريات العباسية تركيز الشعراء على الطرب وحسن العزف ، وذكر الأنغام المؤثرة التي تستحث السقاة وتطرب الشرب ، كما امتدحوا حسن صوت القيان اللواتي كن يرفقن أصواتهن بنغمات العيدان . ونفيد

---

1) الديوان 160

2) الديوان 3 : 138

3) ينظر ألحان الحان 245

4) الأغاني 13 : 301

5) الديوان 289 .

من هذا تطوّر الغناء في العصر العبّاسي ، فقد عمل الخلفاء العبّاسيون على تشجيع الموسيقيّين والمغنّين ، وخاصة هارون الرّشيد الذي جعل المغنّين طبقات على غرار أردشير بن بابك ، وأنو شروان ، وكان يجزل لهم العطاء [1]. ومن أشهر المغنّين في هذا العصر ، ابراهيم الموصلي ، وسياط وابن جامع [2].

ويذكر مطيع بن ايّاس أنّه استطاب الشرب والسماع فقضى يومه في مجلس خمر حتّى غروب الشمس .

علينا سحيق الزّعفران وفوقنا أكاليل فيها الياسمين المذهّب

فما زلت أسقى بين صنج ومزهر من الرّاح حتّى كادت الشمس تغرب [3]

" كانت العادة في مجالس الشراب عامة أن تكلّل رءوس الشّاربين ومعهم الساقي بأكاليل الزّهر أو على الأقلّ يضعون على متن آذانهم زهرة من الآس أو الآذريون . وهم يجلسون وبين أيديهم قضب الرّياحين . وكلما دخل عليهم داخل رفعوا شيئا منها بأيديهم يحيونه بها " [4]. ويتبادل النّدمان قضب الرّيحان يشمّونها كما يبدو من قول بشار :

نازعته الرّيحان في نفس الضّحى وسماع عاملة اليدين رداح [5]

ويتمنّى العبّاس بن الأحنف أن يدوم مجلسه السّنين الطّويلة ، حتّى يبقى بين شرب وسماع .

ولسنا نؤخّر من شربها فنجعل منها علينا ديونا

نحيّا بها ونسقّى معا ونتبعها الورد والياسمينا

---

1) ينظر تاريخ الحضارة الاسلامية 194

2) ينظر تاريخ العرب 2 : 376

3) الأغاني 13 : 103

4) ألحان الحان 251

5) الديوان 2 : 96

وعين الجواري يغنّيننا بها نتلّهى وما يلتهينا

حسان الوجوه عظام الجسوم كغزلان بريّة يرتعينا

يكدن ، اذا هنّ غنّيننا ، لنا يلتوين وما يلتوينا

رضينا بهنّ للذّاتنا هناك وهنّ بناقد رضينا

اذا النّاي جاوب أصواتهنّ وأوتارهنّ فرنّت رنينا

وروّعن بالصّبح أبصرتنا نفديّ بأنفسنا أجمعينا

فنحن على تلك من حالنا كأنّا سيوف لذاك انتضينا

نحبّ السّماع ونلتذّه ونشرب ماعندنا آمنينا

وفي تلك ننفق أموالنا ونشربها أبدا مابقينا

نظلّ الشّهور وأيّامها على مثل ذاك وطول السّنينا (1)

ونلاحظ في خمريات بشار بن برد اهتماما خاصّا بالعزف والغناء في مجلس الخمر، (2) حتّى انّه يتمنّى له الخلود .

واذكري ليلة السّماء بذي التّاج مقعدا

بين راح ومزهر وغناء شقا الصّدا (3)

اذ تقولين جهرة : ليت ذا دام سرمدا

ودعي بشار بن برد الى مجلس شراب من طرف احد أصحابه ، فنعم بالشرب والطّرب، وقال يصف هذا المجلس .

دعا لنا الحور عليها الحيا يا حبّذا الحور المعاطير

بتنا نعما طيبها رها ويّة وهي عكاف بيننا صور

تزيّن الشّرب وقد زانها في الدّرّ شبّته التّماصير

جوف مصيخات وان قبّلت حنّت كما حنّ المشاوير

---

1) الديوان 289 - 290 .

2) ينظر ديوانه 1 : 161

3) الديوان 2 : 152 - 153 .

يشدون أصواتا مدينيّة ... وضرب مكّيّ له صور
تبكي المزامير لها تارة ... شجوا وتحكيها المزاهر
وأنا محسور بتغريد ها ... إمّا تداعى البمّ والزّير (1)

ولم يقف الشعراء العبّاسيون في وصفهم مجالس الخمر عند الاشارة الى عزف القيان ، بل حاولوا أن يقدّموا لنا صورة لتلك الألحان التي تعزف ، والتي تبلغ درجة كبيرة من التأثير في الشرب . فهذا مسلم بن الوليد يؤكّد اعجابه بعزف القينة فيقول انّها تضرب على بعض الأوتار فتصدر أنغاما تشبه قهقهة الضّاحك ، ثمّ تلحّ على أخرى فيحسب السّامع أنغامها بكاء لشدّة رقّتها .

وحنّ لنا عود فباح بسرّنا ... كأنّ عليه ساق جارية عطل
تضاحكه طورا وتبكيه تارة ... خذلّجة هيفاء ذات شوى عبل
وأسعدها المزمار يشدو كأنّه ... حكى نائحات بتن يبكين من ثكل (2)

ويذكر الشاعر في بيته الأخير أنّ جارية أخرى كانت ترفق نغمات العود بصوت مزمار كانت تزمر به . فشبّه تجاوب الصّوتين وتآلفهما بنواح الثّكالى . ولعلّ سرّ تشبيه نغمات العود أو صوت المزمار ببكاء الثكالى يرجع الى شدّة تأثّر الشاعر بهذه الأنغام ، وهو تحت نشوة الخمر . وقد تقدّم هذا المعنى مع أبي الهندي ، ولعلّ مسلما أفاد منه .

أمّا بشار فيشّبه صوت العود بالنباح ، كما يفيد نا بأنّ القينة ترفق نغمات عودها بلحن تردّده ، فيصف صوتها بأنّه تخالطه بحّة وهي خشونة تضعف نبرته وتعدّ من محاسن الصوت . قال بشار :

لم أنس مجلسنا وقينتنا * ... ونباح مزهرها اذا نبحا
بيدي مسوّرة تزيّنه ... بسماعها وسماعها سرحا
حتّى اذا أخذت برمّته ... وحنّت عليه (م) لجينا (مرحا) * *
ارتجّ واندفعت تعارضه ... غنّاء خالط صوتها بححا (3)

---

1) الديوان 3 : 771 - 178
2) الديوان 34 - 35
3) الديوان 2 : 76 * ورد في الديوان وقينتهاوتبهذا لا يستقيم المعنى .
* * هكذا وردت الكلمتان، والمحقق غير متأكد منهما بسبب محو في المخطوط .

عند الاطلاع على مجالس الخمر في العصر العبّاسي ، نلاحظ ما كان يسود هذه المجالس من مجون ولهو وعربدة وقصف مع القيان اللّواتي كنّ يحضرن المجالس . ولم يتحرّج الشعراء من وصف عبث الشاربين مع القيان أو الغلمان في أشعارهم .

وقد لقيت العامّة - في حقيقة الأمر - تشجيعا من طرف الخلفاء الذين كانوا يعقدون مجالس للخمر بقصورهم ، ويجمعون فيها الشعراء والظرفاء والمجان . بل انّهم كانوا يبالغون في مكافأتهم ، حيث يغدقون عليهم الأموال والجواهر ، كما أنهم كانوا يهبونهم القيان والغلمان (1) .

قال مسلم بن الوليد يصف ندماءه في أحد مجالسهم :

وعندهم دفاف … وزامر وعود
خاضوا ببحر قصف … تجري له مدود
حتّى انتشوا وقاموا … مجلسهم محمود
من قال مثل هذا … فانّه سعيد
هذا الخلود عندي … لو دام لي الخلود (2)

فالشاعر هنا يأسف على عدم خلود هذا النّعيم ، لأنّه يرى أن هذا المجلس استقطب كلّ المتع وجمعها . وطالما تحسّر الشّعراء على فوات مجلس الأنس والشراب ، ولا نجدهم يذكرونه الاّ بالشّغف والحنين اليه . قال مطيع بن ايّاس يذكر مجلسا دام ثلاثة أيام حضره في بستان بضواحي بغداد بالكرخ ، يقال له بستان صبّاح :

كم ليلة بالكرخ قد بتّها … جذلان في بستان صبّاح
في مجلس تنفح أرواحه … ياطيبها من ريح أرواح (3)

وقال متحسّرا ينسب كلّ شيء الى الفناء حتّى مجلس الخمر ، فكلّ شيء في الدّنيا مآله الزوال .

---

1) ينظر تاريخ الأدب العربي لنكلسن 69 ، وكذا تاريخ الخلفاء 279 .

2) الديوان 158

3) الأغاني 13 : 321 .

فرب يوم قصر في جوسق وجنان
بالراح فيه يحييا والقصف والريحان

فزال ذلك جميعا وكل شيء فان (1)

كما يتحسر الشاعر بشار بن برد على فوات يوم نعم فيه بمجلس خمر بين الأشجار، فنال من الشراب واللهو ماطاب له، وفي الأخير يواسي نفسه - كما فعل مطيع بن اياس - بأنها سنة الله، فكل عيش مآله الزوال.

لهفي على يومي بذي باسم ومجلس بين خليج وغاب
يامجلسا أكرم به مجلسا حف بريحان وعيش عجاب
بت به أسقى رها ويتة لعيب ست خلقت للعاب (2)
ثم غدونا وغدا ذاهبا وكل عيش مؤذن بالذهاب

أما المجالس التي كان يغشاها أبو نواس، والتي أفرد لها مقاطعات وقصائد من ديوانه، وخصها بالوصف الدقيق، فاننا نلاحظ من خلالها مدى اهتمام الشاربين بانتقاء موقع المجلس الذي غالبا ما يعقد في بستان تجري مياهه، وتتكاثف أشجاره، ويفوح عبيره لما كسيت به أرضه من ورود وأزهار. ويمكن لنا القول بأن النواسي كان يتفنن في وصف هذه البساتين والرياض، التي كانت تقام فيها المجالس (3)، كقوله يصف جمال الأزهار المزركشة، ومسرح الظباء البيض حول المجلس:

واطردت عيناك في روضة تضحك عن خضر وعن صفر

على خزاماها، وحوذانها ومشكل من حلل الزهر
في مسرح ترتع أكنافه شوادن من بقر زهر (4)

ومر بنا أن المباسيين كانوا يقيمون مجالس الخمر تحت ظلال الكروم، وهاهو أبو نواس يؤكد ذلك في قوله:

---

1) الأغاني 13 : 293
2) الديوان 1 : 297.
3) ينظر ديوانه 63، 64، 80، 82، 145، 171، 196.
4) الديوان 82.

فشربنا شرب قـــوم عطشوا من عهد عاد (1)
بين أفياء عـريش عمدوه بعماد
(2)

وكانت فرحة الشاعر تتم عند ما يقام المجلس قرب الأنهار والجداول كما نفيد من قوله :

قالوا الصبوح فقلت أكرم مشهد طابت ،وطاب لها أخ وحميم
في روضة لعب النعيم بحورها فلهن من خلل الديار رسوم
فمن اليمين جداول منسوقة وعن الشمال حدائق وكروم (3)

ويطيب لشاعرنا التغني بأرض المجلس المغطاة بأزهار مختلفة الألوان ،فيشبهها بثوب مزركش . أو ثوب يمني موشى . (4)

في روضة بالنبات يانعة قد حفها كل نير حسن
كأنما التوشي من زخارفها وشي ثياب بسطن باليمن (5)

وفي فصل الربيع ،يطرب الشاعر الى الشرب في مجالس بين أحضان الطبيعة . قال مشبهها أرض المجلس الموشاة بالحلل .

أما ترى الشمس حلت لحملا وقام وزن الزمان ،فاعتدلا
وغنت الطير بعد عجمتها واستوفت الخمر حولها كملا (6)
واكتست الأرض من زخارفها وشي نبات ،تخاله حللا

" وقد أكثر الشاعر في خمرياته هذه من التغني بالربيع ،حتى ليكاد يتبادر الى الفكر، أن الربيع بما يشيعه في الطبيعة من الحياة ،وما يبعثه في كل حي من دواعي الشوق ، وما تحدثه في الحس سطعة نوره وصحو أديمه ورقة نسيمه هو الذي يحرك شاعرنا

---

1) الديوان 64
2) ينظر ديوانه 80
3) الديوان 193
4) ينظر ديوانه 145 .
5) الديوان 196
6) نفسه 63 .

الى الشّـــرب ،ويجعلــه يتطـرب الـى السّكـــر " (1)

وهـا هو شاعرنا يهلّل بقدوم النّوروز ،وهو عيد الرّبيع عند الفرس ،فيصف جمـــال الطّبيعـة ،وخروجـه وصحبه الى شرب الخمر واللّهـو في أحضان الطّبيعة . يباكرنا النوروز

يباكرنا النوروز في غلس الدّجـــى بنــور علـى الأغصـان كالأنجم الزّهـــر
يلـوح كـأعلام المطـارف وشيــــه من الصّفر فـوق البيض والخضر والحمـر
اذا قابلتـه الرّيـح أو مابرأســــه الى الشّـــرب أن سرّوا ومال من السّكر (2)

واذا نحن تتبّعنا وصف أبي نواس لمجالس الخمر ،فانّنا نلاحظ أنّه كان يذكر اســـم مكـان المجلس ـ علاوة على وصف موقعه ـ فهو لا يتحدّث عن مجلس الخمر بصفة عامّــة ، بـل انّـه يعمد الى التّدقيـق في وصفه ،فيسمّي المكان باسمه ،كذكره " لقُطْرَبُّـل " الذي تـردّد كثيرا في خمرياتـه ،وهو اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب اليها الخمر ،ومازالت متنزها للباطلين وحانة للخمارين (3). قال أبو نـــوا س :

ومجلس خمّـار ،الى جنـب حانــة بقطـربّـل بين الجنـان الحدائـــق
تجاه ميادين ،على جنباتهـــا رياض غـدت محفوفة بالشّقـائـــق (4)

كما تردّد اسم " الكَرْخ " في خمريـات أبي نـواس،والكرخ محلة ببغداد (5) ،قال أبـو نـواس يصـف جمال موقعهـا :

وصل الى مجلـس علـى شـــرف بالكـرخ بـين الحديـق ،ممتمـد
ممهّد صفّقت نمـارقـــه في ظـلّ كـرم معـرّش خـضـد
قد لحفتـك الغصـون أرديـة فيومـك الغضّ بالنّعيم نـدي
بين فسيل يحفّها خـضـل وبـين آس بالـرّيّ منفـــرد (6)

ومن الأماكن التي اشتهرت بخمرها وحاناتها " طِيْزَنَابَاذ " وهو موضع بين الكوفـــة والقادسية ،كانت " من أنزه المواضع محفوفة بالكروم والشّجر والحانات والمعاصر وكانـــت أحد المتواضع المقصودة للهو والبطالة وهو الآن خراب لم يبق به الا أثر قباب يسمّونهـا قباب أبي نواس " (7). وكثيرا ما تردّد اسم هذا الموضع في خمريات النّواسي كقوله فيـه :

---

1) ألحان الحـان 104
2) الديـوان 322
3) ينظر معجم البلدان 4 : 133
4) الديـوان 171
5) معجم البلدان 4 : 254 - 255
6) الديـوان 172 - 173
7) معجم البلدان 3 : 570

(1)
ياحبّذا مجلس قد كان يجمعنا بطيزنا باذ في بستان عمّار

وقد عمد أحد الدّارسين(2) الى وصف هذا المكان بأنّه " معدن السّكر والحانات والمواخير ".

ويذكر أبو نواس مرّة أنّه جلس وصحبه الى الخمر بخيمة ناطور الكرم على هضبة مرتفعة لجأوا اليها فارّين من حرّ الهجيرة .

وخيمة ناطور برأس منيفة تهمّ يدا من رامها بزليل

حططنا بها الأثقال فلّ هجيرة عبوريّة تذكى بغير فتيل

حلبت لأصحابي بها درّة الصّبا بصفراء من ماء الكروم شمول (3)

ونجد النّواسي يصرّح بنفوره من حياة العرب القاسية ،فهو لا يستهويه وصف الصّحاري القاحلة ،والأطلال الدّارسة بقدر ما يطيب له وصف الرّياض والبساتين النّضرة حيث يعقد وصحبه مجالس الشرب والقصف ، وذلك لأنّ أبا نواس يميل الى الحياة السّهلة، حيث الرّاحة والنّعيم ،وينفر من حياة العرب القاسية ،فهو يعايش عصره ،ولا يحتقل أن يصف البراري والأطلال وهو ينعم بمجالس الخمر وسط الرّياض والبساتين ،وكثيرا مايعمد الشّاعر الى المقارنة بين الصّحاري القاحلة والبساتين اليانعة عند وصفه مجلس الخمر كما جاء في قولته :

أحبّ اليّ من وخد المطايا بموماة يتيه بها الظّليم

ومن نعت الدّيار ،ووصف ربع تلوح به على القدم الرّسوم

رياض بالشّقائق مونقات تكنّف نبتها نور عميم

كأنّ بها الأقاحي حين تضحى عليها الشمس طالعة نجوم

ومجلس فتية طابوا ،وطابت مجالسهم ،وطاب بها النّعيم ، (4)

وما نسي أبو نواس الاشارة الى الأنغام التي كانت تعزف والألحان التي كانت تغنّي لا يمانه بأهمّيتهما في مجلس الخمر . فأطيب العيش عنده يتمثل في الجمع بين الشّرب والسّماع .

لا خير في العيش الاّ بالمدام مع الـ أكفاء في الورد والخيريّ والآس

ومسمع يتغنّى والكؤوس لها حثّ علينا بأخماس وأسداس (5)

---

1) الديوان 145
2) الدكتور جميل سعيد في كتابه تطور الخمريات : 130
3) الديوان : 16
4) نفسه 187
5) نفسه 140

وكثيرا ماكان يقرن حديثه عن مجلس الخمر بالحديث عن الطرب ، وذلك لأنّه يحبّ اللّهو ، ويرى أنّه متعلّق بالطرب كما جاء في قوله : [1]

قد أسحب الزّق يأباني وأكرهه   حتّى له في أديم الأرض أخدود
انّ الملاهي أصناف يشيّدها   ناي ، به المزهر الفرّيد معقود

— — —

فاستنطق العود ، قد طال السّكوت به   لا ينطق اللّهو حتّى ينطق العود
وفضلّه عند أهل الظّرف كلّهم   فضل البرامك أن علاّهم الجود [2]

كما وصف لنا أبو نواس تأثّر الشّرب بالعزف والغناء في مجلس الخمر ، فهم لا ينطقون بكلمة ، ولا يحرّكون ساكنا حتّى يتمكّنوا من التّمتّع بحسن الأصوات والألحان .

في مجلس جعل السّرور جناحه   سترا له من ناظر الحدثان
لا يطرق الأسماع في أرجائه   الاّ ترنّم ألسن العيدان
أو صوت تصفيق الجليس تطرّبا   وبكاء خابية ، وضحك قناني [3]

وقال يصف ذهول الشرب عند سماع صوت المغنّي :

وعند ناضارب يشدو فيطربنا   " يا دار هند بذات الجزع حيّيت "
اليه ألحاظنا تثنّى أعنّتها   فلو ترانا اليه كالمباهيت
من أهل هيت ، سخيّ النجرم ، ذي أنسبه   له أقول مزاحا : هات ياهيتي !
فينبري بفصيح اللّحن عن نغم   مثقّفات ، فصيحات بتثبيت
حتّى اذا فلك الاوتار دار بنا   مع الطّبول ظللنا كالسبابيت [4]

ونلاحظ عند أبي نواس ظاهرة التّضمين لشعر غيره ضمن قصائده ، وذلك عند حديثه عن الغناء في مجلس الشرب . [5] وهو تضمين جيّد ، حيث يطعّم قصائده بالشعر القديم ، كتضمينه لشطر بيت زهير بن أبي سلمى في قوله :

ولمّا لاح ضوء الصّبح عنّا   وحرّك عوده بدر وسيم [6]
بصوت أخي الحجاز ، فهاج شوقي   " لمن طلل برامة لا يريم "

---

1) ينظر ديوانه : 65 ، 119 ، 146 ، 151 ، 192 ، 214 ، 322 ، 323 .
2) الدّيوان 81
3) نفسه ، 195
4) نفسه 40
5) وردت الاشارة الى هذه الظاهرة في فصل الخمر والساقي .
6) الديوان 158 .

وقد يذكر النّواسي صاحب الشّعر الذي يضمّن به قصيدته كما جاء في قوله :

وهات فغنّني بيتي نصيب فقد وافاني القدح المدار
" ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسي النّشأ الصغار
" بنفسي كلّ مهضوم حشاها اذا ظلمت فليس لها انتصار " (1)

ويدعو الشاعر ندماءه الى تنزيه مجلس الخمر عن كلّ فاحشة ، وذلك بالتّسامح وحسن الحديث . قال يصف أحد المجالس :

في مجلس ليس فيه فاحشة الّا حديث ، ومنطق أنق (2)

وهذا ماجعل النّويهي يقول فيه : " ويريد أن يكون مجلس الشرب تام التّهذيب مستوفي الأدب منزّها عن الهجر ، يريد مجلس سلام ومحبّة لا يكدّره تخاصم أو سباب " (3).

وقد يستطيب النّواسي جمال موقع المجلس ، وحديث النّدمان ، وحسن الغناء ، فيمكث بمكانه لا يبرحه . ويذكر أنّه خرج يوما وصحبه الى القفص بضواحي بغداد فجلسوا الى الشراب في احدى الدّساكر ، فطابت جلستهم وطال مقامهم بالقفص أسبوعا كاملا ، فقال أبو نواس يصف ذلك :

ياطيبنا بقصور القفص ، مشرفة فيها الدّساكر ، والأنهار تطّرد

فلم نزل في صباح السبت نأخذها والّليل يجمعنا ، حتّى بدا الأحد
ثمّ ابتدأنا الطّلا باللّهو من أمم في نعمة غاب عنها الضّيق والنّكد
حتّى بدت غرّة الاثنين واضحة والسّعد معترض ، والطّالع الأسعد
وفي الثلاثاء أعطنا المطيّ بها صهباء ، ماقرعتها بالمزاج يد
والأربعاء كسرنا حدّ سورتها والكأس يضحك في تيجانها الزّبد
ثمّ الخميس وصلناه بليلته قصفا ، وتمّ لنا بالجمعة العدد (4)

---

1) الديوان 180
2) نفسه 54
3) نفسية أبي نواس 12
4) الديوان 79 - 80 .

وهكذا نفيد من خلال هذه المقطوعة خلاعة بعض مجان العصر العباسي الذي أصبح همّهم في الحياة يتمثّل في الجري وراء اللّذات من خلال المجالس التي كانت تعقد للخمر واللّهو .

واذا كانت المقطوعات التي خصصها أبو نواس لوصف مجالس الخمر تعرض لوصف جمال موقع المجلس ، وآلات الطرب ، والعزف والغناء ، وذكر النّدماء والساقي بصفة عامة والتي كانت في بعض الأحيان متناسخة ـ الّا أنّنا نجده أحيانا يتعرّض للمجلس بالوصف بطريقة طريفة ، وذلك كتشبيهه مجلس الشراب بحلبة السّباق في قصيدة يقول فيها :

اذا أجرى أمين اللّه في الحلبة أفراسا
أقمنا حلبة اللّهو فأجرينا بها الكاسا
وأنشأنا بها من طرف الرّيحان أجناسا
بميدان جعلنا خيله طاسا وأكواسا
وصيّرنا على السّبق مكان القصب الآسا (1)
ومجريهنّ ساق يبعث الابريق والطّاسا

فالشاعر يعمد الى وصف مجلس الخمر وما يحتويه من خلال مقارنته بحلبة السّباق ، كما قال يشبّه مجلس الخمر بساحة القتال أثناء الحرب :

اذا عبّا أبو الهيجاء للهيجاء فرسانا
وسارت رأية الموت أمام الشيخ إعلانا
وشبّت حربها واشتعلت تلهب نيرانا
وأبدت لوعة الوقعة أضراسا وأسنانا
جعلنا القوس أيدينا ونبل القوس سوسانا
وقدّمنا مكان النّبل والمطرد ريحانا
فمادت حربنا أنسا وعدنا نحن خلّانا
بفتيان يرون القتل في اللّذة قربانا
اذا ما ضربوا الطّبل ضربنا نحن عيدانا
وأنشأنا كراديسا من الخيريّ ألوانا
وأحجار المجانيق لنا تفاح لبنانا
ومنشا حربنا ساق سبا خمرا فسقّانا
يحثّ الكأس كي تلحق أخرانا بنا أولانا

---

1) الدّيوان 217 .

عند الاطلاع على مجالس الخمر في العصر العباسي ، نلاحظ ما كان يسود هذه المجالس من مجون ولهو وعربدة وقصف مع القيان اللواتي كنّ يحضرن المجالس . ولم يتحرّج الشعراء من وصف عبث الشاربين مع القيان أو الغلمان في أشعارهم .

وقد لقيت العامّة - في حقيقة الأمر - تشجيعا من طرف الخلفاء الذين كانوا يعقدون مجالس للخمر بقصورهم ، ويجمعون فيها الشعراء والظرفاء والمجان . بل انّهم كانوا يبالغون في مكافأتهم ، حيث يغدقون عليهم الأموال والجواهر ، كما أنهم كانوا يهبونهم القيان والغلمان (1) .

قال مسلم بن الوليد يصف ندماءه في أحد مجالسهم :

وعندهم دفاف وزامر وعود
خاضوا ببحر قصف تجري له مدود
حتّى انتشوا وقاموا مجلسهم محمود
من قال مثل هذا فانّه سعيد
هذا الخلود عندي لو دام لي الخلود (2)

فالشاعر هنا يأسف على عدم خلود هذا النّعيم ، لأنّه يرى أن هذا المجلس استقطب كلّ المتع وجمعها . وطالما تحسّر الشّعراء على فوات مجلس الأنس والشراب ، ولا نجدهم يذكرونه الّا بالشغف والحنين اليه . قال مطيع بن ايّاس يذكر مجلسا دام ثلاثة أيّام حضره في بستان بضواحي بغداد بالكرخ ، يقال له بستان صبّاح :

كم ليلة بالكرخ قد بتّها جذلان في بستان صبّاح
في مجلس تنفح أرواحه ياطيبها من ريح أرواح (3)

وقال متحسّرا ينسب كلّ شيء الى الفناء حتّى مجلس الخمر ، فكلّ شيء في الدّنيا مآله الزوال .

---

1) ينظر تاريخ الأدب العربي لنكلسن 69 ، وكذا تاريخ الخلفاء 279 .

2) الديوان 158

3) الأغاني 13 : 321 .

فرُبّ يوم قصير ... في جوسق وجنان
بالرّاح فيه يحيّا ... والقصف والرّيحان

— — —

فزال ذاك جميعا ... وكلّ شيء فان (1)

كما يتحسّر الشّاعر بشار بن برد على فوات يوم نعم فيه بمجلس خمر بين الأشجار، فنال من الشراب واللّهو ما طاب له، وفي الأخير يواسي نفسه - كما فعل مطيع بن ايّاس - بأنّها سنّة الله، فكل عيش مآله الزّوال.

لهفي على يومي بذي باسم ... ومجلس بين خليج وغاب
يامجلسا أكرم به مجلسا ... حفّ بريحان وعيش عجاب
بتّ به أسقى رها وبيّنة ... لعيب ستّ خلقت للّعاب (2)
ثمّ غدونا وغدا ذاهبا ... وكلّ عيش مؤذن بالذّهاب

أمّا المجالس التي كان يغشاها أبو نواس، والتي أفرد لها مقاطعات وقصائد من ديوانه، وخصّها بالوصف الدّقيق، فانّنا نلاحظ من خلالها مدى اهتمام الشّاربين بانتقاء موقع المجلس الذي غالبا ما يعقد في بستان تجري مياهه، وتتكاثف أشجاره، ويفوح عبيره لما كسيت به أرضه من ورود وأزهار. ويمكن لنا القول بأنّ النّواسي كان يتفنّن في وصف هذه البساتين والرّياض، التي كانت تقام فيها المجالس (3)، كقوله يصف جمال الأزهار المزركشة، ومرح الظباء البيض حول المجلس :

واطّردت عيناك في روضة ... تضحك عن خضر وعن صفر

— — —

على خزاماها، وحوذانها ... ومشكل من حلل الزّهر (4)
في مسرح ترتع أكنافه ... شوادن من بقر زهر

ومرّ بنا أنّ العبّاسيّين كانوا يقيمون مجالس الخمر تحت ظلال الكروم، وها هو أبو نواس يؤكّد ذلك في قوله :

---

1) الأغاني 13 : 293
2) الديوان 1 : 297 .
3) ينظر ديوانه 63، 64، 80، 82، 145، 171، 196 .
4) الديوان 82 .

فشربنا شرب قـوم عطشوا من عهد عاد (1)
بدون أفياء عريش عمدوه بعماد
(2)

وكانت فرحة الشاعر تتم عند ما يقام المجلس قرب الأنهار والجداول كما نفيد من قوله :

قالوا الصّبوح فقلت أكرم مشهد طابت ،وطاب لها أخ وحميم
في روضة لمصب النّسيم بحورها فلهنّ من خلل الدّيار رسوم
فعن اليمين جداول منسوقة وعن الشّمال حدائق وكروم (3)

ويطيب لشاعرنا التّغنّي بأرض المجلس المغطاة بأزهار مختلفة الألوان ،فيشبهها بثوب مزركش ، أو ثوب يمني موشّى . (4)

في روضة بالنّبات يانعة قد حفّها كلّ نيّر حسن
كأنّما الوشي من زخارفها وشي ثياب بسطن باليمن (5)

وفي فصل الرّبيع ،يطرب الشاعر الى الشرب في مجالس بين أحضان الطبيعة . قال مشبّها أرض المجلس الموشّاة بالحلل .

أما ترى الشّمس حلت الحملا وقام وزن الزّمان ،فاعتدلا
وغنّت الطّير بعد عجمتها واستوفت الخمر حولها كملا (6)
واكتست الأرض من زخارفها وشي نبات ،تخاله حللا

" وقد أكثر الشّاعر في خمرياته هذه من التّغنّي بالرّبيع ،حتّى ليكاد يتبادر الى الفكر، أن الرّبيع بما يشيعه في الطبيعة من الحياة ،وما يبعثه في كلّ حيّ من دواعي الشّوق ، وما تحدثه في الحسّ سطعة نوره وصحو أديمه ورقّة نسيمه هو الذي يحرّك شاعرنا

---

1) الديوان . 64
2) ينظر ديوانه 80
3) الديوان 193
4) ينظر ديوانه 145 .
5) الديوان 196
6) نفسه 63 .

الى الشّـــرب ، ويجعلـــه يتطـــرب الـــى السّكـــر " (1)

وهـا هو شاعرنا يهلّل بقدوم النّوروز ، وهـو عيـد الـرّبيـع عند الفرس ، فيصف جـمـــال الطّبيعـة ، وخروجـه وصحبه الى شرب الخمر واللّهـو في أحضان الطّبيعة . يباكرنا النوروز

يباكرنا النّوروز في غلس الدّجـــى   بنـور علـى الأغصـان كالأنجم الـزّهـــر

يلـوح كـأعلام المطـارف وشيــــه   من الصّفر فـوق البيـض والخضر والحمـر

اذا قابلتـه الرّيـح أو مابرأســــه   الى الشّـــرب أن سرّوا ومال من السّكـر (2)

واذا نحن تتبّعنا وصف أبي نواس لمجالس الخمر ، فانّنـا نلاحظ أنّـه كان يذكر اســـم مكـان المجلس - علاوة على وصف موقعه - فهو لا يتحدّث عن مجلس الخمر بصفة عامّـــة ، بـل انّـه يعمد الى التّدقيـق في وصفه ، فيسمّي المكان باسمه ، كذكره " لقُطْرَبُّـل " الذي تـردّد كثيرا في خمرياتـه ، وهو اسم قريـة بين بغداد وعكبرا ينسـب اليها الخمر ، وما زالت متنزها للباطلين وحانة للخمارين (3) . قـال أبو نـواس :

ومجلس خـمّـار ، الى جنـب حانـــة   بقطـربـّل بين الجنـان الحدائــــق

تجـاه ميـادين ، على جنباتهـــا   ريــاض غـدت محفوفـة بالشّقـــائــــق (4)

كـما تردّد اسم " الكَرْخ " فـي خـمريـات أبي نـواس ، والكرخ محلـة ببغداد (5) ، قال أبـو نـواس يصـف جمال موقعهـا :

وصل الى مجلس علــى شــــرف   بالكـرخ بـين الحديـق ، ممتـد

ممهـد صفّقت نمـار قـــــه   فـي ظـلّ كـرم معـرّش خـضـد

قـد لحفتـك الغصـون أرديـة   فيـومـك الغضّ بالنّعيم نـدي

بين فسيل يحفّهـا خضـــل   وبـين آس بالـرّيّ منـفـرد (6)

ومن الأماكن التي اشتهرت بخمرها وحاناتها " طِيزَنَاباذ " وهو موضع بين الكوفـــة والقادسية ، كانت " من أنزه المواضع محفوفة بالكروم والشّجر والحانات والمعاصر وكانـــت أحـد المواضع المقصودة للهو والبطالة وهو الآن خراب لم يبق به الا أثر قباب يسمّونهـا قباب أبي نواس " (7) . وكثيرا ما تردّد اسم هذا الموضع في خمريات النّواسي كقوله فيـه :

---

1) ألحان الحـان 104
2) الديـوان 322
3) ينظر معجم البلدان 4 : 133
4) الديـوان 171
5) معجم البلدان 4 : 254 - 255
6) الديـوان 172 - 173
7) معجم البلدان 3 : 570

(1)

يا حبّذا مجلس قد كان يجمعنا بطيرنا باذ في بستان عمّار

وقد عمد أحد الدّارسين(2) الى وصف هذا المكان بأنّه " معدن السّكر والحانات والمواخير ".

ويذكر أبو نواس مرّة أنّه جلس وصحبه الى الخمر بخيمة ناطور الكرم على هضبة مرتفعة لجأوا اليها فارّين من حرّ الهجيرة .

وخيمة ناطور برأس منيفة تهمّ يدا من رامها بزليل

حططنا بها الأثقال فلّ هجيرة عبوريّة تذكي بغير فتيل

حلبت لأصحابي بها درّة الصّبا(3) بصفراء من ماء الكروم شمول

ونجد النّواسي يصرّح بنفوره من حياة العرب القاسية ،فهو لا يستهويه وصف الصّحاري القاحلة ،والأطلال الدّارسة بقدر ما يطيب له وصف الرّياض والبساتين النّضرة حيث يعقد وصحبه مجالس المشرب والقصف ، وذلك لأنّ أبا نواس يميل الى الحياة السّهلة، حيث الرّاحة والنّعيم ،وينفر من حياة العرب القاسية ،فهو يعايش عصره ،ولا يعقل أن يصف البراري والأطلال وهو ينعم بمجالس الخمر وسط الرّياض والبساتين ،وكثيرا ما يعمد الشّاعر الى المقارنة بين الصّحاري القاحلة والبساتين اليانعة عند وصفه مجلس الخمر كما جاء في قولته :

أحبّ اليّ من وخد المطايا بموماة يتيه بها الظّليم

ومن نعت الدّيار ،ووصف ربع تلوح به على القدم الرّسوم

رياض بالشّقائق مونقات تكنّف نبتها نور عميم

كأنّ بها الأقاحي حين تضحى عليها الشمس طالعة نجوم

ومجلس فتية طابوا ،وطابت(4) مجالسهم ،وطاب بها النّعيم ،

وما نسي أبو نواس الاشارة الى الأنغام التي كانت تعزف والألحان التي كانت تغنّي لا يمانه بأهمّيتهما في مجلس الخمر . فأطيب العيش عنده يتمثل في الجمع بين الشّرب والسّماع .

لا خير في العيش الاّ بالمدام مع الـ أكفاء في الورد والخيريّ والآس

ومسمع يتغنّى والكؤوس لها(5) حثّ علينا بأخماس وأسداس

---

1) الديوان 145

2) الدكتور جميل سعيد في كتابه تطور الخمريات : 130

3) الديوان : 16

4) نفسه 187

5) نفسه 140

وكثيرا ماكان يقرن حديثه عن مجلس الخمر بالحديث عن الطرب (1) ، وذلك لأنّه يحبّ اللّهو ، ويرى أنّه متعلّق بالطرب كما جاء في قوله :

قد أسحب الزّق يأباني وأكرهه حتّى له في أديم الأرض أخدود
انّ الملاهي أصناف يشيّدها ناي ، به المزهر الفرّيد معقود

فاستنطق العود ، قد طال السّكوت به لا ينطق اللّهو حتّى ينطق العود
وفضّله عند أهل الظّرف كلّهم فضل البرامك أن علاهم الجود (2)

كما وصف لنا أبو نواس تأثّر الشّرب بالعزف والغناء في مجلس الخمر ، فهم لا ينطقون بكلمة ، ولا يحرّكون ساكنا حتّى يتمكّنوا من التّمتّع بحسن الأصوات والألحان .

في مجلس جعل السّرور جناحه سترا له من ناظر الحدثان
لا يطارق الأسماع في أرجائه الاّ ترنّم ألسن العيدان
أو صوت تصفيق الجليس تطرّبا وبكاء خابية ، وضحك قناني (3)

وقال يصف ذهول الشرب عند سماع صوت المغنّي :

وعند ناضارب يشدو فيطربنا " يادار هند عفت الاجزعي ~~خبت~~
اليه ألحاظنا تثنى أعنّتها فلو ترانا اليه كالمباهيت

من أهل هيت ، سخيّ الجرم ، ذي أنسيه له أقول مزاحا : هات ياهيتي !
فينبري بفصيح اللّحن عن نغم مشقّقات ، فصيحات بتثبيت
حتّى اذا فلك الأوتار دار بنا مع الطّبول ظللنا كالسباييت (4)

ونلاحظ عند أبي نواس ظاهرة التّضمين لشعر غيره ضمن قصائده ، وذلك عند حديثه عن الغناء في مجلس الشرب (5) . وهو تضمين جيّد ، حيث يطعّم قصائده بالشعر القديم ، كتضمينه لشطر بيت زهير بن أبي سلمى في قوله :

ولمّا لاح ضوء الصّبح عشّا وحرّك عوده بدر وسوم
بصوت أخي الحجاز ، فهاج شوقي " لمن طلل برامة لا يريم " (6)

---

1) ينظر ديوانه : 65 ، 119 ، 146 ، 151 ، 192 ، 214 ، 322 ، 323 .
2) الدّيوان 81
3) نفسه ، 195
4) نفسه 40
5) وردت الاشارة الى هذه الظاهرة في فصل الخمر والساقي .
6) الديوان 158 .

وقد يذكر النّواسي صاحب الشّعر الذي يضمّن به قصيدته كما جاء في قوله :

وهات فغنّني بيتي نصيب ... فقد وافاني القدح المدار
" ولولا أن يقال صبا نصيب ... لقلت بنفسي النّشأ الصغار (1)
" بنفسي كلّ مهضوم حشاها ... اذا ظلمت فليس لها انتصار " .

ويدعو الشاعر ندماءه الى تنزيه مجلس الخمر عن كلّ فاحشة ، وذلك بالتّسامح وحسن الحديث . قال يصف أحد المجالس :

(2)
في مجلس ليس فيه فاحشة ... الّا حديث ، ومنطق أنق

وهذا ماجعل النّويهي يقول فيه : " ويريد أن يكون مجلس الشرب تام التّهذيب مستوفي الأدب منزّها عن الهجر ، يريد مجلس سلام ومحبّة لا يكدّره تخاصم أو سباب " . (3)

وقد يستطيب النّواسي جمال موقع المجلس ، وحديث النّدمان ، وحسن الغناء ، فيمكث بمكانه لا يبرحه . ويذكر أنّه خرج يوما وصحبه الى القفص بضواحي بغداد فجلسوا الى الشراب في احدى الدّساكر ، فطابت جلستهم وطال مقامهم بالقفص أسبوعا كاملا ، فقال أبو نواس يصف ذلك :

يا طيبنا بقصور القفص ، مشرفة ... فيها الدّساكر ، والأنهار تطّرد

فلم نزل في صباح السبت نأخذها ... واللّيل يجمعنا ، حتّى بدا الأحد
ثمّ ابتدأنا الطّلا باللّهو من أمم ... في نعمة غاب عنها الضّيق والنّكد
حتّى بدت غرّة الاثنين واضحة ... والسّعد معترض ، والطّالع الأسعد
وفي الثلاثاء أعملنا المطيّ بها ... صهباء ، ماقرعتها بالمزاج يد
والأربعاء كسرنا حدّ سورتها ... والكأس يضحك في تيجانها الزّبد
ثمّ الخميس وصلناه بليلته ... قصفا ، وتمّ لنا بالجمعة العدد (4)

---

1) الديوان 180
2) نفسه 54
3) نفسية أبي نواس 12
4) الديوان 79 - 80 .

وهكذا نفيد من خلال هذه المقطوعة خلاعة بعض مجان العصر العباسي الذي أصبح همّهم في الحياة يتمثّل في الجري وراء اللّذات من خلال المجالس التي كانت تعقد للخمر واللّهو .

واذا كانت المقطوعات التي خصصها أبو نواس لوصف مجالس الخمر تعرض لوصف جمال موقع المجلس ، وآلات الطرب ، والعزف والغناء ، وذكر النّدماء والساقي بصفة عامة والتي كانت في بعض الأحيان متناسخة ـ الاّ أنّنا نجده أحيانا يتعرّض للمجلس بالوصف بطريقة طريفة ، وذلك كتشبيهه مجلس الشراب بحلبة السّباق في قصيدة يقول فيها :

اذا أجرى أمين اللّـه في الحلبة أفراسا
أقمنا حلبة اللّهو فأجرينا بها الكاسا
وأنشأنا بها من طرف الرّيحان أجناسا
بميدان جعلنا خيله طاسا وأكواسا
وصيّرنا على السّبق مكان القصب الآسا (1)
ومجريهنّ ساق يبعث الابريق والطّاسا

فالشاعر يعمد الى وصف مجلس الخمر وما يحتويه من خلال مقارنته بحلبة السّباق ، كما قال يشبّه مجلس الخمر بساحة القتال أثناء الحرب :

اذا عبّا أبو الهيجاء للهيجاء فرسانا
وسارت رأية الموت أمام الشيخ إعلانا
وشبّت حربها واشتعلت تلهب نيرانا
وأبدت لوعة الوقعة أضراسا وأسنانا
جعلنا القوس أيدينا ونبل القوس سوسانا
وقدّمنا مكان النّبل والمطرد ريحانا
فمادت حربنا أنسا وعدنا نحن خلانا
بفتيان يرون القتل في اللّذة قربانا
اذا ماضربوا الطّبل ضربنا نحن عيدانا
وأنشأنا كراديسا من الخيريّ ألوانا
وأحجار المجانيق لنا تفاح لبنانا
ومنشا حربنا ساق سقانا خمرا فسقّانا
يحثّ الكأس كي تلحق أخرانا بنا أولانا

---

1) الدّيوان 217 .

ترى هذاك مصرو عا   وذا ينجرّ سكرانا

فهذي الحرب لاحرب   تغمّ الناس عدوانا

بها نقتلهم ثمّ   بها ننشر قتلانا (1)

وقد وصف أحد الدّارسين هذه القصيدة بأنّها تخرج على نمط غيرها من القصائد التي سارفيها على نمط واحد (2) . ومثلها القصيدة التي شبّه فيها مجلس الخمر بحلبة السباق والتي تقدّم ذكرها (3) .

ويصرّح أبو نواس بأنّه يؤثر الجلوس الى الخمر من الخروج الى الحرب ، فهو انسان مسالم كما جاء في قوله :

فاذكر صباح العقار ، واسم به   لا بصباح الحروب والعطب

أحسن من موقف بمعترك   وركض خيل على هلا وهب

صيحة ساق بحابس قدحا   وصبر مستكره لمنتحب (4)

كما كان النّواسي يفضّل شرب الخمر والاستمتاع بمجالسها على كلّ اللّذات التي كانت تستهوي غيره كالخروج الى الصيد ، كما شاع في عصره . يقول :

اعزم على سلوة الآ عن الكأس   ودع سواها من اللّذات للنّاس

فالعيش في مجلس حفّت جوانبه   بالنّرجس الغضّ ، والنّسرين والآس

أشهى الى النّفس من عدو الكلاب على   أرانب الصّيد ، أو من رمي برجاس (5)

ويتعرّض الشاعر من خلال وصف مجالس الخمر الى مايجري فيها من لهو وقصف على نحو قوله :

ياحسننا ! وبحار القصف تغمرنا   في لجّة اللّيل ، والأوتار تغترد (6)

---

1) الدّيوان 198
2) ايليا حاوي
3) ينظر فنّ الشعر الخمري وتطوّره عند العرب 267 - 269
4) الديوان 162
5) نفسه 211
6) نفسه 80

ويقول بأنّه لا يرى بأسا فيما يقوم به وصحبه من مجون عند سكرهم .

فقل لي يا أبا عيسى بحقّي هل ترى باسا

شباب خلعوا عن فتكهم عذرا وأمراسا

جروا في حلبة اللذّات حتّى سبقوا النّاسا (1)

كما بقية من الشعراء تعرّض أبو نواس الى مجلس الخمر بالوصف كذكره لجمال الموقع، وعزف المغنّين وتعداد آلاتهم ، والتّعرض لأخلاق النّدمان ونشاط السقاة .

وكان الشاعر حريصا على ذكر مكان المجلس ، وتسميته باسمه ، فأفادنا بأهمّ المواقع التي تتكاثر فيها الحانات ودور اللّهو . والتي كان شاعرنا يغشاها مرارا .

وعلى أنّ أوصاف أبي نواس لمجلس الخمر كانت - في الغالب - متناسخة ، الاّ أنّه أبدع حين جعل مجلس الشراب شبيها بحلبة السّباق كما قارن بين مجلس الخمر وساحة الحرب ، فصرّح بأنّه انسان مسالم نبله السوسن والرّيحان ، وأحجار مجانيقه تفاح لبنان ، وهو وندمانه في حرب سلم وأنس ، فهم خلان لا خلاف بينهم ، وخمرهم تقتل ثمّ تبعث قتلاها .

بل انّ شاعرنا يؤثر لذّة الجلوس الى الخمر على كلّ شيء ، فهو لا يجد في الخروج الى الصّيد متعة ، بل انّه يستمتع برؤية الظّباء البيض ترتع أمام مجلسه ، فتزيده بها ، ولا يشعر الشاعر بالرّغبة في اصطيادها .

وتتجلّى لنا شخصية أبي نواس من خلال وصفه لمجالس الخمر واضحة ، فهو انسان مسالم يهوى الخمر ، واللهو . فالنّواسي سلبته البابلية - كما ورد في قوله - فأصبح يرى في مجالسها نعيم الدّنيا .

---

1) الديوان 217 .

آلـــة الشـــرب :

ماكان الشعراء الذين تغنوا بالخمر منذ العصر الجاهلي ، واهتموا بما يتّصل بها ليغفلوا الآنية التي تلازمها ، اذ لا وجود للخمر الّا بوجود الاناء الذي يحتويها .

وقد عرف الجاهليون أواني مختلفة ، فقد شاعت صناعة الجرار الفخارية ،[1] وتطورت صناعة الأواني الخزفية[2] وتفنّن ملوك الحيرة وملوك الغساسنة وأثرياء مكّة في اقتناء الأواني الفاخرة ، فقد شربوا في أواني الزّجاج والبلور والفضة والذهب[3] وقد كان الشاعر عبد الله بن جدعان يستعمل أواني الذهب ، حتّى عرف بحاسي الذهب[4]. كما كان النابغة الذبياني لا يطعم ولا يشرب الّا في أواني الفضة والذهب ، وهي من عطايا النّعمان وأبيه وجدّه[5].

ويرجع أحد الدّارسين[6] اهتمام شعراء الجاهلية بالاناء الى سببين ، أولهما أنّ الشاعر يبلغ من التّعلّق بخمره ، مايجعله يهتمّ بكل مايتّصل بها ، وثانيهما ، أنّ الجاهلي لا يدرك القدرة على التّمييز بين ماهو عرضي زائل ، وماهو جوهري دائم . والخمر وما يتّصل بها من لون وطعم هو مايعتبرونه جوهرا ، أما اناء الخمر ، فلا يعدو الشكل الخارجي[7].

وهذا الرّأي لا يخلو من صواب ، حين يرجع اهتمام الشاعر بالاناء الى شدّة تعلّقه وهيامه بالخمر ، فالشاعر الذي عشق الخمر لا يستغني - عند تغنّيه بها - عن كلّ ما يتّصل بها من لون وطعم وتأثير . . . ، كما لا يستغني عمّا يتعلّق بها كالساقي

---

1) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 8 : 58
2) ينظر تاريخ الدّولة العربية 16
3) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4 : 670
4) ينظر نفسه
5) ينظر نفسه
6) ايليا حاوي
7) ينظر فنّ الشعر الخمري وتطوّره عند العرب : 33

الذي يناوله كؤوس المدام ، والنّديم الذي يشاركه مجلسه ، ويشاطره شرابه ، فيحتسيانه من نفس الاناء ، فالآنية اذن موجودة أينما حلّت الخمر .

أمّا الشّطر الثاني في التّحليل ، الذي يرجع اهتمام الشاعر الجاهلي بوصف الاناء الى عدم القدرة على التّمييز بين جوهر الشيء ، والأعراض التي تتّصل به . فكأنّي بصاحب هذا الرأي يناقض ما أورده في السابق - اعني مانسبه الى الشّاعر من اعجاب بالخمر ، جعله يهتمّ بكلّ مايتّصل بها - . ثمّ هل هذا يعني أنّ الشاعر الجاهلي الذي يتغنّى بديار حبيبته لا يميّز بين ذات هذه الحبيبة ، وبين ديارها ؟ فالشاعر يتعلّق بهذه الدّار ويحبّها دون غيرها ، لأنّها مأوى الحبيبة . فالانسان بطبعه ميّال الى كلّ الأشياء التي لها رابطة بما يحبّ . وهذا لا يعتبر - حسب ظنّي - عجزا عن التّمييز بين الجوهر والعرض ، وانّما هو من طبيعة النّفس البشرية . والّا فما قيل في حقّ الشاعر الجاهلي ، يمكن قوله في أبي نواس ، - وغيره - باعتبار أنّ خمرياته لا تخلو من وصف اناء الخمر ، رغم أنه - وسواه من العباسيين - يفرقون بين الجوهر والعرض .

وكانوا يعتّقون الخمور في دنان أو خواب (1) تطلى بالقار والطين حتّى لا ترشح بما فيها ، ولهذا ، وصفت بشدّة السّواد كما جاء في قول الأعشى (2) .

وأدكن عاتق جحل سبحل صبحت براحه شربا كراما (3)

وقال عدي بن زيد يشبّه خابيته المقيّرة بلقحة جونة .

انّما لقحتنا باطية جونة يتبعها برزينها

فاذا ما حاردت أو بكأت فكّ عن حاجب أخرى طينها (4)

وكما وصفت دنان الخمر بالسواد ، فقد وصفت أيضا بالسعة والامتلاء ، كما يبدو من

---

1) الدنّ : راقود عظيم ، لا يقعد الّا أن يحفر له (تاج العروس ، مادة : دنن) .
2) أمّا الخابية فهي الحبّ (تاج العروس ، مادّة : خبا) .
ع ؛ ينظر ديوانه 200
3) الديوان 135
4) الديوان 204

قـــول الأعشـــى :

(1)

وظلّت شميب غربة الماء عندنـــا   وأسحم مملـــوء من الرّاح متأق

أمّا عبدة بن الطبيب ،فيوحي لـه الدّنّ في سعته ،ببقية حوض هدّمه عراك الابـل أو الخيل ،على ما احتواه من ماء ،وذلك لأنّ الدّنّ الذي يصفه عبدة قطع رأسه ،وبقي علـى شكل جذم حوض .

(2)

لنـــا أصيص كجذم الحوض هدّمه   وطء العراك لديـه الزّقّ مغلـــول

(3)

واستعمل الجاهليون الزقاق لحفظ الخمر ،وحملها .

ولحسان بن ثابت في زقّ يصفه بالسّمنة والامتلاء :

(4)

اذا نشاء دعوناه فصبّ لنـــا   من فرغ منتفج الحيزوم ركّـاع

أمّا الأعشى فأوحت له صورة الزّق المقيّر بحبشي فقـــال :

(5)

تحسب الزّق لديها مسنـــدا   حبشيـا نام عمدا فانبطـــح

لقد وفّق الأعشى في رسم هذه الصورة ،اذ جعل الزّقّ المسند ،في سواده وانبطاحه ، رجلا من السودان استلقى ونام على الأرض .

وتفرغ الخمر من الزقاق ،أو من الدّنان عند بزلها في أوان ضخمة ،ثمّ يغرف منها فـي أوانـي الشرب . ومن الأواني التي يغرف منها ،العلب .(6) وقد ورد ذكرها في قـــول الأعشـــى :

(7)

ولقد شهدت التّاجر الأمّـان موردا شـــرابـــــه   بالصّحن والمصحـــاة والابريـــق يحجبهـا علابـه

ومن الأواني الضّخمة التي يضعون فيها الشراب ليصفو ،الراووق .(8) قال متمم بـــن نويرة يصف راووقه بالسّمنة والامتـــلاء :

---

1) الديـــوان 147

2) المفضليـــات 291

3) والزق وعاء من الجلد تنقل فيه الخمر (اللســان ،مادة : زقـــق) .

4) الديـــوان 312 .

5) الديـــوان 163 .

6) والعلبة قدح ضخم من جلود الابل أو من الخشب ،وقيل من جلد وخشب (لسان العرب مادة : علـــب) .

7) الديـــوان 199 .

8) وعـاء ضخم يصفّى فيه الشراب (تاج العروس مادة : روق) .

ولقد سبقت العاذلات بشربة ريّا وراووقي عظيم مسترع (1)

ويطلقون الرّاووق أيضا على المصفّاة كما يبدو من قول عدي بن زيد (2).

قدّمته على سلاف كمين الدّ يك صفّق سلافها الرّاووق (3)

كما يطلق على الرّاووق النّاجود (4) على نحو قول الأعشى :

سلافا كأنّ الزّعفران وعندما يصفّق في ناجودها ثم تقطب (5)

وقد تسمّى الباطية ناجودا ، والباطية جفنة كبيرة تملأ شرابا وتوضع بين الشرب يغرفون منها ويشربون (6) .

وقال الأعشى يصف باطية خمر :

من زقاق التّجر من باطية جونة حارية ذات روح

ذات غور ما تبالي يومها غرف الابريق منها والقدح

واذا ما الرّاح فيها أزبدت أفل الأزباد فيها وامتصح

واذا مكوكها صادمه جانباه كرّ فيها فسبح

فترامت بزجاج معمل تخلف النّازح منها ما نزح

واذا غاضت رفعنا زقّنا طلق الأوداج فيها فانسفح

ونسيح سيلان صوبه وهو تسياح من الرّاح مسح (7)

فهذه الباطية تبلغ من السّعة والامتلاء بالخمر ، ما يجعلها تذهب بزبد الماء الذي يمازجها ، كما أنّها لا تتأثر مهما اغترفت منها الأواني التي تسبح داخلها اذا وضعت فيها لاتّساعها .

وللأعشى أيضا في باطية اشتراها وندماؤه .

ولنا باطية مملوءة لو يسخرّ الفيل فيها نسبح (8)

---

1) المفضليات 74 .

2) ينظر تاج العروس ، مادة : روق .

3) الديوان 78 .

4) تاج العروس ، مادة : روق .

5) الدّيوان 137

6) تاج العروس ، مادة : بمو

7) الديوان 162

8) نفسه 238 .

وعلى أن الشاعر عمد الى المبالغة ،الا أنها مبالغة مقبولة .

ويعلق أحد الدارسين[1] على وصف الدن بالسعة لدى الشعراء الجاهليين ،فيرى أن السبب في ذلك يعود الى نفسية الجاهلي الذي يبهره الشكل الخارجي ،ولا يملك القدرة على التمييز بين حجم الشيء وجوهره ، كما يضيف بأن الدن سواء أكان ضخما أو صغيرا لا يؤثر في جودة الخمر وطيبها .

والشاعر الجاهلي لا شك أنه كان يرمي من وراء سعة الدن الى مدى تعلقه بالخمر التي يحتويها هذا الدن الواسع ،فهو لا يرتوي مهما عب منها وكرع ،ولا تكفيه الرشفات القليلة . بل انه يسعى الى شرب أكبر قدر منها ،حتى تسري في شرايينه لهيامه بها ،وتعلقه بكل ما يتصل بها ، كما أن سعة الدنان تدل على كرم صاحبها ، فضخامة الاناء اذن لا تقيم جودة الخمر التي يحتويها هذا الاناء ،بقدرما تحدد علاقة الشارب بالخمر ،وتبرز افتخاره بكرمه .

ومن أواني الخمر التي استعملها الجاهلي ،الابريق[2] قال الأعشى :

فترى أباريقهم مسترعفا بشمول صفقت من ماء شن[3]

يشبه الشاعر الابريق لانحنائه وسيلان الخمر من فمه بشخص أصيب بالرعاف .

أما لون الابريق ،فغالبا ما وصف بالبياض ، كما نفيد من قول الأعشى :

اذا انكب أزهر بين السقاة تراموا به غربا أو نضارا[4]

كما أن الابريق الذي استعمله الجاهلي كان مفدما ،عليه مصفاة أو خرقة تجعل على فمه ،لتصفي ما فيه من خمر . قال علقمة بن عبدة في ابريق فدم بقطعة كتان .

كأن ابريقهم ظبي على شرف مفدم بسبا الكتان ملثوم[5]

لقد شبه الشاعر الابريق لطول عنقه بظبي مستشرف على ربوة ،وقد كانت العرب تشبه الأباريق بالظباء ،كما شبهتها برقاب طير الماء على نحو ما جاء في بيت عدي بن زيد العبادي .

---

1) ايليا حاوي ،في كتابه فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب : 33

2) والابريق اناء معروف ،فارسي معرب ،قال أبو حنيفة هو الكوز أو هو مثله ،لسان العرب، مادة : برق

3) الديوان 223 .

4) نفسه 36

5) المختار من قطب السرور 123 .

بأباريق شبه أعناق طير الـ ... ماء قد جيب فوقهنّ خنيف (1)

وقد كان الفرس والرّوم يصنعون الأباريق على شكل حيوان (2).

واستعمل الجاهليون الصّحن لشرب الخمر، والصّحن قدح متوسط الحجم، وقد ورد (3) ذكره في مطلع معلقة عمرو بن كلثوم (4).

ومن أواني الخمر التي ذكرها الأعشى، الصحاة (5)، وذلك في قوله:

بكأس وابريق كأنّ شرابه ... اذا صبّ في المصحاة خالط بقّما (6)

وشرب الجاهليون في المكوك (7)، وقد ورد ذكره عند الأعشى فيما تقدم.

وقال الأعشى أيضا:

ولقد شربت الرّاح أسقى في اناء الطّرجهاره (8)

واحتسى الجاهليون خمرهم من الكوب (9) كما نفيد من بيت عدي بن زيد:

متكئا تقرع أبوابه ... يسعى عليه العبد بالكوب (10)

ومثل الابريق، وصف الكوب بشدّة البياض كما جاء في قول عبدة بن الطّيب:

والكوب أزهر معصوب بقلّته ... فوق السّياع من الرّيحان اكليل (11)

فكوب عبدة شديد البياض، كما أنّه معصوب الأعلى باكليل من الرّيحان.

والكأس أيضا من الأواني التي شرب فيها الجاهلي وتسمّى كأسا مادام فيها الشراب، فان لم يكن فيها، فهي قدح كما يتّضح من قول الأعشى:

فاذا جاءت الدّجى وضعوا القدح (12) وجنّ التّلاع والآفاق

لم يزدهم سفاهة شربة الكأس ولا اللّهو بينهم والسّباق (13)

---

1) الديوان 201
2) ينظر ديوان بشار بن برد (الهامش) 4 : 75.
3) لسان العرب، مادة: صحن.
4) في قوله: ألا هبّي بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقي خمور الأندرينا
5) والمصحاة اناء للشرب، وقيل هو القدح من الفضة (اللسان مادة: صحا)
6) الديوان 200
7) والمكوك اناء أعلاه ضيق ووسطه واسع، لسان العرب مادة: مك.
8) الديوان 113، والطّرجهارة هي الفنجانة، محيط المحيط، مادة: طرج
9) هو كوز لا عروة له، وقال الفرّاء، هو الكوز المستدير الرأس الذي لا أذن له، لسان العرب، مادة: كوب.
10) الديوان 67.
11) المفضليات 291.
12) تاج العروس: مادة كأس.
13) الديوان 143.

والقدح يروي الشخصين والثلاثة ،واذا كان صغيرا فهو غمر (1) ،أمّا القدح الكبير فيقال له الرّفد (2) .

ويفيدنا الحارث بن ظالم أنّ الجاهلي شرب في أوان زجاجية شفافة (3) .

واهتمّ حسان بن ثابت بحركة الشراب من خلال آنية الزّجاج فقال :

بزجاجة رقصت بما في قعرها رقص القلوص براكب مستعجل (4)

ونفيد ممّا تقدّم أنّ الجاهليّين شربوا في أوان زجاجية ،فقد كان هناك من تخصّص في صناعة الزّجاج ،وقد عثر على أوان زجاجية تشهد على ذلك (5) . كما عرف سكّان بلاد الرّافدين المعادن كالنّحاس والفضّة والذّهب والبرونز ،واعتمدوها في صناعة أدوات منزلية متقنة لما فيها من تطعيم وزخرفة (6) .

ولقد تطوّرت صناعة الزّجاج والخزف في العصر الاسلامي ،فقد كشفت الحفريات في سامراء عن قطع خزفية من العصر الاسلامي الأوّل (7) .

وكانت بعض الأواني الخزفية تصدر الى الخارج ،كما أبدع المسلمون طابعا جديدا في تشكيل المادّة المعدنية والزّجاجية (8) ،وعمّ انتشار الأواني الزجاجية والخزفية لأنّ الاسلام نهى عن استعمال الأدوات المصنوعة من الذهب (9) .

واذا نحن تصفّحنا خمريات العصر الأموي ،متتبّعين أوصاف الأواني التي استعملت لتعتيق الخمر ،فانّنا نجد الأخطل يتغنّى بقدم خابيته التي لا يرى فيها مجرّد آنية لحفظ الخمر ،بل يجعلها مصدرا لها ،تنضح منها على شكل قطرات كأنّها عرق ،الاّ أنّها قطرات متوالية لا تنضب .

سلافة حصلّت من شارف خلق كأنّما ثار منها أجل نعر (10)

وقال يصف زقاق الخمر :

أناخوا فجرّوا شاصيات كأنّها رجال من السّود ان لم يتسربلوا (11)

---

1) ينظر المختار من قطب السرور 43
2) ينظر نفسه 39
3) ينظر نفسه 116
4) الديوان 368
5) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 8 : 62
6) ينظر تاريخ الشعوب القديمة 42 .
7) ينظر الفنّ الاسلامي 41 .
8) ينظر نفسه
9) ينظر نفسه
10) الديوان 3 : 251
11) نفسه 1 : 3

لقد شبّه الشّاعر زقاق الخمر الممتلئة حتّى ارتفعت قوائمها برجال من السّودان وذلك لسواد الزّقاق المقيّرة وارتفاع قوائمها . ويبدو لنا أنّ الشاعر قد أفاد من معنى الأعشى في تشبيهه الزق بحبشي منبطح ،وأضاف الأخطل أنّ هؤلاء الرّجال السود الذين شبّه بهم زقاق الخمر ، لا ثياب عليهم ،وذلك بغية تأكيد شدّة السواد هـ.

ولأبي الهندي في وصف الدّن :

واستبائي الزّق من حانوته [شائل الرّجلين مضوب الذّنب] (1)

واذا صبّت لشرب خلتها (2) حبشيا قطعت منه الرّكب

ولعلّ الشاعر هنا أيضا أفاد من معنى الأعشى ،ويضيف الى هذه الصّورة أنّ الزّق قطع منه الذنب ،وبقيت رجلاه اللّتان يحتفظ بهما الى أن يفرغ ما فيهما من خمر .

وقال الوليد بن يزيد :

وزقّ وافر الجنبين مثل الجمل البازلّ

به رحت الى صحبي وندماني أبي كامل (3)

والجمع بين الزّق والجمل في الضّخامة يذكرنا بيت عدي بن زيد العبّادي الذي جعل لقحته هو وندماه باطية سوداء . وتشبيه الزّق بالجمل يبقى مجرّد تشبيه شكلي ،ولعلّ الجمع بين الباطية والنّاقة الحلوب أنضج لاشتراك كلّ من الباطية والنّاقة في صفة أخرى - وبيادة على الضّخامة - وهي درّ اللّبن بالنّسبة للنّاقة ،وغزارة الخمر بالنّسبة للباطية .

وأوحت للأخطل صورة القلال حول الدّن بصغار الابل حول الفحل كما جاء في قوله :

---

1) يذكر المحقق أنّ صواب الشطر هو :

" شامل الرّجلين مضوب الذّنب " وعند ما يفرغ مافيهما من خمر يصبح الزّق كزنجي بترت ركبتاه .

2) طبقات الشعراء 142

3) الدّيوان 58 .

وترى القلال بجانبيه كأنّها قلس يسفن فروج قرم مرسل

حتّى تصبّب ماؤه عن جلفه ضخم المقدّم سحبليّ الأسفل (1)

وعلّق أحد الدّارسين على هذا المعنى فقال بأنّ الأخطل يعمد فيه الى المقارنة والتمثيل المستفاد من واقع البيئة الجاهلية (2) (3) .

فالشاعر توسّل الى هذا التّشبيه بغية تأكيده ضخامة دنّه ، وطول القلال التي حوله . وعلى أنّه أفاد من واقع البيئة الجاهلية ، الّا أنّه أبدع هذا المعنى الذي لم يرد عند سابقيه من الشّعراء .

ونفيد من قول الأخطل أنّه وندماءه يفرغون الخمر من الدّنّ في القلال (4) . وورد ذكرها أيضا في قوله :

من قرقف الزّرجون فتّ ختامها فالدّنّ بين حنابج وقلال (5)

والحنبج ، الضّخم الممتلوء من كل شيء (6) . ونلاحظ أنّ الشاعر الأموي - كأسلافه من الشعراء - ، قد ظل يمدح آنيته بالسعة والامتلاء .

والأقيشر يصف باطية ضخمة مملوءة خمرا ، فيشبّهها بناقة حلوب .

انّما لقحتنا باطية فاذا ما مزجت كانت عجب (7)

والشاعر هنا كالأخطل يفيد من معنى عدي بن زيد ، بل انّه ينقل الشّطر الأوّل من بيته نقلا .

و وصف الشعراء الأمويون أباريق الخمر بأنّها مفدّمة ، قال الأخطل :

وتظلّ تنصفنا بها قرويّة ابريقها برقاعها ملثوم (8)

فصفة الفدام اذن مشتركة بين ابريق الأخطل وابريق علقمة كما تقدم .

---

1) الديوان 3 : 291
2) ايليا حاوي
3) ينظر فنّ الشّعر الخمري وتطوره عند العرب 116
4) القلّة حبّ عظيم وقيل جرّة عظيمة ، اللّسان ، مادة : قلل .
5) الدّيوان 4 : 324 .
6) ينظر لسان العرب ، مادّة : حنبج .
7) الأغاني 11 : 241
8) الديوان 1 : 85

ويصف أبو الهندي ابريقه بشدة البياض والسّعة .

وأباريق تناهت سعة والذي في الكفّ ملثوم أغر (1)

وكلّ من الفدام والسّعة والبياض صفات تقليدية للابريق ، لا تميّز أباريق أبي الهندي عن ابريق الأعشى .

ويحاول أبو الهندي أن يفيدنا بشكل الابريق فيقول مشبّهاً طول عنقه برقاب بنات الماء .

سيغني أبا الهندي عن وطب سالم أباريق لم يعلق بها وضر الزُّبد

مفدّمة قزّاً كأنّ رقابها رقاب بنات الماء تفزع للرّعد (2)

وقد اتكأ الشاعر على معنى عدي بن زيد ، ثمّ أضاف اليه بجمل هذه الطيور تفزع لدويّ الرّعد ، فترفع رؤوسها متشوّفة من الخوف . وهكذا أفاد الشاعر من المعنى ، وأخرجه في صورة أدقّ وأجمل . (3)

ويفيدنا الوليد بن يزيد باسم اناء لم يرد ذكره عند متقدّميه حيث يقول :

اسقيني يا يزيد بالقرقاره قد طربنا وحنّت الزّمّاره (4)

والقرقارة اناء من الزجاج طويل العنق . (5) ومن الأواني التي استعملت في العصر الأموي لشرب الخمر ، القاقوزة أو القازوزة ، وهي دون القرقارة . (6) وقد ورد ذكرها في بيت الأقيشر .

أفنى تلادي وما جمّعت من نشب قرع القواقيز أفواه الأباريق (7)

---

1) طبقات الشعراء 140

2) الأغاني 20 : 294

3) ومثله قوله في وصف ابريق :

مثل فرخ هبّ في غيطلة حذر الصّقر فأقعى ونظر

4) الدّيوان 40 .

5) ينظر تاج العروس ، مادة : قرر . وورد في الأساس واللسان القرقاره ، وفي تاج العروس القرقار بدون هاء .

6) وقال أبو حيفة هي الطاس ، اللّسان ، مادة : قفز .

7) الأغاني 11 : 259 ، وينظر أيضا نفس المصدر ، 11 : 256 .

كما يفيدنا الأقيشر أنه شرب في آنية زجاجية بديعة الشكل .

لها من زجاج الشام عنق غريبة تأنق فيها صانع وتخيرا (1)

وعلى أن الاسلام نهى عن استعمال الأواني الذهبية ، الا أن من الأمويين من شرب بآنية الذهب كما يبدو من قول أبي الهندي :

وأتانا بشمول قهوة نتعاطاها بكاسات الصفر (2)

وعلى أن الخمريات الأموية أفادتنا بأنواع من آنية الشرب لم يرد ذكرها في خمريات سابقيهم ، الا أننا نلاحظ أن الشاعر الأموي ظل يعتمد معاني أسلافه في وصف الاناء بالسمنة والامتلاء . وفي تشبيه الزق بالحبشي ، والابريق بالظبي أو طير الماء .

وبقيام الدولة العباسية ، عمل الخلفاء ورجال الدولة على تقدم الصناعة ، باعتبارها موردا من أهم موارد الثروة ، فأقيمت مصانع ببغداد وسامراء ، وكذلك بالشام ومصر ، تهتم بصناعة الزجاج والخزف (3) . كما اهتموا بصناعة الأواني المعدنية (4) .

وكلنا نعلم الثراء الذي عرفته الدولة العباسية ، " ومن أهم الجوانب التي يتضح فيها بذخ الطبقة المترفة مطاعمها ، ومشاربها ، فقد طعموا وشربوا في أواني الذهب والفضة ، وصحاف الصيني المزخرفة والصحاف الزجاجية المنقوشة والمحفورة " (5) .

ومما ورد في وصف آنية الشراب ، قول أبي الشيص في خابية عند بزلها :

ففضا الخواتيم عن جونة صدوف عن الفحل بكر عوان (6)

فالشاعر يصف خابيته بشدة السواد ، ونفيد من ذلك أن العباسيين حافظوا على طريقة سلفهم في تعتيق الخمر ، وذلك بطلي آنيتها بالطين والقار .

---

1) الأغاني 11 : 244
2) طبقات الشعراء 140 .
3) ينظر تاريخ الحضارة الاسلامية 140
4) ينظر تاريخ العصر العباسي 367
5) تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول شوقي ضيف 52
6) طبقات الشعراء 79 .

ويصف مسلم بن الوليد دنّ الخمر بأنّه واقف على رجل واحدة ، وذلك شفقة منــــه علــى الخمـــــر .

قد استودعت دنّا لها فهو قائم بهــا شفقا بين الكــروم على رجــل (1)

واعتمد شعراء الخمر في العصر العبّاسي عند وصفهم للزّق معنى الأعشى في تشبيهه بحبشيّ منبطح ، ويبدو ذلك من قول بشار :

في الفتى الزّنجيّ منه شبــه غير أنّ الزّق أذكى وأرق (2)

يشبّه الشاعر زقّه بفتى زنجيّ لشدّة سواده ، غير أنّه يستدرك فيراجع بعض صفــات المشبّه به التي لا يوافق انطباقها على المشبّه ، فزقّه أطيب رائحــة ، وجلده أرقّ من جلد فتى الزّنوج ، فكأنّي بالشاعر قد لمس في هذا التّشبيه شيئا من الاهانة للزّق ، فاستدرك بأنّ للــزّق رائحة زكية ، وجلدا رقيقا . فالشاعر هنا يتعاطف مع اناء خمره . وعلـى أنه أفاد هذا المعنى ، الاّ أنّه طوّره وتصرّف فيــه .

ولبشــار أيضـــا فــي هــذا المعــنى :

وكأنّ الــزّق مملــوءا اذا ما بطحنــا الــزّق زنجــي ســرق
شــدّ بالحبل ولــفّوا فضلـــه فـــوق أعلــى حلـقـــه حتّى اختنق (3)

شبّه الشاعر الزّق عند امتلائه وانبطاحه ، والحبال تلفّه بزنجي سرق فكبّل بحبـــل لفّ على عنقــه حتّى اختنق ، وهكذا ارتفع بشار بهذا المعنى وأضاف اليه أشياء جعلت المعنى شاخصا مجسّدا حيا .

وتلطف العبّاس بن الأحنــف في وصــف الزّق حيــث قـــال :

نكبّ ونبزل مثــل الغـــزال لم تحمــل الرّأس منه قــرونــا (4)

فزقّ ابن الأحنف لا يختلف عن الغزال في شيء ، اللّهم الا كونه لا يحمل قرونا على رأســه .

وما أهمل الشعراء العبّاسيون معنى علقمة في تشبيهه ابريق الخمر بالظّبي ، فقد أفادوا منه وحاولوا السّموّ به ، فهذا مسلم بن الوليد يستغلّ هذا المعنى ، ويؤكد أن مايجمع

---

1) الدّيـــوان 31 .
2) الديـــوان 4 : 135
3) نفســـه 4 : 136
4) الديـــوان : 289 .

بين ابريقه والغزالة صفة طول العنق .

ابريقنا سلب الغزالة جيدها وحكى المدير بمقلتيه غزالا (1)

وكما اعتمد مسلم معنى ، علقمة ، اعتمد أيضا معنى أبي الهندي حين شبّه عنق ابريقه برقاب بنات الماء التى أفزعها الرّعد ، فأفاد من المعنيين وقال :

كأنّ أباريقنا ظباء عكّفا في رياضها أبا ريقها أو جسّن قرقعة النّبل (2)

لقد شبّه الشاعر أعناق الأباريق المنتصبة بظباء كانت آمنة ، الاّ أنّها سرعان ماتشعر بالخطر ، اذ تحسّ برام يقرقع جعبته ليستلّ منها نبالا ، فتشوّفت واشرأبت بأعناقها للتأكّد من الهاجس ورصد مصدر الصّوت لتلافي الخطر . وهكذا أفاد الشّاعر من أسلافه ، وأخرج المعنى في صورة جديدة .

وقال بشار في الابريق يشبّهه بالطير .

كأنّ ابريقنا والقطر في فمه طير تناول ياقوتا بمنقار (3)

فطول عنق الابريق ، وتلألؤ قطرة خمر حمراء صافية علقت بفيه ، صرفت ذهن الشاعر الى طير طويل العنق تناول ياقوتة بمنقاره ، فاستطاع الشاعر أن يجمع في هذه الصورة بين الطّير والاناء ، لصفة طول الجيد المشتركة بينهما من جهة ، ومن جهة أخرى مقابلة قطرة الخمر الحمراء بالياقوتة . وقد نعجب لكون مثل هذه الصورة الطريفة تصدر عن شاعر لا تسعفه حاسّة بصره على ادراك شكل الابريق ، ولا لون الخمر ، الاّ أنّه رزق سمة الخيال وخصوبته .

وزيادة على وصف الابريق بالبياض وتشبيهه بالغزال ، يضيف له بشار بن برد صفة أخرى ، وهي السّلاسة ، فابريقه سريع في صبّ الخمر :

---

1) الديوان 162
2) نفسه 33
3) الديوان 4 : 75

القسوس والصّلب ، أو كسرى مع جنوده ، أو مع حاشيته عند خروجه الى الصّيد ، ولم يكتف الشاعر بنقل هذه الصور بأسلوب تقريري ، بل انّه كان يتفنّن في التّعبير عنها ، وعن الصورة التي أوحت له بها تماثيل الكأس في خياله .

وهذه الصور البديعة التي تتخلّل خمريات أبي نواس تشهد بما بلغته الحضارة العبّاسية ، حيث تطوّرت الصّناعة وتأثّرت بالطّابع الفارسي ، كما تشهد بشاعرية أبي نواس .

الاّ أنّ وصف الآنية - حتّى عند أبي نواس - ظلّ وصفا خارجيا لا يرتبط بذات الشاعر . فهو يصف حجمه أو شكله ، أو حركته ... من بعيد ، دون أدنى اشارة الى علاقته بآنيته التي تحفظ خمره ، أو التي يحتسي خمره منها .

الخمر والزندقة :

دأب الجاهليون على تعاطي الخمر ، وافتخروا بشربها ،فقد كانوا يملأون فراغ يومهم بالجلوس اليها ، ويعتبرونها متعة تسليهم وتنسيهم قساوة الحياة وشظف العيش . بل انّ العرب اعتبروا الخمر قديما " ينبوع الشرف ،والفضيلة ،والشجاعة ، والكرم ".(1) فالمثل الأعلى للحياة الجاهلية ،يتمثّل في الفخر بالنّجدة ،والفخر بالكرم ،والفخر بمنادمة علية القوم والتّمتّع بالخمر والقيان في الحانات .(2)

ولهذا فانّنا نجد الجاهلي يفخر بشرب الخمر ،كما جاء في قول لبيد :

بل أنت لا تدرين كم من ليلة   طلق لذيذ لهوها وندامها
قد بتّ سامرها وغاية تاجر   وافيت اذ رفعت وعزّ مدامها (3)

وافتخر الأعشى بقومه ،فقال فيهم :

انّي امرؤ من عصبة قيسيّة   شمّ الأنوف غرانق أحشاد
والشّاربين اذا الذوارع غوليت   صفو الفضال بطارف وتلاد (4)

فالخمر عند الجاهليّين ماهي الاّ دليل على كرم الشارب ،لذا نجد شعراءهم يتباهون بما يبذلونه مقابل الحصول على كؤوس المدام كما جاء في قول المنخّل اليشكري :

ولقد شربت من المدا   مة بالصغير وبالكبير
ولقد شربت الخمر بالخيل الاناث وبالذكور
ولقد شربت الخمر بالعبد الصّحيح وبالأسير (1)

---

1) الحضارة الاسلامية 18

2) ينظر فجر الاسلام 94

3) شرح المعلقات السّبع 116 - 117 ،البيتين غير واردين بالدّيوان .
وللسموأل في هذا المعنى : وزقّ قد جررت الى النّدامى   وزقّ قد شربت وقد سقيت.

4) الدّيوان 99

5) الأغاني 21 : 11 . ومثله قول حاتم الطّائي ،قال متغنّيا بكرمه وعدم مبالاته بما يبذله في الشراب .
كريم لا أبيت اللّيل جاد   أعدّد بالأنامل ما رزيت
اذا ما بتّ أشرب فوق ريّ   لسكر في الشّراب فلا رويت

.../...

وبمجيء الاسلام حرّمت الخمر ، وراعى الدّين الجديد تعلّق الانسان الجاهلي بهنا ، فقد نزلت آيات التحريم تدريجيا ، اعدادا لنفوس المدمنين لأمر التحريم . ومع كلّ هذا " لم يستطع الدّين بما فيه من نواه وأفكار نبيلة ، أن يقطع عليهم هدوءهم ، أو ينغّص صفوهم ".(1)

وعلى أنّ الخمر أصبحت من المحرّمات ، الاّ أن هناك من لم تطاوعه نفسه على تركها .(2)

وعلى أنّ هناك من المسلمين ممن لم يتركوا الخمر بعد تحريمها ، الاّ أنّهم كانوا يشربونها مع الشّعور بالذّنب والمعصية . فكانوا يعانون من صراع نفسي لاضطرابهم بين نواهي الدّين وأوامر النّفس . بينما ظل لفيف منهم ينعم باحتساء كؤوس المدام ضاربا عرض الحائط بما جاء به الاسلام في حقّ الخمر من تحريم ." وقد جعل لها الرّسول صلى الله عليه وسلم حدّا : أربعين جلدة ، ولمّا وجد عمر أنّ بعض العرب لا يزال يتورّط في شربها رفع حدّها الى ثمانين ".(3)

وكان تعلّق الثّقفيّين - على وجه الخصوص - شديدا بالخمر ، فقد كان عمر بن الخطّاب يحدّهم ، فيعودون الى شربها ، حتّى أحرق حانات الطّائف ومعاصرها .(4) فقال أبو محجن الثّقفي يصف تعلّقه بالخمر ، وجزع الثّقفيّين على المعاصر التي أحرقت .

ألم تر أنّ الدّهر يعثر بالفتى ... ولا يستطيع المرء صرف المقادر
صبرت فلم أجزع ولم أك كائعا ... لحادث دهر في الحكومة جائر
وانّي لذو صبر وقد مات اخوتي ... ولست عن الصهباء يوما بصابر
رماها أمير المؤمنين بحتفها ... فخلاّنها يبكون حول المعاصر (5)

---

1) الحضارة الاسلامية 18
2) يروى عن الأعشى أن عدم اسلامه كان بسبب الخمر ، فبعد أن قرّر اعتناق الاسلام ، وكان في طريقه الى الرسول قصد الاسلام بين يديه ، صادفه بعض القرشيّين وأخبروه بأنّ الاسلام يحرّم شرب الخمر ، فقفل راجعا الى قريته للتزوّد بما لديه من خمر قبل ترك شربها ، وفي طريقه ألقى به بعيره ، فمات دون الاسلام .
3) تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف 72
4) ينظر تطور الخمريات 81
5) الأغاني 18 : 299 لم ترد هذه الأبيات بديوان الشاعر .

.../...

بل انّ هناك من كان يجاهر بشرب الخمر ،معلنا عصيانه وتمرّده على هذا الدّين الذي جاء ليحرّم الخمر .

وقد عاتب الأحنف بن قيس حارثة بن بدر في شرب الخمر ،فردّ عليه يتحدّاه ويجاهر بشربها :

سأشربها ماحجّ لله راكب مجاهرة وحدي ومع كلّ مسعد
وأسعد ندماني وأتبع شهوتي وأبذل عفوا كلّ ما ملكت يدي
كذا العيش لا عيش ابن قيس وصحبه من الشرب للماء القراح المصرّد (1)

ونلاحظ استخفاف الشاعر بالدّين ، فهو يؤكّد عصيانه ،ويذكر أنّه كلّما حجّ الناس لله وامتثلوا لأوامره ،فانّه سيتمادى في شرب الخمر ،ولن يتستّر في شربها .

كما نجد أبا محجن الثّقفي يتحدّى الاسلام الذي يمنع شرب الخمر ،ويؤكّد أنّه لن يتخلّى عن احتسائها .

ان كانت الخمر قد عزّت وقد منعت وحال من دونها الاسلام والحرج
فقد أباكرها ريّا وأشربها صرفا وأطرب أحيانا فأمتزج (2)

بل انّ شاعرنا الثقفي يدرك جيّدا مايقترفه من اثم بشربه الخمر ،فيقرّ بذنبه ،ويصرّ على التّمادي في غيّه ،يقول أبو محجن :

ألا سقّني ياصاح خمرا فانّني بما أنزل الرّحمن في الخمر عالم
وجدلي بها صرفا لأزداد مأثما ففي شربها صرفا تتمّ المآثم
هي النار ،الاّ أنّني نلت لذّة وقضيت أوطاري وان لام لائم (3)

وهكذا ظلّ بعض المسلمين يدمنون شرب الخمر رغم تشدّد الخلفاء في حدّ كل انسان ضبط في حالة سكر . وخالف بعض خلفاء بني أميّة سنة سلفهم من خلفاء صدر الاسلام في حرصهم على تعاليم الدّين ،وكان منهم من عاقر الخمر سرّا وعلانية . وتسامح بعضهم

---

1) الأغاني 23 : 458
2) الدّيوان 69 - 70
3) نفسه 68 .

في أمور الدّين ، فقد روي أنّ "الأخطل التّغلبي النّصراني شاعر العرش الأموي، كان من ندماء يزيد ... وكان يدخل على الخليفة عبد الملك والصليب مدلّى من عنقه ولحيته تنقط خمرا (1) فينشده الشّعر ويطربه ". (2)

وكان من أسباب انهيار الخلافة الأموية ، ماشاع من استهتار الطبقة الحاكمة ، ذلك " أنّ الكثيرين من خلفاء بني أميّة كانوا يحيون حياة كلّها لهو وعبث ومجون ، حياة بعيدة عن المثل الدّينية والخلقية التي كانت لا تزال ماثلة في أذهان المسلمين ممّا أثار غضب رجال الدّين فاستغلوا هذه الصور من حياة بعض الخلفاء في اثارة شعور الرّأي العام ". (3)

وكان يزيد بن معاوية أوّل من جاهر بشرب الخمر وعقد مجالس للشرب وسماع القيان . (4)

وما خالف بعض الخلفاء الأمويّين سنة يزيد بن معاوية ، وبهذا شجعوا عامّة النّاس على شرب الخمر وعقد مجالس اللّهو . (5) ولا نستثني من خلفاء بني أميّة الاّ عمر بن عبد العزيز الذي كان يهدّد شارب الخمر بالعقوبة والحدّ . (6)

وكيف يجوز لنا أن نستغرب من تفشي ظاهرة معاقرة الخمر بين الرّعية اذا كان الخليفة يعقد مجالس للشراب واللهو ، فهذا يزيد بن معاوية أمير المؤمنين وخليفة الله في أرضه يقول في حق الخمر التي حرّم الله شربها .

(7)
فان حرّمت يوما على دين أحمد فخذها على دين المسيح بن مريم

وقد روي الكثير عن تدهور الوليد بن يزيد ، وما كان يعقده من مجالس للخمر واللهو ، فقد كان لا يكاد يفيق من سكره ، أو يرتدع عن غيّه ، وفيما يروى عنه أنّه كان يفرّق أموال

---

1) لعلّها تنفذ أو تنقط
2) تاريخ العرب المطول 2 : 259 .
3) تاريخ الدّولة العبّاسية 9
4) ينظر المختار من قطب السرور 155 وما بعدها .
5) ينظر تطور الخمريات 122 وما بعدها .
6) ينظر نفسه 126 .
7) حلبة الكميت 140 .

بيبت المسلمين عند ما يطرب ، ولا يهمّه من أمر الخلافة شيء (1) .

وتعتبر أشعاره شاهدا على ما يروى عنه من حبّه للخمر والغناء والصّيد واللهو ، حيث نجده يصرّح بمجونه ، ويجاهر بشربه الخمر في قوله :

أشهد اللّه والملائكة الأبـرار والعابدين أهل الصّلاح
أنني أشتهي السّماع وشرب الكأس والعضّ للخدود الملاح
والنّديم الكريم والخادم الفارة يسعى عليّ بالأقداح (2)

بل أنّ تماديه في اللهو جعله يبلغ حدّ التحدّي للدّين الاسلامي ، فيستخف بما جاء به هذا الدين من توعّد وعقاب في حق شارب الخمر .

أدر الكأس يمينا لا تدرها ليسار
اسق هذا ثمّ هذا صاحب العود النّضار
فلقد أيقنت أنّي غير مبعوث لنار
وذروا من يطلب الجنّة يسعى لتبار (3)

بل أنّ الخليفة يقرّ بكثرة ذنوبه التي لا تسعها رحمة الله مهما رحبت فيجاهرينها في قوله :

اسقني يايزيد بالقرقاره قد طربنا وحنّت الزّمّاره
اسقني اسقني فانّ ذنوبي قد أحاطت فما لها كفّاره (4)

ولا يتحرّج الشاعر ـ وهو خليفة تقتدي به الرعية ـ من ان يتّخذ له دينا غير الاسلام كما نفيد من قوله :

---

1) ينظر الأغاني 7 : 5 وما بعدها ، وكذا المختار من قطب السرور 187 ومابعدها .
2) الديوان 29 .
3) نفسه 41 - 42
4) نفسه 40 .

يا أيّها السّائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكر (1)
نشربها صرفا وممزوجة بالسخن أحيانا وبالفاتر (2)

وقال الأقيشر يصف ندمانا لعبت الخمر بلبّه فقام لصلاة الظهر والعصر يؤدّيهما قاعدا ، ونلاحظ قصد الشاعر من وراء ذلك ، فهو يهدف الى الاستهزاء بالدّين .

ربّ ندمان كريم ، ماجد سيّد الجدّين من فرعي مضر
قد سقيت الكأس حتّى هرّها لم يخالط صفوها منه كدر
قلت قم صلّ فصلّى قاعدا تتغشّاه سمادير السّكر

ترك الفجر فما يقرؤها وقرأ الكوثر من بين السور (3)

كما نلاحظ استخفاف الأقيشر بالدّين عندما سأله شرطي يدعى هشاما عن عدد صلوات اليوم حتّى يتأكّد من عدم سكره . فقال :

يسائلني هشام عن صلاتي صلاةِ المسلمين فقلت خمس
صلاة العصر والأولى ثمان مواترة فما فيهنّ لبس
وعند مغيب قرن الشّمس وتر وشفع بعدها فيهنّ حبس
وغدوة اثنتان هما جميعا ولمّا تبد للرّائين شمس
وبعد هما لوقتهما صلاة لنسك بالضّحاء اذا نبسّ
أأحصيت الصلاة أيا هشاما فذاك مكدّر الأخلاق جبس (4)

---

1) وأبو شاكر كنية لمسلمة بن هشام ، وهشام عمّه الذي تولّى الخلافة بعد أبيه يزيد بن عبد الملك ، الذي عقد لأخيه هشام اذ كان الوليد في الحادية عشرة من عمره .
2) الديوان 39
3) الأغاني 11 : 252 .
4) نفسه 11 : 251 .

وقال عبد الرحمن بن أرطأة أن بعض ندمائه يحتسون الخمر صلاة العصر[1] :

فالشاعر يذكر أنّ الشرب قاموا الى احتساء كؤوس الخمر لمّا حانت صلاة العصر وذلك تأكيدا لاستخفاف أصحاب الخمر بالدّين وعدم مبالاتهم بأوقات الصلاة تحدّيا لتعاليم الدّين التي نهت عن القيام الى الصلاة في حالة سكر ، وذلك قبل تحريم شرب الخمر .

ولا تخلو مقطوعة الأخطل في وصفه للميتة الجاهلية من استهزاء بالدّين ، حين يقول انّه مات هو وصحبه ميتة على دين الجاهلية عندما سكروا . فلم يدركوا من أمر الاسلام شيئا من ذلك العذاب الذي يحكي عنه أهل هذا الدّين ، وانّما أدت بهم الخمر الى نعيم[2] .

وتقوم الدّولة العبّاسية على أكتاف الفرس والعرب ، فيأخذ العرب عن هؤلاء عاداتهم وتقاليدهم في شتّى مجالات الحياة ، كما يتأثّر الخلفاء العبّاسيون بحكام الفرس تأثرا كبيرا ، فيقلّدونهم في مظاهر الترف والبذخ ، وعقد مجالس الشراب واللهو ، واتّخاذ النّدماء من شعراء وظرفاء ، والمغنّين والمغنّيات .

وسخّر خلفاء الدّولة العبّاسية الدّين الاسلامي لخدمة مصالحهم الخاصّة ، فقد عملوا على استقدام رجال الدّين من المدينة الى بغداد[3] ، وكانوا يربّون علماء الشريعة في قصورهم ، وكانوا يحصلون منهم على الافتاء بصحّة أشدّ الاجراءات بعدا عن الحقّ[4] .

---

1) ينظر الأغاني 2 : 222

2) ينظر ديوانه 4 : 321 - 322 .

3) تاريخ الدّولة العربية 531 .

4) نفسه 532 . - وقد روى عن الشاعر ابراهيم بن هرمة أنه كان مولعا بالخمر فطلب من ممدوحه المنصور أن يأمر عامله بالمدينة بأن لا يحدّه اذا وجده سكرانا . فردّ بأنّه لا يعطّل حدّا من حدود الله . فطلب منه الشاعر أن يحتال له في ذلك . فكتب الخليفة الى عامله يخبره بجلد ابن هرمة عند السكر ثمانين جلدة ، وجلد من أتى به مائة جلدة . فكان يسكر ويصيح بمن يمر به من العسس من يشتري مائة بثمانين ؟ . (تاريخ الخلفاء 268 والأشربة 10) .

وعلى أنّ هناك من كان يميل الى تبرير شرب الخمر باعتماد ماجاء عند بعض الفقهاء [1] - كما تقدم - من أحكام تمتاز باللّين ، الاّ " أنّ هؤلاء المجان الذين أباحوا لأنفسهم شرب الخمر المحرّمة لم يكونوا في حاجة الى قول لابن مسعود أو رأي لأبي حنيفة ، فقد مضوا يشربونها وهم يعلمون أنّها الخمر المحرّمة ، ولكن اللّذاذة - كما يقول شاعرهم أبو نواس - في الحرام ، والخمر أمّ الخبائث ، فمن الطّبيعي أن تدفع شاربها الى اللّهو والعربدة والمجون والاستهتار بكلّ القيم الدّينية والأخلاقية "[2].

فسخر هؤلاء المجان بالدّين وبالمتمسكين به ، وبكلّ من يقول بتحريم الخمر . فراحوا يشككون في الدّين حتى وصل بهم الأمر الى الالحاد الصّريح . كما كان هناك من يسخر بالدّين ويظهر الزّندقة جريا وراء التّطرّف والشهرة بالظّرف[3] .

كما أدّى تسامح الخلفاء في الدّين وميولهم الى اللهو الى نشوء نزعة الحادية شجعها الشعوبيون وأعداء الدّين الجديد من المسلمين وغيرهم ، كما ساندها البعض لغرض سياسي[4] .

وتتضمّن الخمريات العبّاسية - على وجه الخصوص - الأفكار الالحادية التي كان يجاهر بها الشعراء المجان من أمثال أبي نواس ، و والبة بن الحباب ، ومطيع بن إياس وغيرهم .

واذا كان ندماء عبد الرحمن بن أرطأة انّما يجلسون لاحتساء كؤوس الخمر عندما يحين وقت صلاة العصر ، - كما مرّ بنا - فانّ مطيعا بن اياس يقول انّه وصحبه جلسوا

---

1) مثل أبي حنيفة الذي وصف السكر الموجب للحدّ بذهاب عقل الشارب حيث لا يعرف قليلا ولا كثيرا (ينظر الأشربة 59 - 60) - وكذا ابن مسعود الذي شاع عنه أنّه شهد التحليل والتحريم وأنه كان يشرب الصّلب من النّبيذ (ينظر الأشربة 24) .

2) حياة الشعر في الكوفة 222 .

3) ينظر نفسه 224

4) ينظر تطور الخمريات 227 .

لشربها ليلة عيد الأضحى .

(1)
قد شربنا ليلة الأضحى وساقينا يزيد

ويذكر أبو دلامة الشاعر - الذي لا يكاد يفيق من سكره - أنه خرج مرة من الحان يترنح سكرا فلقيه العسس وسألوه من يكون وما دينه فرد عليهم بقوله :

ديني على دين بني العباس ماختم الطين على القرطاس
اني اصطبحت أربعا بالكاس فقد أدار شربها براسي
فهل بما قلت لكم من باس (2)

ويفيد مسلم بن الوليد أصحابه بأن أحب الندامى الى الخمر ذلك الذي لا ينشغل عنها بالصلاة .

(3)
أخص الندامى عندها وأحبهم اليها الذي لا يعرف الظهر والعصرا

ويطلب ديك الجن المغفرة لذنوبه التي اقترفها، في صيغة كلها استهزاء ،فهو يدعي قتل الدن بدون ذنب ،كما يذكر أنه انشغل بالسكر عن الصلاة ،ويختم بأن الخمر هي سبب ذلك .

استغفر الله لذنبي كله قتلت انسانا بغير حله
وانصرم الليل ولم أصله والسكر مفتاح لهذا كله (4)

ولا يتحرج ابن هرمة من المجاهرة بأن نفسه تكره الحلال وتهوى الحرام . قال عندما نهاه أحد الولاة عن شرب الخمر :

نهاني ابن الرسول عن المدام وأدبني بآداب الكرام
وقال لي : اصطبر عنها ودعها لخوف الله لا خوف الأنام
وكيف تصبري عنها وحبي لها حب تمكن في عظامي (5)
أرى طيب الحلال علي خبثا وطيب النفس في خبث الحرام

---

1) الأغاني 13 : 296
2) نفسه 10 : 263
3) الديوان 41
4) الديوان 87
5) الديوان 224 - 225 .

ويجاهر ديك الجن بعدم ايمانه بالبعث ، ويعدّ ذلك خرافة ، ويذكر أنّه يفضّل احتساء الصهباء التي يهيم بها على انتظار خمر الجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين .

أأترك لذة الصهباء عمداً   لما وعدوه من لبن وخمر
حياة ثم موت ثم بعث   حديث خرافة يا أمّ عمرو (1)

كما يشكّ في البعث أيضاً ، الشاعر الخليع والبة بن الحباب الذي يقول بأنّه يحجّ الخمارات والحانات ، ويهزأ بالصّلاة في قوله :

جعلت الحجّ في غُمّى وبنّا   وفي قُطْرُبُّل أبداً رباطي
فقل للخمس آخر ملتقانا   واذا ماكان ذاك على الصّراط (2)

وربّما كان أبو نواس أكثر الشعراء مجاهرة بكفره ، وهو الذي هام بالخمر ، فأصبح يهوى الحياة من أجل احتسائها ، ولا يجد في الدّنيا لذة غير لذّة الشراب والسماع واللهو ، فهو لا يكاد يفيق من سكره الا ليعود اليه ، اذ كان يقضي أيّامه متنقّلا بين الحانات والدّساكر والأديرة . ولا يتحرّج من المجاهرة بشرب الخمر ، والمجون والكفر .

ونجده ـ أحيانا ـ يبرّر شربه الخمر المحرّمة ، واقترافه الكبائر ، لتأكّيده من سعة رحمة اللّه .

اترك التّقصير في الشّرب ، وخذها بنشاط
لِمَ ـ وعفو الله منذ ولد غدا عند الصّراط ـ
خلق الغفلة الاّ لامرئ في الناس خاطي (3)

الاّ أننا نلاحظ أنّه لا يشربها ثقة منه في رحمة الله ، وانّما يتعاطاها مهما كانت العواقب ، بل نجده يعترف بأنّه يعصي الله في شرب الخمر ، يقول مخاطبا عاذله :

---

1) الدّيوان 47

2) الأغاني 18 : 48 .

3) الدّيوان 131 ، وله أيضاً في هذا المعنى :

غاد المدام ، وان كانت محرّمة   فللكبائر عند اللّه غفران

أيّها العاتب في الخمـ ـر ، متى صرت سفيهـا
لو أطعنا ذا عتـاب لأطعنا اللّه فيهـا (1)

كما نجده يعترف بأنّه من المجّان الذين يؤثرون الدّنيا على الدّين .

بديربهْرا ذَا نَ لي مجلس وملعب وسط بساتينه
رحت اليه ومعي فتية نزوره يوم شعانينه (2)
بكلّ طلاّب الهوى ، فاتك قد آثر الدّنيا على دينه

وأحيانا أخرى يرى أبو نواس أنّ الدّنيا فانية ، لذا يجب اغتنام ملذّاتها بشرب الخمر .

واشرب الخمر ، على تحريمها انّما دنياك دار فانية (3)

ولا يتحرّج النّواسي من التّصريح بأنّ نفسه تحبّ الحرام ، وتنفر من الحلال .

يلائمني الحرام اذا اجتمعنا وأجفوعن ملاءمة الحلال (4)

وقد تقدّم هذا المعنى مع ابراهيم بن هرمة ولعلّ أبا نواس أفاد منه ، وبيته دون بيت ابن هرمة الذي أحسن صياغة المعنى .

بل انّنا نجد الشاعر يهزأ بالدّين دون تورّع ، حيث يصف الخمر بقوله :

عتّقت في الدّنّ حتّى هي في رقّة ديني (5)

" وكان أبو نواس اذا حلّ رمضان جعل يتبرّم به ، ويزعمه أطول من سائر الشّهور . وذلك أنّ احتباس الخمر وتكلّف النّاس مجانبة السّكر كرامة لهذا الشّهر المبارك ممّا يثقل على نفسه ويجعل اليوم في حسّه شهرا ، ويجعل الدّنيا من ضيقه بها حبسا ومن وحشته فيها قبرا ". (6)

---

1) الدّيوان 95
2) نفسه 83
3) نفسه 119
4) نفسه 62
5) نفسه 70
ولـه في هذا المعنى أيضا :
أدر علينا .. أدر معتّقة يرقّ منها صفيق اسلامي
6) ألحان الحان 121

قال في شهر رمضان الذي يفطمه عن خمره :

ألا ياشهر كم تبقى   عرضنا ومللناكا
اذا ماذكر الحمد   لشوّال ذممناكا
فيا ليتك قد بنت   وما نطمع في ذاكا (1)
ولو أمكن أن يقـ   ـتل شهر لقتلناكا !

ولا يفوت النّواسي أن يشمت بشهر رمضان عند نهايته ،فيقول فيه ساخرا :

لقد سرّني أنّ الهلال غديّة   بدا ،وهو ممشوق الخيال دقيق
أضرت به الأيّام حتّى كأنّه   عنانٌ لواه باليدين رفيق
وقفت أعزّيه ،وقد دقّ عظمه   وقد حان من شمس النّهار شروق
ليهن ولاة اللّهو أنّك هالك   فأنت بما يجري عليك حقيق
وانّي بشهر الصّوم اذبان شامت   وانّك ياشوّال لي لصديق
فقد عاودت نفسي الصّبابة والهوى   وحان صبوح باكر وغبوق (2)

كما ينصح الشاعر غيره بالشرب والقصف بعد مضي شهر رمضان :

استمد من رمضان   بسلافات الدّنان
واطو شوّالا على القصـ   ـف ،وتغريد القيان
وليكن في كلّ يوم   لك، فيه سكرتان
منّ شوّال علينا   وحقيق بامتنان
جاء بالقصف وبالعز   ف ، وتخليع المثان
أوفق الأشهر لي أبـ   ـعدها من رمضان ا (3)

ويتحدّى النّواسي كلّ من يحاول صدّه عن شرب الخمر ،فيصرّ على شربها وان أسكنته النّار .

---

1) الدّيوان 203 .
2) نفسه 205
3) نفسه 194

الرّاح شيء عجيب أنت شاربها   فاشرب ، وإن حمّلتك الرّاح اوزارا
يامن يلوم على حمراء صافية   صر في الجنان ، ودعني اسكن النّارا (1)

ولا يقف النّواسي عند عصيان عاذله على الخمر ، وانّما هو يذهب الى اغرائه ، فيدعوه الى احتساء كؤوس الخمر ، وترك الصّلاة والصّيام .

عاذلي فيها أطعني   وأقلّ الآن لومي
واشرب الرّاح ، ودعني   من صلاة كلّ يوم
واذا ماحان وقت   لصّلاة أو لصوم
فارفع الصّوم بشرب   وامزج الخمر بنوم
أبدا ما عشت خالف   د أب قوم بعد قوم (2)

وتكشف لنا خمريات أبي نواس عن الحاد صاحبها ، لتصريحه فيها باستهزائه بالدّين ، حيث يدعو نديما له الى الجمع بين زقّ الخمر والمصحف حتّى يتفرّغ عن ذنوب الشرب بتلاوة القرآن .

اسقني ، واسق يوسفا   مزّة الطّعم ، قرقفا
ضع الزّقّ جانبا   ومع الزّقّ مصحفا
واحس من ذا ثلاثة   واتل من ذاك أحرفا
خير هذا بشرّ ذا   فاذا اللّه قد عفا
فلقد فاز من محا   ذا بذا عنه ، واكتفى (3)

كما يبدو استخفاف الشاعر بالدّين في دعوته نديما الى الشرب واللهو بقوله :

فداؤك نفسي قد طربت الى الكاس   وتقت الى شمّ البنفسج والآس
فهل لك في أن نجعل اليوم نسكنا   ونشربها في البيت سرّا من النّاس (4)

---

1) الديوان 111
2) نفسه 205
3) نفسه 120
4) نفسه 112

ولا يتورع النّواسي من وصف عبث الشرب حينما يقومون للصّلاة في مجلس الخمر وهم سكارى .

ونـدمـان يـرى غبنـا عـليـه | بأن يمسي ، وليس لـه انتشاء
اذا ما أدركته الظّهر صلّى | ولا عصـر عليه ، ولا عشاء
يصلي هذه في وقت هذي | فكل صلاته أبدا قضاء (1)

كما يصرّح بأنّه وندمانه من " عصابة السوء " يستحثون الخمر عندما تحضر الصّلاة حتى يتشاغلون عنها بالسّكر .

عصابةُ سوءٍ لا يرى الدّهر مثلهم | وان كنت منهم لا بريئا ولا صفرا
اذا ما دنا وقت الصّلاة رأيتهم | يحثونها حتّى تفوتهم سكرا (2)

ويطالعنا أبو نواس من خلال خمرياته مجاهرا بالحاده متحاملا على الاسلام ، حيث يصرّح بتفضيله النصرانية على الاسلام ، كما يبدو من قوله في وصف ساق نصراني :

متخرسن ، دين النّصارى دينه | ذي قرطق لم يتّصل ببنائق
لبق ، بديع الحسن، لو كلّمته | لنبذت دينك كلّه من حالق
واللّه لولا أنّني متخوّف | أن أبتلى بامام جور فاسق
لتبعته في دينه ، ودخلته | ببصيرة فيه دخول الوامق
انّي لأعلم أنّ ربّي لم يكن | ليخصّه الاّ بدين صادقا (3)

ولا يتورع النّواسي ، فيزدري الآذان مفضّلا عليه ضربات النّواقيس ، قال يصف الرّهبان .

اعدل الى نفر ، دقّت شخوصهم | من العبادة ، الاّ نضو أشباح
يكرّرون نواقيسا مرجّعة | على الزّبور ، بامساء ، واصباح
تنأى بسمعك عن صوت تكرّهه | فلست تسمع فيه صوت فلاّح

---

1) الديوان 23 . وله أيضا في هذا المعنى قوله :

وحين حانت صلاتنا لضحى | قمنا نصلّي بغير تكبير

2) الدّيوان 6

3) نفسه 220

الاّ الدّراسة للانجيل من كتـب ذِكرَ المسيح بابلاج وافصاح

ياطيبهم ، وعتيق الرّاح تحفتهم بكلّ نوع من الطاسات رحـراح (1)

كما يعلن النّواسي تحدّيه للاسلام بشربه الخمر ، ويصف جزعه على تحريمها .

بكيت وما أبكي على دمن قفر وما بي من عشق ، فأبكي من الهجر

ولكنّ حديث جاءنا عن تبيّننا فذاك الذي أجرى دموعي على النّحر

بتحريم شرب الخمر ، والنّهي جاءنا فلمّا نهى عنها بكيت على الخمر

فأشربها صرفا ، وأعلم أنّني أعزّز فيها بالثّمانين في ظهري (2)

ويصرّح أبو نواس بأنّه يحجّ الخمارات والحانات ، ولا يقدّس أماكن أخرى غيرها .

قالوا تنسّك بعد الحجّ ، قلت لهم أرجوا الاله ، وأخشى طيْزَ نابَاذَا

أخشى قُضيّب كرم أن ينازعني فضل الخطام ، وان أسرعت اغذاذا

فان سلمت ـ وما قلبي على ثقة من السّلامة ـ لم أسلم ببغداذا

ما أبعد النّسك من قلب تقسّمه قطربّل ، فقُرى بَنَّى ، فكلْوَاذا (3)

كما يعمد الشاعر الى الاستخفاف بأركان الاسلام ، وذلك من خلال حوار يدّعي أنّه أجراه مع فقيه من الأحبار .

انّي قصدت الى فقيه عالم متنسّك ، حبر من الأحبار

متعمّق في دينه ، متفقّه متبصّر في العلم والأخبار

---

1) الديوان 121

2) نفسه 36 .

3) نفسه 26 .

وله أيضا في هذا المعنى قوله :

وقائل هل تريد الحجّ ، قلت له نعم اذا فنيت لذّات بغداذ

أما وقطربّل منها بحيث أرى فقبّة الفرك له من أكناف كلواذ

فالصّالحيّة ، فالكرخ التي جمعت شذّاذ بغداد ، ما هم لي بشذّاذ

فكيف بالحجّ لي مادمت منغمسا في بيت .. أو بيت نبّاذ

وهبك من قصف بغداد تخلصني كيف التّخلّص لي من طيزنا باذ ؟ !

قلت : النبيذ تحلّه ؟ فأجاب: لا   الآ عقارا ترتمي بشرار

قلت : الصّلاة فقال فرض واجب   صلّ الصّلاة ، وبت حليف عقار

اجمع عليك صلاة حول كامل   من فرض ليل فاقضه بنهار (1)

ويبلغ أبو نواس في تحدّيه للدّين ، ما يجعله في ذروة الكفر والالحاد ، يقول معاندا متحدّيا الخالق في شرابه الخمر .

يا أحمد المرتجى في كلّ نائبة   قم سيّدي نعص جبّار السّموات

وما كها قهوة صهباء ، صافية   منسوبة لقسرى هيت وعانات (2)

وعلّق أحد الدّارسين (3) على أنّ هذا البيت ممّا أنكر من قول أبي نواس ؛ " لأنّ هذه أعظم جرأة وأقبح مجاهرة وأشدّ تبغضا الى العزيز الجبّار عز وجلّ أن يقول : " نعص جبار السّموات " فذكر المعصية مع ذكر الجبار (عزّ اسمه) وأنّه ايّاه يقصد بالعصيان " . (4)

لقد تعرّض بعض الشعراء في خمرياتهم الى التّعريض بالدّين الاسلامي وتعاليمه باعتباره جاء بتحريم الخمر ، واعلان الحدّ في حقّ شاربها وذلك بعد أن كان الجاهلي يشربها دون شعور بالذنب ، اذ كان شربها من مظاهر الكرم والشّجاعة والمروءة ، لذا فلا غرابة اذا وجدنا شعراء الجاهلية يفخرون بشربهم الخمر .

وما تحرّم البعض عن شربها بعد تحريم الاسلام لها ، فقد شربوها سرّا في عهد الخلفاء الرّاشدين خوفا من العقاب . ولكن يطالعنا أبو محجن الثقفي بتحدّيه للاسلام الذي أصبح يمنعه من شرب الخمر التي هام بها ، فصرّح بتمرّده على الدّين وجاهر بعصيانه الله في شربها . وكان قد سجنه سعد بن أبي وقاص بسبب الخمر .

---

1) الدّيوان 200

2) نفسه 174

3) المرزباني

4) الموشح 270 .

وكثيرا ماكان شعراء الخمر الأمويون يسخطون في خمرياتهم على الدّين الذي منع شرب الخمر ، وشجعهم على ذلك تسامح بعض خلفاء بني أميّة الذين احتسوا الخمر في السّر والعلانية . فتعاطى النّاس الخمر متحدّين الدّين الذي جاء بتحريمها .

ومثلهم الخلفاء العبّاسيون الذين أهملوا الجانب الدّيني ، وأسرفوا في الاقتداء بعادات الفرس في مظاهر البذخ والترف وعقد مجالس الخمر واللهو . ولا غرابة اذا اقتدت الرّعية بساستها .

وتفشت ظاهرة المجون والخلاعة ، حيث آثر النّاس حياة اللهو .

وعمل الخلفاء على انتقاء ندمائهم من الشّعراء والظرفاء ، فكانوا يشربون في حضرة الخليفة ، كما نشأت عصبة من المجان كان همّهم الجلوس الى الشرب والفسق . فسادت نزعة إلحادية جاهر أصحابها بتحدّيهم للدّين الذي يحرّم شرب الخمر ، ويعلن الحدّ في حقّ شاربها . وجاءت الخمريات لتعكس بعض مظاهر هذه النزعة . حيث تصوّر عبث النّدمان بالدّين عند سكرهم فيعلنون الحادهم ويجاهرون به .

ويأتي على رأس هذه العصبة أبو نواس الذي تزخر خمرياته بالكفريات ، هذه الكفريات التي تصوّره اماما في الكفر والالحاد ، واذا كان الشعراء يتعرّضون الى الدّين من خلال الخمريات ، باعتبار أنّ الدّين جاء ليقف حاجزا دون شرب الخمر ، أو لكونهم يعنّفون ويعذلون في الخمر باسم نواهي الدّين ، فانّ النّواسي أصبح يقصد الى النّيل من الدّين قصدا . واذا نحن اطّلعنا على كفريات غيره من الشعراء ، وجدنا معانيها في المجاهرة بشرب الخمر ، أو مايقوم به الشرب من العبث بالدّين ، وهم في حالة سكر وبصفة خاصّة عند قيامهم للصّلاة ، وتضايقهم منها اذا حضر وقتها ، وكذلك من شهر رمضان الذي " يفطمهم " عن الخمر .

أمّا أبو نواس فزيادة على أنّه قال في هذه المعاني ، فانّنا نجده يجتهد في اصطياد معاني تثبت كفره وازدراءه بخالقه ، فيجاهر بتفضيله النّصرانية على ...

الاسلام ، ويبالغ في عصيانه وتمرّده على خالقه ، حين يقرّ بأنّ اللّه هو الجبّار ربّ السّماوات ، ثمّ يجاهر بعصيانه له .

وهذه المعاني لم ترد عند غيره من مجّان عصره . ذلك لأنّ النّواسي أحبّ الخمر حبّا ملك عليه حياته ، كما كان بطبيعته ميّالا الى اللّهو والمجون والظرف - وساعدته على ذلك طبيعة العصر الذي عاش فيه - فعاش حياته طالبا للمتعة واللهو ، هائما بشرب الخمر ، كما كان رقيق الدّين ميّالا الى الكفر والالحاد . فساعدته شاعريته على تصوير شخصيته الماجنة ، ونزعته الالحادية .

تتخلّل خمريات أبي نواس أبيات في الزندقة تشهد باستخفافه بأوامر الدّين وتحدّيه للخالق . وان كان الشاعر قد أعلن توبته في أخريات أيّامه ، فراح يصف ندمه على مافرّط فيه ويأمل في العفو والمغفرة من الخالق .

وكثيرا ماكان شعراء الخمر الأمويون يسخطون في خمرياتهم على الدّين الذي منع شرب الخمر ، وشجعهم على ذلك تسامح بعض خلفاء بني أميّة الذين احتسوا الخمر في السّرّ والعلانية . فتعاطى النّاس الخمر متحدّين الدّين الذي جاء بتحريمها .

ومثلهم الخلفاء العبّاسيون الذين أهملوا الجانب الدّيني ، وأسرفوا في الاقتداء بعادات الفرس في مظاهر البذخ والترف وعقد مجالس الخمر واللهو . ولا غرابة اذا اقتدت الرّعية بساستها .

وتفشت ظاهرة المجون والخلاعة ، حيث آثر النّاس حياة اللهو .

وعمل الخلفاء على انتقاء ندمائهم من الشّعراء والظرفاء ، فكانوا يشربون في حضرة الخليفة ، كما نشأت عصبة من المجان كان همّهم الجلوس الى الشرب والفسق . فسادت نزعة إلحادية جاهر أصحابها بتحدّيهم للدّين الذي يحرّم شرب الخمر ، ويعلن الحدّ في حقّ شاربها . وجاءت الخمريات لتعكس بعض مظاهر هذه النزعة . حيث تصوّر عبث النّدمان بالدّين عند سكرهم فيعلنون الحادهم ويجاهرون به .

ويأتي على رأس هذه العصبة أبو نواس الذي تزخر خمرياته بالكفريات ، هذه الكفريات التي تصوّره اماما في الكفر والالحاد ، واذا كان الشعراء يتعرّضون الى الدّين من خلال الخمريات ، باعتبار أنّ الدّين جاء ليقف حاجزا دون شرب الخمر ، أو لكونهم يعنّفون ويعذلون في الخمر باسم نواهي الدّين ، فانّ النّواسي أصبح يقصد الى النّيل من الدّين قصدا . واذا نحن اطّلعنا على كفريات غيره من الشعراء ، وجدنا معانيها في المجاهرة بشرب الخمر ، أو مايقوم به الشرب من العبث بالدّين ، وهم في حالة سكر وبصفة خاصّة عند قيامهم للصّلاة ، وتضايقهم منها اذا حضر وقتها ، وكذلك من شهر رمضان الذي " يفطمهم " عن الخمر .

أمّا أبو نواس فزيادة على أنّه قال في هذه المعاني ، فانّنا نجده يجتهد في اصطياد معاني تثبت كفره وازدراءه بخالقه ، فيجاهر بتفضيله النّصرانية على

. . . . . .

الاسلام ، ويبالغ في عصيانه وتمرّده على خالقه ، حين يقرّ بأنّ اللّه هو الجبّار ربّ السّماوات ، ثمّ يجاهر بعصيانه له .

وهذه المعاني لم ترد عند غيره من مجّان عصره . ذلك لأنّ النّواسي أحبّ الخمر حبّا ملك عليه حياته ، كما كان بطبيعته ميّالا الى اللّهو والمجون والظرف - وساعدته على ذلك طبيعة العصر الذي عاش فيه - فعاش حياته طالبا للمتعة واللهو ، هائما بشرب الخمر ، كما كان رقيق الدّين ميّالا الى الكفر والالحاد . فساعدته شاعريته على تصوير شخصيته الماجنة ، ونزعته الالحادية .

تتخلّل خمريات أبي نواس أبيات في الزندقة تشهد باستخفافه بأوامر الدّين وتحدّيه للخالق . وان كان الشاعر قد أعلن توبته في أخريات أيّامه ، فراح يصف ندمه على مافرّط فيه ويأمل في العفووالمغفرة من الخالق .

خـــاتمــــــــــة :

****

لقد عبّر الشّعراء الجاهليون عن موقفهم من الحياة من خلال وصف الخمر ، واذا نحن تصفّحنا خمرياتهم ، اتّضح لنا أنّهم اتخذوها أساسا أداة للّهو والترفيه ، للتّخفيف من قسوة الحياة .

فعمدوا الى تسجيل لحظات مرحهم ونشاطهم من خلال وصف لون الخمر وطيبها وتأثيرها ، وما يتّصل بها كالساقي والنّدماء وآلة الشرب .

كما كانت الخمر لدى الجاهليّين مظهرا من مظاهر التّرف والكرم ، فراحوا يتباهون باقتنائها ، وتقديمها للضيوف والنّدماء مهما كلّفهم ثمنها . وكانت أيضا من مظاهر الفروسية ، حيث كان الجاهليّ يقرن افتخاره بالشجاعة بفخره بتعاطي كؤوس المدام . غير أنّ الادمان على شربها كان أمرا مستقبحا يعرّض صاحبه للوم والاقصاء من طرف أعيان القبيلة .

وعلى أنّ الاسلام حرّم الخمر الاّ أنّ هناك من ظل يحتسيها ، ويجاهر بتمرّده على الدّين الذي جاء بتحريمها ، ولم يعد الأمر مجرّد ردّ على العواذل ، بل أصبح الشّاعر يحتسي خمره مع الشّعور بالذنب والمعصية ، فراح يؤكّد تعلقّه بها ، وعصيانه أوامر الخالق في شربها ، وهكذا انشغل الشاعر الاسلامي عن الجانب الفنّي ، حيث ظل يعتمد أوصاف الجاهليّين .

وهذه الأوصاف هي التي اعتمدها الشعراء الأمويّون وبأصحابها ، اذ ظلّوا على العموم يقتفون أثر أسلافهم في وصف الخمر ، وذلك لأنّهم عاشوا في بيئتهم بذهنية جاهلية ، فلم يتيسّر لهم الارتفاع بمعاني متقدّميهم الاّ نادرا .

فعلى كثرة ماقاله الأخطل في شرابه الاّ أنّه ظل يرتكز على خمريات الأعشى وقليلا

ما تجاوزها . وعلى أنّه توسّع في وصف الخمر ، الاّ أنّ موضوع الخمر قد ظل لديه غرضا من أغراض القصيدة .

ولا يسعنا هنا الاّ أن نستثني الشاعر الوليد بن يزيد الذي صقلت موهبته بيئته المتحضّرة ، فهو ابن قصور الشام ، وتجلّى ذلك في رقة معانيه ، وخفة أوزانه ، وافراده مقطوعات كاملة لوصف الخمر . بينما ظل الأقيشر وأبو الهندي يتأرجحون بين الأخطل والوليد بن يزيد .

وبمجيء العصر العبّاسي ، تضافرت عوامل كثيرة - لعلّ أهمّها الترف والفراغ والنّفوذ الفارسي وتسامح الخلفاء - جعلت شرب الخمر ظاهرة شائعة في المجتمع ، فأصبح العبّاسي يصبّ منها ماشاء ويتغنّى في وصفها كما يشاء . فغدا القول في الخمر غرضا كسائر الأغراض الشعرية المعروفة . كما أدّى انتشار الأديرة الى ظهور أدب يختص بوصف الدّير ، والخمر التي تقدّم فيه للضيوف .

واشتهرت في هذا العصر مجموعة من الشّعراء جعلوا همّهم في الحياة مقتصرا على اللهو والمجون وشرب الخمر والقول فيها ، ومنهم والبة بن الحباب وحماد عجرد ومطيع بن ايّاس ، كما اهتمّ بوصف الخمر مسلم بن الوليد وبشار بن برد .

ولقد استطاع هؤلاء الشّعراء أن يبدعوا في وصف الخمر معتمدين أسلافهم من الشّعراء ، فأضافوا اليهم ما أفادوه من حضارتهم - والخمر ربيبة الحضارة والترف - كما أضفوا عليها من عمق تجاربهم .

ويعتبر أبو نواس رائد الشّعر الخمري في الأدب العربي وذلك لكثرة وجودة ماقاله في وصف الخمر .

ونتساءل هنا عن هذه المعاني الكثيرة الجيّدة هل هي من ابداع الشاعر ، أم أنّه كان مقلّدا يقتفي فيها آثار أسلافه ؟

واذا نحن التمسنا الاجابة لدى النّقاد ،ألفيناهم ينقسمون الى فريق يحكم على الشّاعر بالتّقليد ،ومنهم من يتّهمه بسلخ معاني الوليد بن يزيد كلّها ، كما فعل أبو الفرج الأصفهاني ،ومنهم من يتّهمه بسرقة كلّ معاني أبي الهندي ،والاغارة على معاني معاصريه . وفريق آخر يشيد له بالقدرة على الابداع وابتكار المعاني الخمرية . واذا نحن تتبّعنا معاني أبي نواس الخمرية ،وعمدنا الى مقارنتها بالأوصاف الواردة عند غيره من الشّعراء الذين سبقوه أو المعاصرين له ، وجدنا أنفسنا أمام ثلاثة أقسام من المعاني ،كان الشّاعر في قسم منها مجرّد مقلّد يسطو على معاني غيره ،فيعيدها دون أن يكلّف نفسه عناء ،أو وربّما أضاف الى المعنى اضافات غير ذوات بال . وفي قسم آخر كان الشّاعر يعتمد معاني غيره ويسموبها حتّى تأتي كأنّها طريفة من ابداعه . والقسم الثّالث يحتوي معانيه المبتكرة التي استوحاها من سعة خياله وعمق تجاربه .

فالشّاعر عندما يقرن نكهة خمره بالمسك ،أو الزّعفران ،لا يعدو ما قاله أسلافه منذ الأعشى . وكذلك هو عندما يشبّهها لحمرتها بالدّم ،أو بنبات العندم أو الورس ،أو عندما يقرنها - لصفائها - بعين الدّيك .

والمتتبّع لوصف الحبب - الذي يعلو الخمر عند مزجها - في الشعر العربي يدرك أنّ أبانواس عندما شبّه الفقاقيع بعيون اليعاسيب وعيون الحيتان ،انّما اهتدى الى هذه المعاني معتمدا قول حارثة بن بدر في تشبيهه لها بعيون الجنادب . واستطاع أبو نواس أن يسمو بالمعنى حين شبّه فقاقيع الخمر بعيون لا جفون لها .

ومع ذلك فانّ خمريات أبي نواس تزخر بمعان طريفة تشهد بسعة خيال صاحبها وقدرته على الابداع . فعلى أنّه قرن طيبها بالمسك - على غرار متقدّميه من

الشّعراء - ، الاّ أنّه أبدع حين جعل ريحها يفضحه عندما حاول كتمانها ، كما قال بأنّه يهتدي الى حانوت الخمّار بطيب الخمر المتضوّع ، وانّ نورها هو الذي يقوده اليها في ظلام اللّيل ، كما شبّهها للمعانها ، وجمعها بين عدّة ألوان بقوس قزح .

وعلى كثرة ماقاله الشّعراء في وصف خمرهم بالقدم ، غير أنّ أبا نواس فاقهم جميعا حين وصف خمره بأنّها رضعت والدّهر ثديا واحدا ، فهي نشأت - حسب رأي الشاعر - في حجر أمّ الزّمان ، ولو تيسّر لها الكلام ، لحكت قصّة الأمم لأنّها عايشتها جميعا ، كما قال بأنّ خمره سبقت خلق آدم ، بل انّها رأت الدّهر ناشئا وعايشته حتّى هرمه . كما أشار الى تاريخ تعتيق خمره بقوله أنّها عتّقت والنّجوم وقف لم يتيسّر لها بعد أن تبدأ في الحركة .

ولقد كان الشّاعر يتوخّى الدّقّة في وصف الخمر وما يتّصل بها ، حيث يتفطّن الى أبسط الجزئيات ، فلا يغفل حتّى آثار الحبب على سطح الاناء ، فيشبّهها مرّة بحروف فارسية ، وأخرى بواوات صغيرة ، أو هي حروف غير معجمة ، غير واضحة المعالم ، وكأنّها كتبت بأكارع النّمل .

كما كان الشّاعر دقيقا في وصف مفعول الخمر ، حيث وصفها بأنّها تبعث الدّفء في جسم المقرور .

وعلى أنّ الشّعراء من متقدّمين ومعاصرين للشّاعر صدّوا عاذليهم على الخمر ، الاّ أنّه ما تفطّن أحدهم الى معنى أبي نواس في تحذيره العاذل من النّطق باسم الخمر حتّى لا يشينها بفيه مادام يلوم على شربها .

وجاء أبو نواس بوصف شامل لمجلس الخمر - كما ورد عند بعض الشّعراء - واستطاع

بفضل روحه المرحة أن يأتي بمعان طريفة كتشبيهه مجلس الخمر بحلبة سباق ، أو ساحة قتال ، كما صرّح بتفضيله الجلوس الى الخمر من الخروج الى الحرب أو الصّيد .

وعلى أنّ النّواسي لم ينفرد عن غيره من الشّعراء بتحديد موقع المجلس ، الّا أنّنا نجد بعض الأمكنة تتردّد كثيرا في خمرياته مثل الكرخ ، وقطربل ، وطيز ناباذ ، وبهذا فانّه خلّد في خمرياته أهمّ الأماكن التي اشتهرت بخمورها .

كما أعطانا من خلال خمرياته فكرة واضحة عن الصور والنّقوش التي كانت تزيّن اناء الخمر ، فهي امّا رومية تمثّل القسوس والصّلب ، أو فارسية تشيد بعظمة كسرى مع جنده ، أو في لحظات لهوه ، عند خروجه الى الصّيد . هذه الدّقة في الوصف التي افتقدناها في خمريات غيره من شعراء الخمر الذين وقفوا عند حدّ تحديد شكل الاناء وحجمه .

وهكذا فانّ متتبّع معاني أبي نواس الخمرية يدرك أنّ الشّاعر لم يكن مقلّدا في جلّ معانيه . ويبدو أنّه من الحيف أن نسلّم بحكم أبي الفرج الأصفهاني الذي كان قاسيا في حكمه على أبي نواس . فكما أنّه أفاد من الوليد بن يزيد ، فانّه قد أفاد من غيره ، ولم يكن أبو نواس عالة على الوليد بن يزيد بمقدار ماكانا معا عالة على الأعشى ، ذلك لأنّ دعائم هذا الفنّ قد وضعت في العصر الجاهلي ، ثمّ تحدّدت معالمه في العصر العبّاسي ، واكتمل ، واتّخذ شكله الأخير على يد أبي نواس .

وعلى أنّ الأدب العربي كان من بين الآداب العالميّة القليلة التي التفتت الى موضوع الخمر ، الّا أنّ تجربته فيها كانت سطحية . فقد انشغل الشّعراء - وأبو نواس أيضا - بوصف ما يتّصل بالخمر من الخارج فتعرّضوا للونها وطيبها وتأثيرها ، وما يتّصل بها كالنّديم والاناء ... ولم يعبّروا لنا عن تجاربهم ومعاناتهم ومآسيهم من خلال شعرهم الخمري .

المصادر والمراجع

1 ـ القرآن الكريم .

2 ـ أبو نواس عمر فروخ الطبعة الأولى دار المشرق الجديد بيروت 1960

3 ـ أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد . أحلام الزعيم
الطبعة الأولى دار العودة بيروت 1981 .

4 ـ أبو نواس الحسن بن هانئ عباس محمود العقاد .
الطبعة الأولى دار الكتاب العربي بيروت 1968 .

5 ـ أبو نواس شاعر من عبقر زكي المحاسني .
الطبعة الثانية دار الأنوار بيروت 1970 .

6 ـ أبو نواس في تاريخه وشعره ومساذله وعبثه ومجونه .
ابن منظور المصري دار الجيل بيروت لبنان 1975 .

7 ـ أبو نواس في مسازله وحياته اللاهية عمر أبو النصر الطبعة الأولى
المكتبة العصرية صيدا بيروت 1955 .

8 ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب
البصري البغدادي الطبعة الأولى مطبعة مصطفى البابي
الحلبي وأولاده مصر 1960 .

9 ـ أدب الندماء ولطائف الظرفاء أبو الفتح محمود بن كشاجم .
مطبعة جرجي غرزوزي الاسكندرية 1969 .

10ـ الأديب (مجلة الأديب) سنه 1948 عدد 9 ـ
سنة 1960 عدد 38 .

11 ـ الاسلام والحضارة العربية محمد كرد علي

الطبعة الأولى مطبعة دار الكتب القاهرة 1934 .

12 ـ الأشربة ابن قتيبة مخطوط بالهيئة العامة للكتاب القاهرة .

13 ـ الأصمعيات . مجموعات من عيون الشعر اختيار الأصمعي .

أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك .

تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون

الطبعة الثانية دار المعارف مصر 1964 .

14 ـ الأعلام خير الدين الزركلي

الطبعة الثانية مطبعة كوستا تسوماس وشركاه القاهرة 1957 .

15 ـ الأغاني أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني .

الطبعة الثانية دار الثقافة بيروت 1957 .

16 ـ ألحان الحسان عبد الرحمن صدقي .

الطبعة الأولى دار المعارف مصر 1947 .

17 ـ تاج العروس من جواهر القاموس محب الدين أبي الفيض السيد محمد

مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي (المتوفي سنه 1786)

الطبعة الأولى المطبعة الخيرية . 1887 .

18 ـ التاج في أخلاق الملوك أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

الطبعة الأولى دار الفكر بيروت 1955 .

19 ـ تاريخ الأدب العباسي رينولد آلن نكلسن ترجمة وتحقيق صفاء خلوصي

الطبعة الثانية مطبعة أسعد بغداد 1967 .

20 ـ تاريخ الأدب العربي عمر فروخ .

الطبعة الرابعة دار العلم للملايين . بيروت 1981 .

21 - تاريخ الأدب العربي (العصر الاسلامي) شوقي ضيف .

الطبعة الثالثة دار المعارف مصر 1963 .

22 - تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ريجيس بلاشير تعريب ابراهيم كيلاني .

الطبعة الأولى دار الفكر بيروت 1956 .

23 - تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) شوقي ضيف .

الطبعة الخامسة دار المعارف مصر 1975 .

24 - تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك الى منتصف القرن الخامس الهجري محمد جمال الدين سرور .

الطبعة الثانية دار الفكر العربي مصر 1967 .

25 - تاريخ الخلفاء جلال الدين عبد الرحمن السيوطي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

الطبعة الأولى مطبعة السعادة القاهرة 1952 .

26 - تاريخ الدولة العباسية جمال الدين الشيال .

الطبعة الأولى دار الكتب الجامعية الاسكندرية 1967 .

27 - تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية يوليوس قلهوزن ترجمة وتعليق محمد عبد الهادي أبو ريدة مصر 1958 .

28 - تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري نجيب محمد البهبيتي الطبعة الثانية مطبعة السنة المحمدية القاهرة 1961 .

29 - تاريخ الشعوب الاسلامية العرب والامبراطورية العربية كارل بروكلمان ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي الطبعة الأولى دار العلم للملايين بيروت 1948 .

30 - تاريخ الشعوب القديمة من عصر ما قبل التاريخ حتى ظهور الاسلام محمد رشدي الجندي .

الطبعة الأولى نشر دار الكتاب الدار البيضاء المغرب 1963 .

31 - تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي نبيه عاقل .

الطبعة الأولى المطبعة الجديدة دمشق 1976 .

32 - تاريخ العرب المطول فليب حتي ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور

الطبعة الثانية دار الكشاف بيروت 1949 .

33 - تاريخ العصر العباسي أمينة بيطار .

الطبعة الأولى مطابع مؤسسة الوحدة دمشق 1981 .

34 - التاريخ السياسي للدولة العربية عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين عبد المنعم ماجد .

الطبعة الرابعة ملتزمة الطبع والنشر المكتبة الأنجلو مصرية مصر 1967 .

35 - تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية الى أبي نواس جميل سعيد

الطبعة الأولى مطبعة الاعتماد بمصر القاهرة 1945 .

36 - ثورة الخمريات ثورة الزهديات محمد الصادق عفيفي .

الطبعة الأولى دار الفكر بيروت 1971 .

37 - الجامع لأحكام القرآن أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

مطبعة دار الكتب المصرية مصر 1959 .

38 - الجذور التاريخية للشعوبية عبد العزيز الدوري .

الطبعة الثالثة دار الطليعة بيروت . 1981 .

39 - جغرافية شبه جزيرة العرب محمد رضا كحالة مراجعة وتعليق أحمد علي

الطبعة الثانية مطبعة الفجالة الجديدة مصر 1964 .

40 - حديث الأربعاء طه حسين

الطبعة الثانية عشرة دار المعارف مصر 1976 .

41 - الحضارة الاسلامية خودا بخش ترجمة وتعليق علي حسني الخربوطلي .

الطبعة الأولى دار احياء الكتب العربية مصر 1960 .

42 - الحضارة الأموية العربية في دمشق عمر أبو النصر .

مطابع روطوس بيروت 1948 .

43 - حلبة الكميت في الأدب والنوادر المتعلقة بالخمريات شمس الدين محمد بن الحسن النواجي .

الطبعة الأولى مطبعة ادارة الوطن 1980 .

44 - حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني للهجرة يوسف خليف .

دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة 1968 .

45 - الديارات أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي .

الطبعة الثانية مطبعة المعارف بغداد 1966 .

46 - ديوان ابراهيم بن هرمة تحقيق محمد جبار المعيبد

مطبعة الاداب النجف الأشرف بغداد 1969 .

47 - ديوان أبي محجن الثقفي جمع الشيخ عمر السويدي شرح أبي هلال الحسن بن سهل .

مطبعة بريل ليدن 1886 .

.../...

48 - ديوان أبي نواس الحسن بن هانيء . تحقيق عبد المجيد الغزالي .
مطبعة مصر القاهرة 1953 .

49 - ديوان الأخطل تحقيق الأب أنطون صالحاني اليسوعي ،
الطبعة الأولى المطبعة الكاثوليكيه للآباء اليسوعيين بيروت 1890 .

50 - ديوان الأعشى ميمون بن قيس .
مطبعة آدلف هلز هوسن لندن 1928 .

51 - ديوان بشار بن برد تحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .
الطبعة الأولى مصنع الكتاب للشركة التونسية للتوزيع تونس 1976 م .

52 - ديوان حاتم بن عبد الله الطائي تحقيق فريد ريتش شولتاس لايبزق 1897 .

53 - ديوان حسان بن ثابت الأنصاري تحقيق عبد الرحمن البرقوقي
الطبعة الأولى دار الأندلس بيروت 1980 .

54 - ديوان ديك الجن الحمصي جمع وشرح عبد المعين الملوحي ومحيي الدين الدرويش .
مطابع الفجر الحديثة حمص 1960 .

55 - ديوان زهير بن أبي سلمى دار صادر بيروت 1964 .

56 - ديوان طرفة بن العبد تحقيق كرم البستاني دار بيروت بيروت 1979 .

57 - ديوان العباس بن الأحنف تحقيق كرم البستاني دار بيروت بيروت 1980 .

58 - ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق كرم البستاني دار بيروت بيروت 1979 .

59 - ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات تحقيق وشرح محمد يوسف نجم
الطبعة الثانية دار صادر بيروت لبنان 1958 .

60 - ديــوان عدي بن زيد العبادي تحقيق محمد جبّار المعيبد
الطبعة الأولى شركة دار الجمهورية للنّشر والطبع بغداد 1965 .

61 - ديــوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
الطبعة الثالثة مطبعة المدني القاهرة 1965 .

62 - ديــوان عمرو بن قميئة تحقيق خليل ابراهيم العطية بغداد 1972 .

63 - ديــوان القطامي عمير بن شييم تحقيق ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب
الطبعة الأولى دار الثقافة بيروت 1960 .

64 - ديــوان لبيد بن ربيعة العامري تحقيق ضياء الدين المقدسي .
الطبعة الأولى آدلف هلزهوسن وين 1880 .

65 - ديــوان امرئ القيس دار بيروت للطباعة والنّشر بيروت 1972 .

66 - ديــوان مسلم بن الوليد الأنصاري مطبعة بريل ليدن 1875 .

67 - ديــوان الوليد بن يزيد الأموي تحقيق ف . غبريلّي .
الطبعة الثالثة دار الكتاب الجديد بيروت 1967 .

68 - سرقات أبي نواس مهلهل بن يموت بن المزرع تحقيق وشرح محمد مصطفى هدارة .
الطبعة الأولى دار الفكر العربي القاهرة 1957 .

69 - السرقات الأدبية بدوي طبانة .
الطبعة الأولى مطبعة الرسالة مصر 1956 .

70 - سرور النفس بمدارك الحواس الخمس أحمد بن يوسف بن أحمد التّيفاشي
تهذيب محمد بن جلال الدين ابن منظور تحقيق احسان عبّاس .
الطبعة الأولى المؤسسة العربية للدّراسات والنشر بيروت 1980 .

71 ـ شرح المعلقات السّبع أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني

الطبعة الثالثة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده

مصر 1959 .

72 ـ شعر اللّهو والخمر تاريخه وأعلامه جورج غريب .

الطبعة الأولى دار الثقافة بيروت 1966 .

73 ـ شعراء عبّاسيون غوستاف فون غرونباوم ترجمة وتحقيق محمد يوسف

نجم مراجعة احسان عبّاس .

الطبعة الأولى دار مكتبة الحياة بيروت 1959 .

74 ـ الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربية اسماعيل بن حمّاد الجوهريّ (المتوفّى

بين 393 ـ 398) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار .

مطابع دار الكتاب العربي القاهرة 1956 .

75 ـ ضحى الاسلام أحمد أمين .

الطبعة الأولى مطبعة الاعتماد مصر 1933 .

76 ـ طبقات الشعراء ابن المعتز تحقيق عبد الستار أحمد فراج .

الطبعة الثانية دار المعارف القاهرة 1968 .

77 ـ العرب قبل الاسلام جرجي زيدان مراجعة وتعليق حسين مؤنس .

الطبعة الثانية دار الهلال القاهرة بدون تاريخ .

78 ـ العقيدة والشريعة في الاسلام اجناتس جولد تسيهر ترجمة وتعليق محمد

يوسف موسى ، عبد العزيز عبد الحق علي حسن عبد القادر .

الطبعة الأولى دار الكاتب المصري الروضة 1946 .

79 ـ فجر الاسلام طه حسين أحمد أمين عبد الحميد العبّادي .

الطبعة الأولى مطبعة الاعتماد مصر 1928 .

80 ـ فن الشعر الخمري وتطوّره عند العرب ايليا حاوي .

دار الثقافة بيروت بدون تاريخ .

81 ـ الفن الاسلامي أرنست كونل ترجمة أحمد موسى .

الطبعة الثانية مطبعة دار صادر بيروت 1966 .

82 ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي شوقي ضيف .

الطبعة الخامسة دار المعارف مصر 1965 .

83 ـ القيان والغناء في العصر الجاهلي ناصر الدين الأسد .

الطبعة الثانية دار المعارف مصر 1969 .

84 ـ كتاب الأوراق أبو بكر محمد بن يحيى الصولي .

الطبعة الأولى مطبعة الصاوي مصر 1934 .

85 ـ كتاب الصناعتين أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم .

الطبعة الأولى دار احياء الكتب العربية مصر 1952 .

86 ـ لسان العرب أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور المصري (المتوفي سنه 1291) دار بيروت للطباعة والنشر 1955 .

87 ـ محاضرات في تاريخ الحضارة العبّاسية يوسف العش .

الطبعة الأولى مطبعة فتى العرب دمشق 1977 .

88 ـ محيط المحيط : بطرس البستاني نسخة طبق الأصل .

طبعت بطريقة" الفوتواوفست " نقلا عن طبعة 1870 .

89 ـ المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور ابراهيم بن القاسم القيرواني تحقيق عبد الحفيظ منصور اختيار علي نور الدّين المسعودي
المطبعة الرسمية تونس 1976 .

90 ـ مشكلة السرقات في النقد العربي محمد مصطفى هدارة .
الطبعة الأولى مطبعة لجنة البيان العربي مصر 1958 .

91 ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص عبد الرحيم بن أحمد العبّاسي
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
طبعة عالم الكتب بيروت 1947 .

92 ـ معجم البلدان شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي طهران 1965 .

93 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي .
الطبعة الثانية دار العلم للملايين بيروت 1976 .

94 ـ المفضليات المفضل الضبي .
الطبعة الرابعة دار المعارف القاهرة 1979 .

95 ـ المقارنة بين الشعر الأموي والعبّاسي في العصر الأوّل عزيز فهمي تحقيق محمد قنديل البقلي .
الطبعة الأولى دار المعارف القاهرة 1979 .

96 ـ الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني
الطبعة الأولى المطبعة السلفية مصر 1923 .

97 ـ نفسية أبي نواس محمد النويهي .
الطبعة الأولى مطبعة السعادة القاهرة 1953 .

98 ـ الوساطة بين المتنبّي وخصومه أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني
تصحيح وشرح أحمد عارف الزين .
مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ميدان الأزهر مصر بدون تاريخ .

فهرس الموضوعات

مقدمة :		أ ـ ج
تمهيد :		1 ـ 21

الباب الأول صنعة الخمر

الفصل الأول	الخمر ولونها	22 ـ 52
الفصل الثاني	الخمر وطيبها	53 ـ 69
الفصل الثالث	الخمر وتعتيقها	70 ـ 99
الفصل الرابع	الخمر ومزجها	100 ـ 126
الفصل الخامس	تأثير الخمر وأوقات شربها	127 ـ 167

الباب الثاني شرب الخمر

الفصل الأول	الخمر والساقي	168 ـ 189
الفصل الثاني	الخمر والندمان	190 ـ 221
الفصل الثالث	الخمر والعاذل	222 ـ 145
الفصل الرابع	الخمر والمجلس	246 ـ 268
الفصل الخامس	آلة الشرب	269 ـ 292
الفصل السادس	الخمر والزندقة	293 ـ 312

خاتمة :		313 ـ 317
قائمة المصادر والمراجع		318 ـ 327
فهرس الموضوعات		328